



عاد

عناصر الموضوع

المجلد الثالث والعشرون

التعريف بعاد

ذكر الله سبحانه وتعالى الكثير من القصص القرآنية في كتابه العزيز، يتحدث في هذه القصص عن أقوام وأمم سابقة، كيف الحال معهم من حيث: عبادة الله عز وجل، وموقفهم من الأنبياء المرسلة إليهم، وما هو الجزاء الذي يستحقونه نتيجة أفعالهم ؟ كل ذلك لحكمة يقضيها الله سبحانه وتعالى، ومن الأقوام الذين قص الله خبرهم قوم عاد.

أولًا: التسمية:

هذه القبيلة ينسبون إلى جدهم عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، قال ابن إسحاق مبينًا ذلك: « عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح» [1].

وقال الطبري: « وكان ممن طغا وعتا على الله عز و جل بعد نوح، فأرسل الله إليهم رسولًا فكذبوه وتمادوا في غيهم، فأهلكهم الله هذان الحيان من إرم بن سام بن نوح أحدهما: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وهي عاد الأولى »[2].

ولكن هل هما عادان أم عاد واحدة ؟

ذكر أهل العلم في ذلك قولين:

القول الأول: إنها عاد واحدة، وقد نسب الألوسي هذا القول إلى الجمهور فقال: « ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠] أي: القدماء؛ لأنهم أولى الأمم هلاكًا بعد قوم نوح، كما قاله ابن زيد والجمهور »[3].

القول الثاني: إنهما عادان، وقد نقله الطبري عن ابن إسحاق، وقال به ابن كثير [4].

وسبب اختلافهم يرجع إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠].

فمن فهم من لفظة الأولى أن هناك أخرى جعلهما عادين، أما أصحاب القول الأول فقد فهموا من هذا الوصف أنها أولى باعتبار هلاكها فهي أولى الأمم هلاكًا بعد قوم نوح، وأول العرب ذكرًا، وأول العرب البائدة، أو إن الأولى بمعنى القديمة [5].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ١١٤.
(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ١٣٣.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ٧٠.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٣، أنوار التنويل وأسرار التأويل، البيضاوي ٥/ ٢٦٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٨٨.

ثم إن أصحاب القول الثاني اختلفوا في تسمية عاد الأولى والأخرى على قولين:

أحدهما: إن عادًا الأولى عاد بن إرم، وهم الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية، وعادًا الآخرة قوم هود.

الثاني: إن عادًا الأولى قوم هود والآخرة قوم كانوا بحضرموت [(١)]. والله أعلم.

ثانيًا: المكان:

تحدث القرآن الكريم عن مكان وجودهم وسكناهم، وقد سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم المكان الذي سكنوه وهو الأحقاف.

فالأحقاف اسم المنطقة التي سكنها قوم عاد، وهم قوم نبي الله هود عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١].

وقبل أن نقوم بتحديد مكان منطقة الأحقاف، لا بد من معرفة معنى الأحقاف كما ذكر في تفاسير القرآن، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره «أن الأحقاف جمع حقف وهو: الجبل من الرمل» [(٢)].

أما الماوردي فقد عرفها تعريفًا دقيقًا في تفسيره فقال: «الأحقاف هي ما استطال واعوج من الرمل العظيم ولا يبلغ أن يكون جبلا» [(٣)].

أما مكان الأحقاف التي هي ديار عاد فقد اختلف المفسرون في ذلك على أقوال يجمعها ما قاله الحافظ ابن كثير: «وكانوا عربًا يسكنون الأحقاف - وهي جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضر موت، بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر، واسم واديهم مغيث» [(٤)].

وعلى العموم فالمقصود من القصة أخذ العظة والعبرة مما حدث لهؤلاء القوم، وتحديد المكان ليس فيه مزيد عبرة سوى النظر في عاقبة الظالمين، وما أحسن قول الإمام الطبري بعد أن استعرض تلك الأقوال ثم قال: « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أن الله تبارك وتعالى أخبر أن عادا أنذرهم أخوهم هود بالأحقاف، والأحقاف ما وصفت من الرمال المستطيلة المشرفة، وجائز أن يكون ذلك جبلًا بالشام، وجائز أن يكون واديًا بين عمان وحضرموت، وجائز أن يكون الشحر، وليس في العلم به أداء فرض، ولا في الجهل

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٠٥، زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٨٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٦٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٨٥.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢.

(٤) قصص الأنبياء ١/ ١٢٠

به تضييع واجب، وأين كان فصفته ما وصفنا من أنهم كانوا قوما منازلهم الرمال المستعلية المستطيلة»[1].

ثالثًا: الزمان:

ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].
زمان قوم عاد، فهم كانوا من ذرية نوح عليه السلام، وبعده في الزمان.

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها، يعني في الأرض، ﴿مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: من بعد إهلاكهم»[2].

وقال ابن كثير: «وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩]»[3].

[انظر: هود: التعريف بهود عليه السلام وقومه]

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥.

عاد في القرآن

ورد ذكر (عاد) في القرآن الكريم (٢٤) مرة، في (١٨) سورة.

وأما قصتهم فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٦٥-٧٢
هود	٥٠-٦٠
الشعراء	١٢٣-١٤٠
فصلت	١٥-١٦
الأحقاف	٢١-٢٦
الذاريات	٤١-٤٢
القمر	١٨-٢١
الحاقة	٦-٨

رسول الله إلى عاد ورسالته

أولًا: اسم نبيهم ونسبه:

ذكر الله تعالى أن نبي الله هودًا عليه السلام أخ لقبيلة عاد، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف:٦٥].

إلا أن المفسرين اختلفوا في هذه الأخوة على قولين:

القول الأول: إنها أخوة نسب، وإن هودًا من قبيلة عاد، وممن صرح بذلك ونص عليه الإمام البغوي فقال: «أي: وأرسلنا إلى عاد -وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهي عاد الأولى - «أخاهم» في النسب لا في الدين»[(١)].

وعلى هذا فالأخوة هنا مطلق القرابة كما يقال: يا أخا العرب؛ إذ إن هودا من بني عاد[(٢)].

القول الثاني: إنه ليس من قبيلة عاد، أما إطلاق الأخوة عليه فلأنه بشر مثلهم، أو لكون الجميع من ولد آدم عليه السلام، وممن قال بذلك ابن إسحاق والزجاج.

يقول ابن الجوزي: « المعنى: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، قال الزجاج: وإنما قيل أخوهم؛ لأنه بشر مثلهم من ولد أبيهم آدم»[(٣)].

وبناء على هذا الخلاف ذكر في نسبه عليه السلام قولان:

القول الأول: إنه هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام. وهذا على قول من جعل الأخوة أخوة النسب.

القول الثاني: إنه هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام[(٤)].

وعليه لا قرابة بينه وبين عاد.

فأما اسم نبيهم عليه السلام فقد ذكر أهل العلم قولين في ذلك:

الأول: إن اسمه هود كما سبق.

والثاني: إن اسمه عابر.

يقول الإمام الطبري: « فأما عاد فإن الله عز و جل أرسل إليهم هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، ومن أهل الأنساب من يزعم أن هودًا هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح»[(٥)].

والذي يظهر أن الراجح هو أن اسمه هود كما نص عليه في غير ما آية من كتاب الله تعالى، وأنه من قبيلة عاد، وأن نسبه

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٤٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٤٢٣.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٢٢.
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٢٠، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٧.
(٥) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ١٣٣، وانظر: الأنساب، السمعاني ١/ ٢٥.

هو ما يلتقي فيه مع عاد، وذلك لظاهر الآية السابقة، والله أعلم.

وكان هود عليه السلام أشبه الناس بآدم، وقد تحدث القرآن كثيرًا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام، ويعتبر هود عليه السلام من أوسطهم بيتًا، وأكرمهم حسبًا، وأعزهم رهطًا، وذلك ليمنع من سفاهة قومه حتى يبلغهم رسالات الله، و نصح لهم هود بكل جهده وآتاهم بالحق من ربه [(١)].

[انظر: هود: نسب هود عليه السلام]

ثانيًا: رسالة هود عليه السلام:

أما رسالة النبي هود عليه السلام إلى قومه، مثل رسالة أي نبي من الأنبياء إلى أقوامهم، وذلك بدعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك؛ لكي لا يتخبطوا في بحر من الظلمات، وتحذيرهم وإنذارهم من غضبه وسخطه وعقابه، وتبشيرهم بجنته ورضوانه، والسمع والطاعة لأنبيائه، وهذا هو العهد والميثاق الذي أخذه على أنبيائه جميعًا بتبليغه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

ومجمل رسالة النبي هود عليه السلام ما ورد عن يحيى بن يعلى قال: «قال هود لقومه حين أظهروا عبادة الأوثان: يا قوم، إني بعثة الله إليكم، وزعيمه فيكم، فاتقوه بطاعته، وأطيعوه بتقواه، فإن المطيع لله يأخذ لنفسه من نفسه بطاعة الله للرضا، وإن العاصي لله يأخذ لنفسه من نفسه بمعصية الله للسخط، وإنكم من أهل الأرض، والأرض تحتاج إلى السماء، والسماء تستغني بما فيها، فأطيعوه تستطيبوا حياتكم، وتأمنوا ما بعدها، وإن الأرض العريضة تضيق عن التعرض لسخط الله» [(٢)].

ولهذا بعثه الله فيهم عليه السلام لكي لا يكون لهم حجة علي الله يوم القيامة.

وأصول رسالة هود عليه السلام ثلاثة:

الأصل الأول: الدعوة للتوحيد وترك عبادة الأصنام.

لم يبعث الله تعالى رسولا إلا دعا قومه إلى عبادة الله وحده.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٨٤، الأعلام، الزركلي ٨/ ١٠١، معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي ١/ ٢٤١، التيجان في ملوك حمير، عبد الملك الحميري ١/ ٣٣٨.

(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر ٧٤/ ٨٣.

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

قال الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولًا بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة ما سواه. وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»، لأنها مركبة من نفي وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه»(١).

وقوم عاد كانوا عبادًا للأصنام مشركين بالله تعالى، إذ كانت لهم ثلاثة أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، قال ابن إسحاق: « كانت منازل عاد وجماعتهم، حين بعث الله فيهم هودًا، الأحقاف كانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله: صنم يقال له: «صداء»، وصنم يقال له: «صمود»، وصنم يقال له: «الهباء»» (٢). فكان أول ما دعا إليه قومه وهو إفراد الله تعالى بالعبادة وحده قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٦٥].

قال البغوي: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف:٦٥]: وحدوا الله» (٣).

وقال ابن كثير: « يقول تعالى ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥]. آمرًا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهيًا لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الألهة »(٤).

وفي آية أخرى بين الله تعالى على لسان قوم عاد ما أمرهم به رسولهم عليه السلام فقال: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: قالت عاد له: أجئتنا تتوعدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة خالصًا، ونهجر عبادة الألهة والأصنام التي كان آباؤنا يعبدونها، ونتبرأ منها؟ فلسنا فاعلي ذلك، ولا نحن متبعوك على ما تدعونا إليه»(٥) .

فتضمنت هذه الآية أمرين:

الأول: الأمر بعبادة الله تعالى وحده.

والثاني: ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من الأصنام، فهم وإن كانوا قالوا ذلك استبعادا فهو بيان لما دعاهم إليه عليه السلام.

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٧، تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ١٣٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٨٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٢٠.

الأصل الثاني: الإيمان برسالة هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٤ - ١٢٦].

فهو يصف نفسه بالرسالة والأمانة وهذا يقتضي طاعته، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من ربي يأمركم بطاعته، ويحذركم على كفركم بأسه، ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه ورسالته، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته والانتهاء إلى ما يأمركم وينهاكم، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من اتقاء الله وتحذيركم سطوته»[1].

وقال السعدي: «﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٢٥].

أي: أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني، رتب على ذلك قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٦]أي: أدوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقي، بطاعتي فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، فهذا موجب، لأن تتبعوني وتطيعوني»[2].

وقال تعالى أيضًا مبينا هذا الأصل: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٦١-٦٢].

فهو عليه السلام رسول إليهم مبلغ لهم ما أرسل به إليهم، قال الطبري: «﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤديها إليكم كما أمرني أن أؤديها»[3].

وقال ابن كثير: «وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة»[4].

فظهر مما سبق أنه رسول إليهم ناصح لهم وأمين وهذا يقتضي أن يؤمنوا برسالته ويطيعوه.

الأصل الثالث: الإيمان بالبعث.

قال تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون:٣٥ - ٣٧].

ففي هذه الآيات الكريمات يبين الله تعالى لنا كفر عاد بالبعث من بعد الموت فهم يستبعدون ذلك أولًا، ثم ينفونه ثانية.

قال الطبري: «﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾: أي بعيد ما توعدون أيه القوم، من أنكم بعد موتكم ومصيركم ترابا وعظاما مخرجون أحياءً من قبوركم، يقولون: ذلك غير كائن وقوله:﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يقول: ما

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٧٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٤.

حياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يقول: تموت الأحياء منا فلا تحيا، ويحدث آخرون منا فيولدون أحياء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يقول: قالوا: وما نحن بمبعوثين بعد الممات»[1].

إلا أنه قد يقول قائل: إن هذه الآيات من سورة المؤمنون اختلف بالمقصود بها على قولين:

القول الأول: إنهم ثمود، ونبيهم صالح عليه السلام.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وقالت الأشراف من قوم الرسول الذي أرسلنا بعد نوح، وعنى بالرسول في هذا الموضع: صالحًا، وبقومه: ثمود»[2].

وقال السعدي: «قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون:٣١].

الظاهر أنهم ثمود قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم»[3].

واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ [المؤمنون:٤١]

قال ابن عاشور: «والأظهر أن المراد به هنا ثمود لأنه الذي يناسبه قوله في آخر القصة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾: [المؤمنون:٤١]؛ لأن ثمود أهلكوا بالصاعقة، ولقوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤٠].

مع قوله في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٨٣].

فكان هلاكهم في الصباح. ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عاد خلافًا لما تكرر في غير هذه الآية لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨][4].

القول الثاني: إنهم قوم عاد، ونبيهم هود عليه السلام.

قال البغوي: «﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٣٢].

يعني: هودا وقومه. وقيل: صالحا وقومه. والأول أظهر»[5].

وقال ابن الجوزي: «﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني عادًا ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو هود هذا قول الأكثرين، وقال أبو سليمان الدمشقي: هم ثمود والرسول صالح»[6].

واستدل أصحاب هذا القول بما هو معهود في القرآن الكريم من ذكر قصة عاد بعد ذكر قوم نوح.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٠-٣١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٥١.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٤٣٤.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤١٦.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٤٧١.

قال أبو السعود: « ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم عاد حسبما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعليه أكثر المفسرين وهو الأوفق لما هو المعهود في سائر السور الكريمة من إيراد قصتهم إثر قصة قوم نوح»[1].

والذي يظهر أن الراجح هو القول الثاني؛ لما ذكروه من سياق القرآن الكريم، وأما استدلال الأولين بهلاكهم بالصيحة فلا يمنع أن يجتمع عليهم الريح والصيحة؛ قال ابن كثير: «والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة»[2].

ثم إن الصيحة ليست مختصة بهم حتى تكون دليلا لإخراج السياق عن ظاهره، فقد أهلك الله بها أقواما غير ثمود، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

ففي هذه الآية بيان أن هلاك قوم شعيب بالصيحة، وقوم لوط أهلكوا بالصيحة.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر:٧٣].

وأصحاب القرية المذكورون في سورة يس أهلكوا بها.

قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ [يس:٢٩].

ثم كان مما دعاهم إليه زيادة على توحيد الله تعالى والإيمان برسوله وبالبعث أن دعاهم إلى ما يلي:

١. الاستغفار والتوبة.

قال تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود:٥٢].

والاستغفار هو طلب مغفرة الذنوب وسترها فلا يجازى بها، والتوبة هي الندم على ما فات والعزم على عدم الرجوع إلى الذنب مستقبلا قال ابن كثير: « ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه»[3].

ولا يتنافى هذا مع من قال: إن الاستغفار هنا هو الإيمان والتوحيد.

قال الطبري: « والاستغفار: هو الإيمان بالله في هذا الموضع، لأن هودًا صلى الله عليه وسلم إنما دعا قومه إلى توحيد الله ليغفر لهم ذنوبهم، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٣-٤]»[4]؛ وذلك لأن طلب المغفرة من الشرك يكون بالإيمان والتوحيد، والله أعلم.

٢. أنكر عليهم العبث.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٣٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٠٠
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٥٨.

قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨].

فما هو الريع الذي يتخذونه مكانا لبنائهم؟

ذكر المفسرون في ذلك ستة أقوال في معناها، يجمعها كلها أن الريع المكان المرتفع عند الطرق المشهورة يتخذ مكانا لبنائهم.

قال ابن كثير: «اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة»[١].

أما نوع البناء الذي وصف بأنه آية فالقول الجامع لأقوال المفسرين إنه بناء ظاهر مشهور إذ الآية هي العلامة والدلالة ولا يكون البناء آية إلا إذا كان ظاهرًا مشهورًا[٢].

وأما عبثهم فاختلف في تعيينه على قولين:

أحدها: اللهو واللعب، قاله عطية.

الثاني: أنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم[٣].

ومما سبق في تفسير هذه الآية أن نبيهم عليه السلام نهاهم عن العبث واللعب في بناء ما لا يحتاجون إليه، أما إذا كان البناء مما لهم به حاجة فلا يمكن أن ينهاهم عنه؛ قال ابن كثير: «أي وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة»[٤].

٣. أنكر عليهم اتخاذ المصانع.

قال تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩].

وفي معنى المصانع يقول الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورًا وحصونًا مشيدة، وجائز أن يكون كان مآخذ للماء، ولا خبر يقطع العذر بأي ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل. فالصواب أن يقال فيه، ما قال الله: إنهم كانوا يتخذون مصانع»[٥].

ولكن من الملاحظ أن نبيهم عليه السلام ينهاهم عن هذه الأبنية حينما تتعلق بها قلوبهم على أمر مذموم، فبناؤهم لهذه المصانع لكي يخلدوا فيها، وهذا أمر محال ولهذا جاءهم استنكار نبيهم.

قال ابن كثير: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١٨١، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٢٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٧٦.

تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩] أي: لكي تقيموا فيها أبدًا وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم»[1].

٤ . أنكر عليهم أيضًا تجبرهم على الناس.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠].

فالبطش هو: الضرب عند الغضب بسوط أو سيف، والجبارين جمع جبار، والجبار: الشديد في غير الحق، الذي يقتل ويضرب على الغضب، فالمعنى: إذا بطشتم كان بطشكم في حالة التجبر، أي الإفراط في الأذى وهو ظلم.

قال تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:١٩].

وشأن العقاب أن يكون له حد مناسب للذنب المعاقب عليه بلا إفراط ولا تفريط، فالإفراط في البطش استخفاف بحقوق الخلق[2].

وسبب إنكارهم يبينه الإمام ابن الجوزي بقوله: «وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صدر عن ظلم إذ لو ضربوا بالسيف أو بالسوط في حق ما ليموا»[3].

ثالثًا: أسلوبه في دعوة قومه:

لابد لهذا النبي الكريم من أسلوب في دعوته قومه ليتم بذلك بلاغه على أكمل وجه، وإن المتأمل في دعوته عليه السلام لقومه يجد أن له أسلوبا واضحا سلكه حينما عرض عليهم دعوته يتمثل فيما يلي:

١ . تخويفهم عذاب الله.

ذكر الله تعالى عنه هذا في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٣٥].

فقد بين لهم عليه السلام أن عاقبة تكذيبهم العذاب العظيم.

قال الشوكاني: « ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء:١٣٥] إن كفرتم وأصررتم على ما أنتم فيه ولم تشكروا هذه النعم والمراد بالعذاب العظيم الدنيوي والأخروي»[4].

وقال البيضاوي: « ثم أوعدهم فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قدر على الإنعام قدر على الانتقام»[5].

والثانية: قوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف:٢١].

قال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٧٥، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٢٣.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ١٣٦
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٨.
(٥) أنوار التنويل، البيضاوي ٤/ ٢٤٨.

﴿عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليل للنهي في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، أي إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم بسبب شرككم»[1].

وقال السعدي: «فأمرهم بعبادة الله الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد وخوفهم -إن لم يطيعوه- العذاب الشديد، فلم تفد فيهم تلك الدعوة»[2].

٢. تذكير نعم الله عليهم.

والتذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواعظ الرسل[3].

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

قال ابن كثير: «أي: واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي: زاد طولكم على الناس.

﴿بَسْطَةً﴾ أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم؛ كقوله في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[البقرة:٢٤٧]. ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: نعمة ومنه عليكم لعلكم تفلحون»[4].

وقال أبو السعود: « فاذكروا آلاء الله التي أنعم بها عليكم من فنون النعماء التي هذه من جملتها وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير وتعميم إثر تخصيص لعلكم تفلحون كي يؤديكم ذلك إلى الشكر المؤدي إلى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب»[5].

وزاد ذلك إيضاحًا في سورة الشعراء فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣٢ - ١٣٤].

قال ابن عاشور: « وقد جاء في ذكر النعمة بالإجمال الذي يهيىء السامعين لتلقي ما يرد بعده فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:١٣٢].

ثم فصل بقوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء:١٣٣] وأعيد فعل ﴿أَمَدَّكُمْ﴾ في جملة التفصيل لزيادة الاهتمام بذلك الإمداد فهو للتوكيد اللفظي »[6].

٤. استعطافهم بإلانة القول لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥].

فهو عليه السلام يناديهم بـ(يا قوم)؛ ليبين لهم أنهم هم أولى من يحرص على نجاته إذ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٤٤٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٥١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٤.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٩.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٧٦.



هم قومه، وأقاربه ثم يستعطفهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: مستخدما أداة العرض؛ وفي هذا من لطف الخطاب، والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى[1].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف إلى التقى والإيمان»[2].

وقال أبو السعود: «قال مستعطفا لهم ومستميلا لقلوبهم مع ما سمع منهم ما سمع من الكلمة الشنعاء الموجبة لتغليظ القول والمشافهة بالسوء يا قوم ليس بي سفاهة أي شيء منها ولا شائبة من شوائبها»[3].

٥. الشدة في الخطاب لهم.

يبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

فجملة ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ توبيخ وإنكار، أي: ما أنتم إلا كاذبون في ادعاء إلهية غير الله تعالى[4].

قال الطبري: «يقول: ما أنتم في إشراككم معه الآلهة والأوثان إلا أهل فرية مكذبون»[5].

ويبينه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

يقول الطبري: « يقول: ولا تدبروا عما أدعوكم إليه من توحيد الله، والبراءة من الأوثان والأصنام ﴿مُجْرِمِينَ﴾، يعني: كافرين بالله»[6].

فحاصل أسلوبه في دعوته لهم هو الجمع بين الترغيب والترهيب والشدة واللين إذ لكل مقام مقال، ولكن لم ينفع معهم ذلك، قال ابن كثير: «فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم»[7].

ويحسن بنا في نهاية هذا المبحث أن نذكر بعضا من هدايات الآيات الكريمة التي ذكرت فيه؛ فمن ذلك:

- كون هود عليه السلام من قبيلة عاد وأخ لهم نسباً، فهذا أدعى لأن تعرف صفاته وأخلاقه التي تبعث على تصديق قومه له لهم.
- أهمية الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والإيمان بالرسل وبالبعث، وهذا الأصول تنتظم أركان الإيمان الأخرى.
- من الله تعالى على رسوله هود عليه السلام وغيره من الرسل بصفات كانت دليل صدق على دعواهم النبوة من أهمها كونه ناصحًا أمينًا.
- من كان مستغفرًا عما سلف من ذنوبه، عازمًا على عدم العودة لارتكاب

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٥٧.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٨٤.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٥٧.
(٦) المصدر السابق ١٥/ ٣٦٠.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٦.

المعصية في مستقبل الأيام يسر الله له رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه.

- شدة خوف الأنبياء على أقوامهم يدعوهم إلى بذل الجهد في محاولة استجابة الدعوة.
- إبداء مشاعر الداعية لمدعويه كالمحبة لهم وخوفه عليهم من العذاب، وتذكيره إياهم بنعمة الله تعالى، مدعاة لقبول ما يدعو إليه ممن أراد الله به خيرًا.
- تنوع الخطاب في الدعوة لينا وشدة وترغيبًا وترهيبًا يراعى فيه مقتضى حال المدعو وطبيعته، فمن الناس من يستجيب إذا ألنت له في الخطاب، ومنهم من تكون الشدة والقسوة رادعًا له[1].

[انظر: هود: عناصر رسالة هود عليه السلام وأسلوبه في الدعوة إلى الله]

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٣، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٥٥٢، وغيرهما من كتب التفسير

موقفهم من رسولهم ومعجزاته

حال قوم عاد كحال الأقوام التي سبقتها والتي جاءت بعدها من حيث تكذيب أنبيائهم ورسولهم، وجحودهم، وكفرهم بالله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق:١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ [ص:١٢-١٤].

«أخبرنا الله في القرآن عن قصة قوم عاد، وكفرهم بالله، وتكذيبهم نبيهم هودًا عليه السلام وقد ذكرت قصتهم بالتفصيل في سور: الأعراف وهودٍ والشعراء وفصلت والقمر وغيرها»[2].

ونبين موقفهم من نبيهم إن شاء الله على النحو الآتي:

قوم عاد كانت لهم أصنام يعبدونها دون الله تسمى «صداء، وبغاء، وصمود» فبعث الله إليهم نبيه هودًا عليه السلام برسالاته وداعيًا إلى عبادته، فبلغهم الرسالة ونصح

(٢) القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د صلاح الخالدي ١/ ١٦٠.

لهم ما استطاع، وكان أمينًا في نصحه لهم، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝﴾ [الشعراء:١٢٥-١٢٦].

فردوا نصيحته وطرحوا قوله، وكرهوا ما جاءهم به، وتمثل ذلك في صور، وهي:

١ . الكفر بالله.

وما كان رد قومه على دعوته إلا أنهم كفروا بالله، لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:٦٠].

والمعنى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ «فهذه شهادةٌ مؤكدةٌ عليهم بالكفر، أي: كفروا نعمه عليهم بجحودهم بآياته وتكذيبهم لرسله كبرًا وعنادًا، يقال: كفره وكفر به، وشكره وشكر له، ومعنى مادة الكفر في الأصل التغطية.

و﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: دعاءٌ عليهم بالهلاك والبعد من الرحمة حكايةً لبدئه، وتسجيلًا لدوامه، كرر ألا المنبهة لما بعدها تعظيمًا لأمره، وكرر اسمهم ووصفهم بـ قوم هودٍ ليفيد السامع بالتكرير تقرير استحقاقهم للعنة والإبعاد وسببه، أنهم ليس لهم شبهة عذرٍ لرد الدعوة المعقبة للحرمان مما كانوا فيه من خيرٍ ونعمةٍ، والانتهاء إلى ضده من شقاءٍ ونقمةٍ»[١].

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي بنعمة ربهم، يقال: كفرته وكفرت به مثل شكرته وشكرت له، ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: لا زالوا مبعدين من رحمة الله، والبعد الهلاك والتباعد عن الخير، يقال: بعد يبعد بعدًا إذا تأخر وتباعد، وبعد يبعد بعدًا إذا هلك، والمبالغة في التنصيص والتكرير بعبارتين مختلفتين تدل على تقوية التأكيد ونهاية التحقيق، وقد تقدم أن العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك»[٢].

على الرغم من أن هودًا عليه السلام الذي جاء بعد نوح عليه السلام دعا قومه فأعرضوا عنه، كما كانت دعوة نوح، ولقي منهم ما لقي نوح من قومه من تكذيب وتسفيه، ولكنه مضى معهم كما مضى نوح مع قومه ناصحًا، متلطفًا، يلقى السيئة بالحسنة، والشر بالخير، وهم مع هذا لا يزدادون إلا عنادًا وإصرارًا على ما هم فيه من عمى وضلال.

وتجيء الخاتمة التي لا تختلف أبدا نجاة للمؤمنين، وهلاك للمكذبين المعاندين[٣].

وهذا أكبر دليل على إصرارهم على الكفر بالله تعالى.

٢ . الجحود والاستنكار.

لم يقتصر ردهم بالكفر على دعوة نبيهم، وإنما قابلوها بالجحود والاستنكار، وهذا ما ذكره الله في كتابه العزيز: ﴿قَالُوا

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ١٠٠.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد القنوجي ٦/ ٢٠٤.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٤٢٠.

﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣].

والمعنى: «قالوا: يا هود أي قالوا لنبيهم: ما جئتنا بحجة وبرهان على ما تدعيه أنك رسول من عند الله، ولن نترك عبادة آلهتنا بمجرد قولك: اتركوهم، وما نحن لك بمصدقين، وما نظن إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب شتمك لها ونهيك عن عبادتها وعيبك لها.

فكان جوابهم متضمنا أربعة أشياء كلها عناد وحماقة واستكبار، وهي المطالبة بالبينة والإصرار على عبادة الألهة، مع أنهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى، وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر، وعدم التصديق برسالة هود مما يدل على الإصرار والتقليد والجحود، وإفساد عقله، وجعله مجنونًا بواسطة الألهة»[١].

فرغم كل ذلك من دعوتهم لعبادة الله، والاستغفار والتوبة إليه وإتيانهم بالمعجزات إلا أنهم أنكروا ذلك وقالوا ما جئتنا ببينة، كما ذكر في الآية السابقة، وهذا ما بينه الزحيلي في تفسيره: قال لهم: (استغفروا ربكم) من الشرك، (ثم توبوا إليه) أخلصوا التوبة من المعاصي والكفر بالله، وارجعوا إليه بالطاعة، أي: اطلبوا المغفرة من الله بالإيمان، ثم توسلوا إليها بالتوبة، ثم لا يكون التبري من الآخرين إلا بالإيمان بالله والرغبة فيما عنده، (يرسل السماء) الغيث، وكانوا قد منعوه واشتدت حاجتهم إليه؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع، و(يزدكم قوة إلى قوتكم) أي: يزدكم قوة مع قوتكم بالمال والولد، أو يضاعف قوتكم بالتناسل والأموال، (ولا تتولوا مجرمين) مشركين.

فكان ردهم: (ما جئتنا ببينة) ببرهان على قولك، وبحجة تدل على صحة دعواك، وهذا لفرط عنادهم، وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات، (وما نحن بتاركي آلهتنا) وعبادتها، صادرين عن قولك أو لقولك، (وما نحن لك بمؤمنين) إقناطٌ له من الإجابة والتصديق.

(إن نقول) ما نقول في شأنك، (اعتراك) أي: أصابك بعض آلهتنا بسوء بجنون، لسبك إياها وصدك عنها، فأنت تهذي وتتكلم بالخرافات[٢].

وما يدلل على جحودهم بآيات الله وعدم إيمانهم بها، قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود:٥٩] أي: «تلك الآية فيها إجابة عن سؤال هو: ماذا كان من أهل تلك الديار حتى حل بهم هذا المسخ؟ فكان

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٢/ ٩١.
وانظر: التيجان في ملوك حمير، عبد الملك الحميري ١/ ٣٣٨.

(٢) انظر: التفسير المنير ١٢/ ٨٨.

الجواب: «جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد» ! والجبار العنيد هو كل رأس من رؤوس الكفرة والمشركين الذين يتولون كبر الحرب التي يعلنها أعداء الله على رسل الله.

وفي قوله: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ ما يسأل عنه:

كيف جاء النظم القرآني محدثا عن أنهم عصوا رسل الله مع أنهم لم يعصوا إلا رسولهم هودًا الذي أرسل إليهم؟

والجواب: أن رسل الله على طريق واحد، يقومون على أداء رسالة واحدة هي الدعوة إلى الله سبحانه والإيمان به وبكتبه ورسله، واليوم الآخر.

فهم من جهة بمنزلة رسول واحد، يتجدد مع الزمن في صورة من ظهر منهم من الرسل، وهم من جهة أخرى رسل كثيرون يجيء بعضهم إثر بعض في صورة رسول؛ إذ لا يختلف أحد منهم عن صاحبه في مفهوم الرسول وفى مضمون رسالته ومحتواها، فهم رسل في رسول، وهم رسول في رسل!»[1].

٣. التكذيب بالرسل.

هذا ما صدر عنهم التكذيب بالأنبياء والرسل وبكل ما جاؤوا به، مثلهم مثل الأقوام التي سبقتها لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ [الشعراء:١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ [ق:١٢-١٤].

والمعنى: ﴿كَذَّبَتۡ﴾ وسم الفعل بالتاء إشارة إلى هوانهم في جنب هذا المجد ولما كان هؤلاء الأحزاب المذكورون لقوتهم وكثرتهم كأنهم أهل المجد قاطبة قد استغرقوا زمانها ومكانها، ﴿كُلّٞ﴾ أي من هذه الفرق ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي كلهم قاموا بتكذيب رسولهم، فإن الكل متساوون فيما يوجب الإيمان من إظهار العجز والدعاء إلى الله، ﴿فَحَقَّ﴾ فتسبب عن تكذيبهم لهم أنه ثبت عليهم ووجب ﴿وَعِيدِ﴾ أي: الذي كانوا يكذبون به عند إنذارهم لهم إياه، فعجلنا لهم منه في الدنيا ما حكمنا به عليهم في الأزل فأهلكناهم إهلاكًا عامًا كإهلاك نفس واحدة على أنحاء مختلفة كما هو مشهور عند من له بأمثاله عناية، وأتبعناه ما هو في البرزخ، وأخرنا ما هو في القيامة إلى البعث، بإهلاكنا لهم على تنائي ديارهم وتباعد أعصارهم وكثرة أعدادهم، إن لنا الإحاطة البالغة فتسل بإخوانك المرسلين وتأس بهم، ولتحذر قومك ما حل بمن

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١١٥٩.

كذبهم إن أصروا[1].

٤ . الاستكبار بغير حق.

ومن شدة افترائهم قالوا: من أشد منا قوة ؟! مما جعلهم يتكبرون في الأرض بغير حق، لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت:١٥].

والمعنى: «فأما عادٌ فاستكبروا على عباد الله في الأرض التي هي محل الاختبارات الإلهية بغير الحق، أي بلا إطاعة وانقياد وسابقة دين ونبي يرشدهم إلى طريق الحق، وهم من شدة تعنتهم وبطرهم قد قالوا على سبيل الشرف والمباهات: من أشد على وجه الأرض منا قوةً وأكثر عددًا وعددًا، وأتم بسطة واستيلاء؟! وإنما قالوا هذه حين تخويف الرسل إياهم بإلمام العذاب عليهم، وهم قد كانوا أعظم الناس جسامة وأوفرهم قوة وقدرة، لذلك اغتروا بما عندهم من الثروة والرياسة، فكذبوا الرسل وقالوا لهم: نحن ندفع العذاب الذي ادعيتم نزوله أيها الكاذبون المفترون بوفور حولنا وقوتنا. أيغترون على قوتهم وجسامتهم وينكرون كمال قدرة الله وشدة انتقامه، ولم يروا ولم يعلموا أن الله العزيز القدير الذي خلقهم وأظهرهم من كتم العدم، ولم يكونوا شيئًا مذكورا؟! هو سبحانه بعلو شأنه وبكمالات أسمائه وصفاته أشد منهم قوةً، وأتم حولا وقدرة، وأحكم بطشًا وانتقامًا، ولكن قد كانوا بآياتنا يجحدون وينكرون بحسب الظاهر عنادًا ومكابرة واغترارًا بما معهم من الثروة والجسامة بعدما تمادوا على غيهم وأصروا على عتوهم وضلالهم»[2].

ولم يتوقفوا عند هذا الحد وإنما ازدادوا في طغيانهم إلى أن قالوا لنبيهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء:١٣٦].

أي: لما سمعوا منه ما سمعوا من العظة والتذكير والنصيحة على طريق المبالغة قالوا من نهاية استكبارهم واستنكافهم وشدة إنكارهم: سواءٌ علينا يا هود أوعظت بما وعظت أم لم تكن أنت من الواعظين المذكرين، أي: وعظك وعدمه سواءٌ عندنا لا نبالي بشيءٍ منه، ولا نلتفت إلى ما تقوله، إذ نحن ما نسمع منك خرافاتك، ولا نمتثل بها، ولا نترك لأجلها وأجلك أخلاق أسلافنا التي قد كانوا عليها[3].

وقيل: «فقالوا معاندين للحق مكذبين

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٨/ ٤١.

(٢) الفواتح الإلهية، نعمة الله النخجواني ٢/ ٢٧٥

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٢٩، الفواتح الإلهية، نعمة الله النخجواني ٢/ ٤٨، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي ١/ ٢٥٢.

لنبيهم بعدما ذكرهم بنعم الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أي: الجميع على حد سواء، وهذا غاية العتو، فإن قومًا بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب وجودها وعدمها عندهم على حدٍ سواء لقوم انتهى ظلمهم واشتد شقاؤهم وانقطع الرجاء من هدايتهم»[1].

وكل ما وجده نبيهم هود عليه السلام منهم كما ذكرنا سابقا، إلا أنه أوضح لهم أنه متوكل على الله سبحانه وتعالى ولن يضروه بشيء، وهذا ما بينه أبو حيان في تفسيره: «مجاهرة هودٍ عليه السلام لهم بالبراءة من أديانهم وحضه إياهم على كيده هم وأصنامهم معجزةٌ لهودٍ، أو حرض جماعتهم عليه مع انفراده وقوتهم وكثرتهم فلم يقدروا على نيله بسوءٍ، ثم ذكر توكله على الله معلمًا أنه ربه وربهم، ومنبهًا على أنه من حيث هو ربكم يجب عليكم أن لا تعبدوا إلا إياه، ومفوضًا أمره إليه تعالى ثقةً بحفظه وإنجاز موعوده، ووعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الغيث وتضاعف القوة بالتناسل شرط أن لا يتولوا ولا يعرضوا عما يدعوهم إليه، إلا أنهم مصرين على إجرامهم»[2].

ولهذا لم يؤمن منهم إلا القليل فكانت لهم النجاة في الدنيا والآخرة.

ويستفاد من ذلك: أن قوم هود عليه السلام تفننوا في كيفية صد دعوة نبيهم بمختلف الطرق والوسائل، مما يدلل على عنادهم وإصرارهم على الكفر.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٥.

(٢) البحر المحيط في التفسير ٦/ ١٦٨.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٣٨.

نعم الله عليهم وموقفهم منها

سبق أن ذكرنا أن نبي الله هود عليه السلام حينما دعا قومه ذكرهم نعم الله عليهم، وفي هذا المبحث نذكر هذه النعم ثم نبين موقفهم من تلك النعم.

أولًا: نعم الله على عاد:

فلقد عدد الله تعالى في كتابه نعمه عليهم، وبيانها كما يلي:

١ . نعمة القوة.

ذكرها الله سبحانه على لسان هود عليه السلام في قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢].

وللمفسرين في بيان هذه القوة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الولد وولد الولد، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: يزدكم شدة إلى شدتكم، قاله مجاهد وابن زيد.

والثالث: خصبا إلى خصبكم، قاله الضحاك[1]. ولا مانع من أن يكون المراد كل ذلك.

وجاء ذكرها أيضًا في سورة فصلت عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

قال الشوكاني: «﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا ذوي أجسام طوال وقوة شديدة»[2].

وبين أبو السعود شيئًا من تلك القوة فقال: « وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من جبل فيقتلعها بيده»[3]، فهذه قوة في أجسادهم، والسابقة زيادة عليها كما هو ظاهر الآيتين.

٢ . الخلافة في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

فهذه الخلافة نعمة أنعمها الله تعالى على قوم عاد، قال ابن كثير: «أي: واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه»[4].

وقال القرطبي: «من عليهم بأن جعلهم سكان الأرض بعد قوم نوح»[5].

قال أبو السعود: « اذكروا وقت جعله تعالى إياكم خلفاء من بعد قوم نوح أي: في مساكنهم أو في الأرض بأن جعلكم ملوكا، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٧٣١

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧٢٦.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٨. وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٦.

من رمل عالج إلى شحر عمان»[1].

وقال ابن عاشور: «والمعنى: اذكروا الوقت الذي ظهرت فيه خلافتكم عن قوم نوح في تعمير الأرض والهيمنة على الأمم، فإن عادا كانوا ذوي قوة ونعمة عظيمة»[2].

فظهر من هذه النقولات أنهم خلفوا قوم نوح في مساكنهم، ومكن الله لهم في الأرض ملكا وتعميرا وهيمنة على من سواهم من الأمم.

٣. بسطة الخلق.

قال تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩].

وقد ذكر المفسرون أن المراد بالبسطة إما القوة أو بسطة البدن وطول الجسم[3].

والصحيح أن المراد بالبسطة طول الجسم، قال ابن كثير: «أي: زاد طولكم على الناس بسطة أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم»[4].

وقد نقل البغوي وغيره أقوالا تبين هذا الطول، قال البغوي: «طولا وقوة، قال الكلبي والسدي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع، وقامة القصير منهم ستون ذراعا. وقال أبو حمزة الثمالي: سبعون ذراعا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثمانون ذراعا.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٤٢٦.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٤.

وقال مقاتل: كان طول كل رجل اثني عشر ذراعا. وقال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة، وكان عين الرجل تفرخ فيها الضباع، وكذلك مناخرهم»[5].

وفي هذه الأقوال أقوال مبالغة، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعًا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن)[6]. ففي هذا الحديث دليل على أن كل قول فيه زيادة على ستين ذراعا غير صحيح، أما ما دونها فهو محتمل، قال رشيد رضا: «وفي التفسير المأثور روايات إسرائيلية الأصل في المبالغة في طولهم وقوتهم لا يعتمد عليها ولا يحتج بشيء منها، ولكن نص على قوتهم وجبروتهم في سورة هود والشعراء وفصلت»[7].

٤. الأنعام والبنين.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٣].

وقدم الأنعام على البنين للطيفة ذكرها ابن

(٥) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٤٣.
وانظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٤٦.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، ٤/ ٢١٣٨، رقم ٢٨٤١.

(٧) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٤٣.

عاشور فقال: «وابتدأ في تعداد النعم بذكر الأنعام لأنها أجل نعمة على أهل ذلك البلد، لأن منها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم وكانوا أهل نجعة فهي سبب بقائهم، وعطف عليها البنين لأنهم نعمة عظيمة بأنها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم وكثرة أمتهم»[1].

٥. الجنات والعيون.

قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٤].

قال البغوي: « ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: بساتين وأنهار»[2].

٦. أنهم تميزوا بإرم ذات العماد.

كما وصفهم الله بذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: ٦-٨].

المعنى: ذكر الله سبحانه وتعالى على سبيل الاستشهاد ما أنزله من عذاب مهين بالأقوام المكذبين، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ الرؤية هنا علمية، تشبيها للعلم اليقيني بالرؤية في الوضوح والانكشاف، لأن أخبار هذه الأمم كانت معلومة للمخاطبين، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية لكل من شاهد آثار هؤلاء الأقوام البائدين.

والمراد بعاد: تلك القبيلة المشهورة بهذا الاسم، والتي كانت تسكن الأحقاف، وهو مكان في جنوب الجزيرة العربية، معروف للعرب، وسموا بذلك نسبة إلى أبيهم عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد، لأنه جده الأدنى.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ صفة لعاد، والمقصود بهذه القبيلة عادًا الأولى، التي أرسل الله تعالى إليهم هودًا عليه السلام وكانوا معروفين بقوتهم وضخامة أجسامهم، وقد جاء الحديث عنهم كثيرًا في القرآن الكريم، وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ صفة أخرى لقبيلة عاد، والتي كانت تسكن بيوتا ذات أعمدة ترفع عليها خيامهم ومبانيهم الفارهة، و﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ [الفجر: ٨]، أي: مثل هذه القبيلة لم يخلق أحد في ضخامة أجسام أفرادها، وفي قوة أبدانها، وفيما أعطاها الله تعالى من غنى وقوة.

وذكر أن ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، فالضمير في ﴿مِثْلُهَا﴾ يعود إلى القبيلة[3].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٧٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٢٣.
وانظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٨.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي

و«عاد إرم»: كانوا بدوا ذوي خيام تقوم على عماد، وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها وأميزها: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ في ذلك الأوان[1].

ثانيًا: موقف قوم عاد من تلك النعم:

نصحهم نبيهم عليه السلام بتذكر نعم الله وشكره عليها والخوف من عقابه إن كفروا بها، وأنكروها، ولكن كان موقفهم موقف الجاحد لأنعم الله غير المبالي من سخطه، مما جعلهم يطغون في البلاد، ويتكبرون ويستكبرون فيها بغير حساب، ويبطشون في الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء:١٣٠].

أي: وإذا بطشتم بسوط أو سيف أو أخذتم أحدًا لعقوبة بطشتم جبارين مسلطين، قاسية قلوبكم، بلا رأفة ولا رقة، ولا قصد تأديب، ولا نظرًا للعواقب، والجبار الذي يضرب أو يقتل على الغضب، فاتقوا الله في البطش، وأطيعون فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون من ألوان النعماء وأصناف الآلاء، فأمدكم بأنعامٍ وبنين، وقرن البنين بالأنعام لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام بها، وجناتٍ بساتين وعيونٍ، وأنهار خلال الجنات، إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيمٍ إن عصيتموني، أو: إن لم تقوموا بشكرها، فإن كفران النعم مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها، لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧][2].

ولكن لا مطيع ولا مجيب، واستمروا على ما هم عليه، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر:١١-١٢].

والمعنى: وصف الله من سبق ذكرهم في الآيات السابقة بأقبح الأوصاف جزاء كفرهم بالله وبنعمه عليهم فقال: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ أي: هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم في هضم حقوق الناس، واغتروا بعظيم قدرتهم، فكانوا سببًا في إفساد البلاد، ذاك أن من اغتر بنفسه وتهاون بحقوق غيره واعتدى عليها وأخذ ما ليس له ولم يعط الذي عليه يكون قد فكك شمل الجماعة وأفسد في البلاد، فيختل نظام العمران، ويقف دولاب التعامل، ويوجس كل امرئ خيفة من بنى جلدته، ولا شك أن أمما هذه حالها تكون عاقبتها الخراب والدمار، وبيان

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٠٣. ١٥/ ٣٨٥، مختصر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، اختصار وتحقيق الصابوني ٢/ ٦٣٦.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ١٥٢ بتصرف.

هذا العقاب في المبحث الذي يليه إن شاء الله تعالى [(١)].

بل إنهم ردوا على نبيهم الذي يدعوهم إلى أفضل النعم ألا وهي عبادة الله، وتذكيرهم بنعم الله عليهم كما ذكر في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] قائلين: أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا ؟ إن هذا لشيء عجاب !! فجئنا بما تعدنا من العذاب، فنحن مستعجلون، إن كنت من الصادقين في دعواك. وهذا منتهى الغرور والتكبر والجبروت [(٢)].

ويستفاد من ذلك: نعم الله عز وجل على الإنسان كثيرة لا تعد ولا تحصى، ولهذا لا بد من شكر الله وحمده، ليزيدنا الله سبحانه وتعالى من فضله، ومن أنكر وجحد فله العقاب العظيم في الدنيا والآخرة.

(١) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٤٥.
(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ص ٧٣٠.

عاقبة عاد

الله سبحانه وتعالى يجازي المؤمنين على إيمانهم، ويكافئهم على صبرهم وقدرة تحملهم، وفي المقابل يعاقب الكافرين ويحاسبهم على طغيانهم وجبروتهم، وأوضح الله عز وجل أنه بعد ما أوحى إلى هود عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا القليل الذين استجابوا له، ولم تعد هناك فائدة من استمرار دعوة هود عليه السلام قومه، فنصره الله على قومه الذين كذبوا بالله سبحانه وتعالى وأدلته، فأنجاه منهم ومن معه من المؤمنين، وأهلك الكافرين أجمعين، وجاءت الكثير من الآيات التي تتحدث عن هلاك قوم عاد، وتوضيح ذلك على النحو الآتي:

أكد الله عز وجل في كتابه العزيز على هلاكهم في الدنيا والآخرة ليكونوا عبرة لغيرهم بعد أن تهاونوا بتحذير نبيهم لهم من عذاب الله رادين عليه بهذا القول كما ذكر في قوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف:٢٢].

وكذلك أنكروا عذاب يوم القيامة واستبعدوه، لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤﴾ [الحاقة:٤].

والنتيجة أنهم يستحقون العذاب في الدنيا والآخرة جزاء كفرهم، كما في قوله

تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هود:٦٠].

فأهلكهم الله سبحانه عن بكرة أبيهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾ [النجم:٥٠].

والمعنى: اختلفوا في قوله تعالى: ﴿عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ منهم من قال: كانوا عادين:

أحدهما: قوم هود، وهم أول، فأهلكوا بالريح، وكانت أخرى في زمن فارس الأول.

ومنهم من قال: عادًا الأولى: الذين أهلكوا من قبل من الأمم، وأهل مكة وهؤلاء عاد أخرى [(١)].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر:١٣-١٤].

والمعنى: يذكر الله عاقبة أمرهم فقال: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ أي: فأنزل الله تعالى بهم ألوانًا من البلاء، وشديد العقاب.

وقد شبه سبحانه ما أوقعه بهم من صنوف العذاب وما صبه عليهم من ضروب الهلاك بالسوط، من قبل أن السوط يضرب به في العقوبات، والله يوقع العذاب بالأمم عقوبة لها على ما يقع منها من أنواع التفريط في أوامر دينه.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٤٣٧.

ثم ذكر العلة في تعذيبه لهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ أي: إن شأن ربك ألا يفوته من شؤون عباده نقير ولا قطمير، ولا يهمل أمة تعدت في أعمالها حدود شرائعه القويمة، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر، كما يأخذ الراصد القائم على الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر، لا يفرط فيما رصد له [(٢)].

«وكان بدء عذابهم بإمساك الله المطر عنهم ثلاث سنين، حتى جهدهم، ثم أنشأ الله سحاباتٍ ثلاثا، بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى منادٍ من السماء لزعيمهم قيل بن عثر: يا قيل، اختر لنفسك وقومك.فقال: اخترت السوداء، فإنها أكثرهن ماء !!

فخرجت على عادٍ من وادي المغيث، فاستبشروا بها وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا.

فجاءتهم منها ريح عقيم، فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله فيها حتى ماتوا» [(٣)].

وهذا ما ذكر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥].

(٢) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٤٥.
(٣) القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د.صلاح الخالدي ص١٦٠.

والمعنى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ سحابًا ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أودية ريحهم ومطرهم ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ﴾ سحاب ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ سيمطر حرثنا. قال لهم هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ من العذاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجيع ﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ بإذن ربها ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ فصاروا بعد الهلاك ﴿لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ منازلهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هكذا ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين[(١)].

وذكر معنى قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني: ما يوعدون به من العذاب ﴿عَارِضًا﴾ سحابًا ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ فخرجت عليهم سحابة سوداء من واد لهم يقال له: المغيث، وكانوا قد حبس عنهم المطر، فلما رأوها استبشروا ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فجعلت الريح تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مرت به من رجال عاد وأموالها ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فأول ما عرفوا أنها عذاب رأوا ما كان خارجًا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، وكانوا تحت الرمل، سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال، فاحتملتهم فرمت بهم في البحر[(٢)].

وتفصيل كيفية عذابهم:

إن الله سبحانه وتعالى أرسل عليهم الرياح ووصف الله عز وجل هذه الرياح في كتابه بصفتين: مرة أنها ريحٌ صرصرٌ، ومرة أخرى أنها ريح عقيم.

وبين مدة مكوث هذه الرياح على قوم عاد عقوبة لهم، وبيان ذلك على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: ١٨-٢٠].

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هودًا عليه السلام، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذُرِ﴾ وإنذاري لمن بعدهم بما جرى عليهم، وبالجملة: إنا بمقتضى عظم قهرنا وجلالنا قد ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على عاد حين أردنا انتقامهم وإهلاكهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة شديدة الجري والصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم منحوس، ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ شؤمه ونحوسته عليهم إلى أن يستأصلوا بما فيه بالمرة من

---

(١) انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، الفيروزآبادي ص٢٢٤.

(٢) انظر: توفيق الرحمن في دروس القرآن، فيصل النجدي ٤/ ٨٢.
وانظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٩٤.

شدة جريها وحركتها، ﴿تَنزِعُ﴾ وتقلع الناس من أماكنهم مع أنهم قد دخلوا في الحفر وتشبثوا بالأثقال، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: أصولها ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ منقلب عن مغارسه ساقط على الأرض، يعنى هم سقطوا على الأرض جميعًا موتى بلا روح، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذُرِ﴾ لمن بعدهم[1]

وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قال: الشديدة التي لا تلقح شيئًا، أم: الريح العقيم التي لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب، أم: ريح لا بركة فيها، ولا منفعة، ولا ينزل منها غيث، ولا يلقح منها شجر. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الريح هي النكباء. وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه هي الجنوب. وعن مجاهد رضي الله عنه هي الصبا التي لا تلقح شيئًا.

وفي قوله: ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ قال: كالشيء الهالك، وقيل: كرميم الشجر[2].

أما مدة مكوث هذه الرياح على قوم عاد عقوبة لهم كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:٦-٨].

والمعنى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ فالآية من قبيل الجمع والتفريق، والحدث لا يناسب العين، ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت، لها صرصرة في هبوبها، أو من الصر وهو البرد، كأنها التي كرر فيها البرد ﴿عَاتِيَةٍ﴾ على قوم عادٍ، فلم يقروا على دفعها، وعن على بن أبي طالب رضي الله عنه قال: عتت على خزانها، فخرجت بغير حساب.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ سلطها ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ استئناف لبيان الكمية بعد الكيف؛ ليتكامل الهول، ﴿حُسُومًا﴾ حاسمات كل خير، والحسم: إزالة أثر الشيء، ومنه الحسم للكي المستأصل للداء، أو متابعة هبوب الريح حتى استأصلتهم، كأن كل هبة كية، ويجوز أن يكون مصدر الفعل مقدرًا أي: يحسم حسومًا، أي: يفرق بينهم تفريقًا شديدًا لا اجتماع بعده، لكمال النحوسة، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا﴾ في مهابها، ﴿صَرْعَىٰ﴾ ملقى على الأرض كالأخشاب اليابسة، قيل: كانت من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء. وسميت أيام العجوز؛ لأن عجوزًا توارت في سرب فوجدها الريح في اليوم الثامن، وقيل: أيام العجز، وهي آخر الشتاء. وأسماؤها: «الضن، والضبر، والآمر،

(١) انظر: الفواتح الإلهية، نعمة الله النخجواني ٢/ ٣٧٠.
(٢) الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٦٢١ باختصار.

والمؤتمر، والمعلل، ومطفئ الجمر».

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أصول نخلٍ متآكلة الأجواف، ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ بقية، أو نفس باقية، أو بقاء[1].

إذًا أهلك الله الذين لم يؤمنوا بهذه الرياح التي بقت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، الحسوم الدائم، فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك، غير هود والمؤمنين معه، فإنهم اعتزلوا في حظيرة، وكان نصيبهم النجاة، لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف:٧٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود:٥٨].

والمعنى: استعمال الماضي في قوله: ﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بمعنى اقتراب المجيء؛ لأن الإنجاء كان قبل حلول العذاب.

والأمر أطلق على أثر الأمر، وهو ما أمر الله به أمر تكوينٍ، أي: لما اقترب مجيء أثر أمرنا، وهو العذاب، أي: الريح العظيم، والباء في ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ للسببية، فكانت رحمة الله بهم سببًا في نجاتهم. والمراد بالرحمة فضل الله عليهم؛ لأنه لو لم يرحمهم لشملهم الاستئصال فكان نقمةً للكافرين وبلوى للمؤمنين.

وجملة ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، والتقدير أيضًا نجيناهم من عذابٍ شديدٍ وهو الإنجاء من عذاب الآخرة وهو العذاب الغليظ، ففي هذا منةٌ ثانيةٌ على إنجاءٍ ثانٍ، أي: نجيناهم من عذاب الدنيا برحمةٍ منا، ونجيناهم من عذابٍ غليظٍ في الآخرة، ولذلك عطف فعل ﴿وَنَجَّيْنَاهُم﴾ على ﴿نَجَّيْنَا﴾، وهذان الإنجاءان يقابلان جمع العذابين لعادٍ في قوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود:٦٠].

وقد ذكر هنا متعلق الإنجاء وحذف السبب، عكس ما في الجملة الأولى؛ لظهور أن الإنجاء من عذاب الآخرة كان بسبب الإيمان وطاعة الله، كما دل عليه مقابلته بقوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود:٥٩][2].

وقد ذكر طنطاوي في معناها: أي: وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا في قوم هود وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم نجينا هودًا والذين آمنوا معه تنجية مصحوبة برحمةٍ عظيمة كائنة منا بسبب إيمانهم وعملهم الصالح.

ونجيناهم كذلك من عذابٍ غليظٍ أي:

---

(١) انظر: غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، أحمد الشافعي ١/ ٢٢٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٠٣.

من عذاب ضخم شديد مضاعف ترك هؤلاء الطغاة وراءه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المحسوس يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة في الأجسام ومن تفاخر بالقوة [(١)].

وبقي هود كذلك حتى مات، وقبره بحضرموت، وقيل: بالحجر من مكة [(٢)].

ويستفاد من ذلك: أن الله سبحانه وتعالى لا يغفل عن شيء، ولا يترك أحدًا، فيثيب المؤمنين الصالحين، ويعاقب الكافرين المفسدين، فالعبرة يا أولي الألباب من هلاك الأقوام قبل فوات الأوان.

اقتران عاد وفرعون في القرآن

من المعروف في لغة العرب أن لا يقترن شيئان إلا كانت بينهما نوع علاقة سببت هذا الاقتران، ولما كان القرآن الكريم بلسان عربي مبين فقد اقترن ذكر عاد وفرعون فيه في مواضع نذكرها ونحاول أن نبين حكم اقترانهما، فأما المواضع فهي:

الموضع الأول: في سورة ص، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص:١٢].

الموضع الثاني: في سورة ق، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق:١٢-١٣].

الموضع الثالث: في سورة الفجر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:٦ – ١٤].

والذي يظهر -والعلم عند الله- أن سبب الاقتران يرجع إلى التشابه بين فرعون وقومه مع عاد إلى أمور:

الأمر الأول: الملك والعزة والسلطان: فعند تأمل المواضع الثلاثة نجد أن الموضع الثاني في سورة ق ذكر كلًّا من عاد وفرعون

(١) انظر: التفسير الوسيط ٧/ ٢٢٨.
(٢) انظر: المختصر في أخبار البشر، عماد الدين ابن أيوب ١/ ١٢.

مطلقين بدون قيد، أما الموضعين الآخرين فهما مقيدان بما يعلم منه الحكمة وسر اقترانهما في ذلك، وبيانه كما يلي:

في الموضع الأول من سورة ص قيد فرعون بكونه ذي الأوتاد، وبذات القيد في سورة الفجر، وعلى معنى ذي الأوتاد يكون سر الاقتران، قال ابن كثير: « قال العوفي عن ابن عباس: الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره. ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها. وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد. وهكذا قال سعيد بن جبير والحسن والسدي. قال السدي: كان يربط الرجل في كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه. وقال قتادة: بلغنا أنه كان له مظال وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وحبال. وقال ثابت البناني عن أبي رافع: قيل لفرعون ذي الأوتاد لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت[(١)].

فحاصل المعاني: إما أن تكون الأوتاد حقيقية ويكون المعنى أنه ذو جنود لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد، أو يعذب الناس عليها أو يلعب له بها، أو يكون تشبيها يشبه الجنود بالأوتاد لأنهم يشدون ملكه.

وإذا استحضرنا ما سبق من صفات لعاد وجدنا شبها بينا: ففرعون صاحب الملك المؤسس بالجنود وبالبطش بالخصوم وقتلهم، وكان عاد كذلك، كما أن له البناء العظيم من الأهرامات والصرح الذي هو القصر العظيم الشاهق المرتفع، ولابد أن يكون عظيما جدا لأن القصد منه أن يبلغ أسباب السماء ليطلع إلى إله موسى كما زعم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧]

قال السعدي: «﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا لموسى ومكذبًا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين الذي على العرش استوى وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السماوات»[(٢)]، وقد ذكر الله بناء عاد وبطشهم في قوله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٢٨ -١٣٠].

قال البقاعي: «ولما كان لهم من القوة والملك في جميع الأرض وبناء إرم ذات العماد ما يتضاءل معه ملك كل ملك أتبعهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١٨.
وانظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦١٨

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٧.

ملكًا ضخمًا قهر غيره بعز سلطانه وكثرة أعوانه، ولما نص على كفره وصفه بما يدل مع الدلالة على مشاركة عاد في ضخامة الأمر وعلى كفر قومه فقال: ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي الأسباب الموجبة لثبات الملك وتقويته من علو السلطان بكثرة الأعوان والتفرد بالأوامر وسعة العقل ودقة المكر وكثرة الحيل بالسحر وغيره وجودة التدبير بالعدل فيما يزعم وصولة القهر»[1].

الأمر الثاني: ويتشابهون في أن أصل هلاكهم واحد هو الريح، فعاد أرسلت عليهم الريح العقيم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦].

وأما فرعون وقومه فإنه وإن نص على غرقهم بالبحر كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥].

فمن المعلوم أن أمواج البحار تحركها الريح، فهي التي دفعت الأمواج حتى أغرقتهم، قال البقاعي: «ولما اتفق قوم هود عليه السلام والقبط بالإهلاك بالريح أولئك مع الحجارة والرمل وهؤلاء بالماء الذي فرقه الله بالريح عند ضرب العصا وكان لكل منهما من ضخامة الملك وعز السلطان ما هو مشهور قدم أشدهما أبدانًا وأوسعهما ملكًا؛ لأن إهلاكهم كان أدل دليل على القدرة»[2].

الأمر الثالث: مفاجأة العذاب لكل من عاد وفرعون، قال ابن عاشور: «كان العذاب الذي أصاب هؤلاء عذابا مفاجئا قاضيا، فأما عاد فرأوا عارض الريح فحسبوه عارض مطر فما لبثوا حتى أطارتهم الريح كل مطير، وأما فرعون فحسبوا البحر منحسرا فما راعهم إلا وقد أحاط بهم»[3].

(١) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٣٦٥.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٥٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٨٤-٢٨٥.

العبر والدروس من قصة عاد

بين الله تعالى أن الغاية من قصص القرآن هي العظة والعبرة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

وفي هذا المبحث نبين الدروس والعبر المستفادة من قصة عاد بإيجاز:

١. الجزاء من جنس العمل، فلما استخدم عاد قوتهم في البطش بالناس بطش بهم الله سبحانه الذي هو أشد منهم قوة.
٢. كفر النعمة سبب لزوالها، فلما كفروا النعم نزعت منهم بهلاكهم.
٣. لزوم الاستغفار والتوبة مجلبة للرزق وصحة البدن وتيسير الأمور.
٤. من توكل على الله تعالى واعتمد عليه حماه من كيد الكائدين.
٥. اتباع الملأ الذين هم السادات والكبراء الضالين عن الحق يوقع في الهلاك.
٦. العبث واللهو وطول الأمل تمنع من الاستجابة للحق فيكون ذلك سببا للهلاك.
٧. الالتفات إلى قوة الله تعالى وبطشه واستحضار يوم القيامة وما فيه من الأهوال والعذاب يمنع من المعصية.
٨. أهمية دفع التهمة عن النفس لئلا يكون ذلك حاجزا عن سماع الدعوة والاستجابة لها.
٩. تذكر نعم الله تعالى وشكرها سبب للفلاح في الدنيا والآخرة.
١٠. الأصل في معرفة الحق معرفة دليله لا التقليد المذموم.
١١. من آثار رحمة الله تعالى أنه ينجي المؤمنين، ومن آثار بطشه وقوته هلاك الكافرين.
١٢. عجيب قدرة الله تعالى في أن يجمع في الشيء الواحد المتناقضات، ومن ذلك الريح، فهي نعمة على قوم تسوق السحاب لبلدهم الميت فيحيا بالمطر، ونقمة على عاد فبها هلكوا.
١٣. من سنة الله تعالى أن من تشابهت صفاتهم ومواقفهم من الدين يتشابه مآلهم وخاتمتهم، ففرعون شابه قوم هود فكان سبب هلاكهم واحدًا وهو الريح[(١)].

موضوعات ذات صلة

آدم، ثمود، صالح، هود

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩٠٦، ٥/ ٢٦٠٩، أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٦٦٧.





عناصر الموضوع

مفهوم العبادة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس رحمه الله في مادة «عبد»: «العين والباء والدال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان، فالأول يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ»[(١)].

وقال ابن سيده: «أصل العبادة في اللغة: التذليل، من قولهم: «طريق معبد» أي: مذلل، ومنه أخذ «العبد» لذلته لمولاه، والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب في المعاني، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم، كالحياة والفهم والسمع والبصر»[(٢)].

وقال الأزهري: ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع »[(٣)].

وقد استخلص ابن عاشور من كلام أهل اللغة معنى العبادة فقال: «إنها إظهار الخضوع للمعبود، واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضره ملكًا ذاتيًا مستمرًا، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قول فرعون: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧]»[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعريف العبادة: «والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[(٥)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «والعبادة في الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»[(٦)]؛ لأن الحب الكامل مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب، والانقياد له، فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبه، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته وذله له[(٧)].

وقال ابن عاشور: «والعبادة في الشرع تعرف بأنها فعل ما يرضي الرب من خضوع وامتثال

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٥ - ٢٠٧ بتصرف يسير.
(٢) المخصص، ابن سيده ٤/ ٦٢.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٣٨.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ٨/ ٣٣١.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦.
(٥) العبودية، ابن تيمية ص ٤٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٧) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبد الله الغنيمان ١/ ٤٦.

واجتناب، أو هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه»[1]، فصارت في الشرع اسمًا لكل طاعة لله، أديت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم [2].

وقال الرازي: «العبادة تعظيم أمر الله والشفقة على الخلق، وهذا المعنى هو الذي اتفقت عليه الشرائع وإن اختلفوا في الوضع والهيئة والقلة والكثرة»[3].

فهي بهذا التفسير تشمل الامتثال لأحكام الشريعة كلها[4]، فهي في مفهومها العام تعني: «التذلل لله محبة وتعظيمًا، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، على الوجه الذي جاءت به شرائعه»[5].

وتعريف شيخ الاسلام ابن تيمية أدق وأشمل، فالدين كله داخل في العبادة، ومن خلال تعريف العلماء للعبادة في الاصطلاح الشرعي تبين أن لفظ العبادة يدور حول معنى الذل التام والخشوع الكامل لله تعالى، والالتزام بما شرعه، والانتهاء عما نهى عنه تعالى، والتمسك بكل ما يرضى الله تعالى، قولًا وعملًا وتركًا، وكل هذه التعريفات للعبادة معناها واحد ولا تختلف عن المعنى اللغوي.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٨٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٣ بتصرف.
(٣) المصدر السابق ٢٨/ ١٩٣ بتصرف
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٨٠.
(٥) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص٩٢.

العبادة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عبد) في القرآن الكريم (٢٧٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥]
الفعل المضارع	٨١	﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]
فعل الأمر	٣٧	﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]
اسم فاعل	١٢	﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ [الكافرون:٤]
اسم (مفرد، مثنى، جمع)	١٣١	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾ [سبأ:٩]
مصدر	٩	﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠﴾ [الكهف:١١٠]

وجاءت (العبادة) في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

أحدهما: التوحيد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦] أي: وحدوه.

الثاني: الطاعة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس:٦٠] أي: أن لا تعبدوا الشيطان فتطيعوه في معصية الله[٣].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٤٤١- ٤٤٥.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ١/ ٤٣١-٤٣٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٧٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الطاعة:

الطاعة لغةً:

من طوع بمعنى الانقياد[(١)].

الطاعة اصطلاحًا:

امتثال أمر الله طوعًا[(٢)].

الصلة بين الطاعة والعبادة:

قال الكفوي: «والطاعة أعم من العبادة؛ لأن العبادة غلب استعمالها في تعظيم الله غاية التعظيم، والطاعة تستعمل لموافقة أمر الله وأمر غيره، وتجوز الطاعة لغير الله في غير المعصية، ولا تجوز العبادة لغير الله تعالى»[(٣)].

٢ النسك:

النسك لغة:

قال الراغب: «النسك: العبادة، واختص بأعمال الحج»[(٤)].

وقال الزبيدي: «والنسك: العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام:١٦٢]»[(٥)].

النسك اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النسك والعبادة:

جاءت لفظة النسك في القرآن الكريم بمعنى العبادة مطلقًا، كما جاءت بمعنى الذبائح التي يتقرب بها إلى الله سبحانه، وشعائر الحج، والأماكن التي تؤدى بها شعائر الحج، و«الموضع» الذي تقدم به الذبائح تقربًا إلى الله تعالى.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ١/ ١٤٠، اللباب في علوم القرآن، ابن عادل ١٠/ ٣٩٧، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٥٢٣.
(٣) الكليات، الكفوي ص ٥٨٣.
(٤) المفردات، الراغب الاصفهاني ص ٨٠٢.
(٥) تاج العروس، الزبيدي ٢٧/ ٣٧٢.

العبادة والاستعانة

أولًا: حكمة اقتران العبادة بالاستعانة:

ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالى الحكمة من اقتران العبادة بالاستعانة، وتقديم العبادة على الاستعانة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

ومن هذه الحكم ما ذكره أبو حيان حيث قال: «وقرنت الاستعانة بالعبادة للجمع بين ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، وبين ما يطلبه من جهته»[(١)]؛ وليدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بعبادة الله إلا بإعانة الله وتوفيقه، ولا ينهض بها إلا بالتوكل عليه، فهو إقرار بالعجز عن حمل هذه الأمانة الثقيلة، إذا لم يعنه الله على ذلك، فالاستعانة بالله علاج لغرور الإنسان وكبريائه، وهما داءان قتالان[(٢)].

ثانيًا: تقديم العبادة على الاستعانة:

ولتقديم العبادة على الاستعانة أسباب عديدة أشار إليها ابن القيم رحمه الله حيث قال: وتقديم العبادة على الاستعانة لما يلي:

١. العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، فكان ذلك من قبيل تقديم الغايات على الوسائل.
٢. قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته سبحانه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته.
٣. تقديم العبادة على الاستعانة يتناسب مع تقديم اسم «الله» على لفظ «الرب» المذكورين في أول السورة، حيث إن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد فكان من الشطر الذي له وهو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.
٤. العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين، ولا ينعكس الأمر؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم؛ ولهذا كان قسم الرب.
٥. الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس فقدم الكل على الجزء.
٦. العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص، ومن غير مخلص.
٧. العبادة حق الله الذي أوجبه على العبد والاستعانة طلب العون على العبادة؛ فكان حق الله أولى بالتقديم.
٨. العبادة شكر لنعمته عليك، والله يحب

---
(١) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٤.
(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي ص ٤٥.

أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإن التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة له من الله أعظم.

٩. قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، والذي له مقدم على ما به؛ لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه والذي يكون به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

وتضمنت هذه الآية إثبات مذهب أهل السنة والجماعة في القدر، وأن جميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وأن العبد فاعل حقيقة، ليس مجبورًا على أفعاله، فلولا أن مشيئة العبد مضطر فيها إلى إعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة[2].

فائدة:

قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك:٢٩].

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل:٩][3].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٩٧-٩٨ بتصرف واختصار.

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص١٢.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٢٣٠.

أنواع العبادة

للعبادة معانٍ بحسب ما يتعلق بها، فالعبادة من حيث تعلقها بعموم الخلق وخصوصهم تنقسم إلى نوعين:

أولًا: عبادة عامة:

وهي عبودية أهل السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم:٩٣].

قال ابن القيم: «فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، ويدخل فيه مؤمنهم وكافرهم»[١].

وتسمى كذلك بالعبادة الكونية.

قال ابن عثيمين: «فالعبادة الكونية: وهي الخضوع لأمر الله تعالى الكوني، وهذه شاملة لجميع الخلق لا يخرج عنها أحد، فهي شاملة للمؤمن والكافر، والبر والفاجر»[٢].

فكل من في السماوات والأرض فهو خاضع لله سبحانه وتعالى كونا فلا يمكن أبدًا أن يضاد الله أو يعارضه فيما أراد سبحانه وتعالى بالإرادة الكونية، والعابدون بالعبودية الكونية لا يثابون عليها؛ لأنهم خاضعون لله تعالى شاؤوا أم أبوا، فالإنسان يمرض، ويفقر، ويفقد محبوبه من غير أن يكون مريدًا لذلك بل هو كاره لذلك لكن هذا خضوع لله عز وجل خضوعًا كونيًا[٣]، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

فالأول: إما منكرًا، كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم:٩٣].

والثاني: معرفًا باللام، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٣١].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٤٨].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان:١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣].

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٥ بتصرف واختصار.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل، ابن عثيمين ٦/ ٣٢.

(٣) المصدر السابق ١/ ٨٩.

وقد يقال: إنما سماهم عباده إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونوا من عبيد الإلهية والطاعة [(١)].

ثانيًا: عبادة خاصة:

وهي عبودية الطاعة والمحبة، وهي خاصة بالمؤمنين القائمين بأمره سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

قال ابن القيم: «فالعبودية الخاصة: هي عبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف:٦٨].

وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢].

وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته، ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقا إلا لهؤلاء» [(٢)].

وتسمى كذلك بالعبادة الشرعية.

قال ابن عثيمين: «وهي الخضوع لأمر الله تعالى الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله تعالى، واتبع ما جاءت به الرسل مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]» [(٣)].

فهي التذلل له سبحانه وتعالى شرعا فهذه خاصة بالمؤمنين بالله سبحانه وتعالى القائمين بأمره، ثم إن منها ما هو خاص أخص كعبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥].

وغير ذلك من وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام بالعبودية [(٤)].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٦ -١٢٧.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٦ بتصرف يسير.

(٣) مجموع فتاوى ورسائل، ابن عثيمين ٦/ ٣٣.

(٤) المصدر السابق ١/ ٨٩.

مكانة العبادة في القرآن

أوجد الله سبحانه وتعالى الخلق لغاية سامية، وهي عبادته جل شأنه، فأرسل الرسل وأنزل الكتب، لدعوة الناس إلى عبادته وحده لا شريك له، فالعبادة شرف عظيم، من انتسب إليها أصبح من عباده المتقين.

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض مظاهر مكانة العبادة، نوجزها في النقاط الآتية:

أولًا: العبادة غاية الخلق:

والعبادة هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

قال السعدي في هذه الآية: «هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله»[(١)] وقال ابن كثير: «ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «وفي هذه الآية خبر مستعمل في التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن الفطرة التي خلقوا عليها، فخالفوا سنتها اتباعا لتضليل المضلين، والجن: جنس من المخلوقات مستتر عن أعين الناس، وهو جنس شامل للشياطين، قال تعالى عن إبليس: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠].

والإنس: اسم جمع واحده إنسي بياء النسبة إلى اسم جمعه»[(٣)].

وما ذكر الله الجن هنا إلا لتنبيه المشركين بأن الجن غير خارجين عن العبودية لله تعالى، وقد حكى الله عن الجن في سورة الجن قول قائلهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ [الجن:٤].

وتقديم الجن في الذكر في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن؛ ليعلموا أن الجن عباد لله تعالى، فهو نظير قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ [الأنبياء:٢٦][(٤)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٥ بتصرف.

(٤) المصدر السابق ٢٧/ ٢٨.



وقال الشوكاني: «ووجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم»[1].

وفي اختصاص الجن والإنس من بين المخلوقات بالذكر إشارة إلى أنهما هما المخلوقان اللذان لهما إرادة عاملة، وهما بهذه الإرادة يعملان فيؤمنان أو يكفران، ويطيعان أو يعصيان، ومن هنا وقع عليهما التكليف، وحق عليهما الحساب والجزاء، بمقتضى ما يعملان من خير أو شر[2].

ثانيًا: العبادة رسالة الرسل:

فكما أن الله خلق الخلق لعبادته كذلك أرسل الرسل أيضًا لعبادته سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

قال الرازي في هذه الآية: «فبين تعالى أن سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت»[3].

وأن شغل الأنبياء منحصر في أمرين: عبادة الله وهداية الخلق[4].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم»[5].

فغايتهم العظمى، ووظيفتهم الكبرى، وهدفهم الأسمى: دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وخلع عبادة ما سواه[6]، وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله تعالى[7].

وقال السعدي: «يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾»[8].

والآية تضمنت التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان، وكل ما يدعو إلى الضلال على ألسنة الرسل عليهم السلام.

ثالثًا: العبادة تشريف:

فالعبادة ذروة الشرف، ومقام عظيم، حيث جاءت تشريفًا لعباده المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١١٠.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٥٣٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٠٤.
(٤) المصدر السابق ٢٨/ ١٩٢.
(٥) العبودية، ابن تيمية ص ٤٤ بتصرف.
(٦) النبوات، ابن تيمية ١/ ٢٨ بتصرف.
(٧) العبودية، ابن تيمية ص ٧٧.
(٨) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٠.

﴿الْمُرْسَلِينَ ١٧١﴾ [الصافات:١٧١].

قال ابن عثيمين: «فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عبادًا لله عز وجل أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: «والله تعالى جعل العبودية وصفًا لأكمل خلقه، وأقربهم إليه، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥].

وقال عن سليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

وقال عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:٥٩].

فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى»[٢].

وجاءت كذلك تشريفًا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير رحمه الله: «والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

لا تدعني إلا بيا عبدها

فإنه أشرف أسمائي

وقد سمى الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف:١].

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩].

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١].

فسماه عبدًا عند إنزاله عليه، وقيامه في الدعوة، وإسرائه به»[٣].

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾: « و (عبد) المضاف إلى ضمير الجلالة هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم كما هو مصطلح القرآن والإضافة إضافة تشريف»[٤].

وقال سيد قطب في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣]: « ويبدأ هذا التحدي بلفتة لها قيمتها في هذا المجال يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبودية لله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ولهذا الوصف في هذا الموضع دلالات منوعة متكاملة:

فهو أولًا: تشريف للنبي وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى، دلالة على أن مقام

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٣٧٠- ٣٧١.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٢ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٦.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٢ باختصار.

العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك.

وهو ثانيًا: تقرير لمعنى العبودية، في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده، واطراح الأنداد كلها من دونه، فها هو ذا النبي في مقام الوحي -وهو أعلى مقام- يدعى بالعبودية لله، ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام»[1].

وقد جاءت تشريفًا للمؤمنين المتقين:

قال ابن عثيمين: «فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]»[2].

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨﴾ [الزخرف:٦٨] «وقد ذكرنا مرارًا أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين، فقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ كلام الله تعالى، فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح:

أولها: أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة.

وثانيها: أنه تعالى وصفهم بالعبودية، وهذا تشريف عظيم»[3].

وجاءت تشريفًا لملائكته عليهم السلام:

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾ [الزخرف:١٩] «فالإضافة إلى اسم الرحمان تفيد تشريفهم قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

والعبودية عبودية خاصة وهي عبودية القرب، كقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ [القمر:٩]»[4].

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف:٢٠٦]: «أن هذا تشريف للملائكة بإضافتهم إلى الله، من حيث إنه أسكنهم في المكان الذي كرمه وشرفه وجعله منزل الأنوار ومصعد الأرواح والطاعات والكرامات، وإنما قال تعالى في صفة الملائكة: الذين عند ربك؛ لأنهم رسل الله إلى الخلق كما يقال: إن عند الخليفة جيشا عظيمًا، وإن كانوا متفرقين في البلد، فكذا هاهنا، والله أعلم»[5].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٨.
(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٣٧٠-٣٧١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٤٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٨٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٤٦ بتصرف.

أركان العبادة

لكل بناءٍ أركان يقوم عليه، ويغيرها يكون بناءً ناقصًا ومشوهًا، ولا يقي صاحبه من برد ولا حر، وهكذا هو بناء عبادة الله سبحانه وتعالى، له ركنان يقوم عليهما، ويصبح مقبولًا عند الله سبحانه وتعالى، وهذان الركنان هما:

أولًا: غاية الحب:

وهو تقديم محبة الله ورسوله على غيرهما.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال البغوي: «لما نزلت الآية الأولى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣].

قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجاراتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾»[(١)].

قال القرطبي: «وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أراده الله من المؤمنين وبين ما تجر إليه تلك العلائق، وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربه، وقد أفاد هذا المعنى التعبير «بأحب» لأن التفضيل في المحبة يقتضي إرضاء الأقوى من المحبوبين، ففي هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين مع الكناية عن جعل ذلك التهاون مسببا على تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله، ففيه إيقاظ إلى ما يؤول إليه ذلك من مهواة في الدين وهذا من أبلغ التعبير»[(٣)].

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له حتى تكون محبا خاضعا»[(٤)].

ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر؛ ولذا قال من قال من السلف: من

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٩٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٥٣.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٩٥-٩٦ باختصار.

عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد[1]، فـجنس المحبة يكون لله ولرسوله كالطاعة فإن الطاعة لله ولرسوله[2].

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم تقديم محبة الله ورسوله على محبة غيرهما من خصال الإيمان، ومن علامات وجود حلاوة الإيمان في القلوب: ففي «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار)[3].

ومحبة العبد لله ورسوله وطاعته لهما واتباعه أمرهما.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران:٣١].

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ الحكمي ٢/ ٤٣٧.

(٢) العبودية، ابن تيمية ص ٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الايمان، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم ٦٧.

قال الحسن وابن جريج: نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نحب ربنا، وروي أن المسلمين قالوا: يا رسول الله، والله إنا لنحب ربنا فأنزل الله هذه الآية[4].

قال ابن القيم: «فجعل اتباع رسوله مشروطا بمحبتهم لله، وشرطا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله»[5].

ثانيًا: غاية الذل والخضوع:

وهو الذل والخضوع لله سبحانه وتعالى.

قال جل شأنه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

قال الطبري: «وتأويل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لك اللهم نخشع ونذل ونستكين؛ إقرارًا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك»[6].

وقد ذكر الطبري العلة في اختياره لهذا التأويل حيث قال: «لأن العبودية عند جميع

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٦٠ بتصرف.

(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١١٩.

(٦) جامع البيان، الطبري ١/ ١٥٧.

العرب أصلها الذلة»[١].

وقال الماوردي: «وقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أن العبادة الخضوع، ولا يستحقها إلا الله تعالى؛ لأنها أعلى مراتب الخضوع، فلا يستحقها إلا المنعم بأعظم النعم، كالحياة والعقل والسمع والبصر. والثاني: أن العبادة الطاعة. والثالث: أنها التقرب بالطاعة. والأول أظهرها؛ لأن النصارى عبدت عيسى عليه السلام، ولم تطعه بالعبادة، والنبي صلى الله عليه وسلم مطاع، وليس بمعبودٍ بالطاعة»[٢].

والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقارًا إليه وخضوعًا له كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله[٣].

وفي الآية إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده، وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب. فلا بد أن يكون العابد محبًا للإله المعبود كمال الحب، ولا بد أن يكون ذليلًا له كمال الذل، وهما لا يصلحان إلا لله وحده[٤].

ونستخلص مما سبق أن العبادة تتضمن ركنان أساسيان لا قوام للعبادة بدونهما وهما: غاية الحب مع غاية الذل والخضوع، ولا يستحقها إلا المنعم جل وعلا.

فائدة:

مراتب العبادة ثلاث:

الأولى: أن يعبد الله طمعًا في الثواب وخوفًا من العقاب وهي العبادة، وهي درجة نازلة ساقطة؛ لأنه جعل الحق وسيلة لنيل المطلوب.

الثانية: أن يعبد الله لأجل أن يتشرف بعبادته؛ والانتساب إليه بقبول تكاليفه؛ وهي أعلى من الأولى إلا أنها ليست كاملة؛ لأن المقصود بالذات غير الله.

الثالثة: أن يعبد الله لكونه إلهًا خالقًا مستحقًا للعبادة وكونه هو عبدًا له، وهذه أعلى المقامات وهو المسمى بالعبودية[٥].

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦١.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٧-٥٨.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٣٩.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٢٢٨.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢١٤ بتصرف.

شروط العبادة

كما أن لكل عبادة في الإسلام أركان تقوم عليها، فكذلك لها شروط لا تصح إلا بها.

فأما شروط العبادة فهي:

أولًا: إخلاص النية:

فالإخلاص لله تعالى شرط أساسي لقبول العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

وقد اختلفت ألفاظ السلف في معنى قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ قال بعضهم: مقرين له بالعبادة، وقال آخرون: قاصدين بقلوبهم رضا الله في العبادة، وقال الزجاج: أي يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره، ويدل على هذا قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١][١].

قال القرطبي: «وفي الآية دليلٌ على وجوب النية في العبادات، فإن الإخلاص من عمل القلب وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره»[٢].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٣، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج ٥/ ٣٥٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٤٤. وانظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٨٠، فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١٥/ ٣٣٤.

ففي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)[٣].

فمن لم يخلص لله في عبادته، لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور، فلا يقبل منه، فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)[٤][٥].

وللعلماء تعاريف متعددة لهذه الكلمة، قال الكرخي: الإخلاص أن لا يطلع على عملك إلا الله سبحانه ولا تطلب منه ثوابًا، وقال الشهاب: الإخلاص عدم الشرك وأنه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف[٦].

فالإخلاص أصل من أصول الدين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم ٢٩٨٥.

(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٢٨.

(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١٥/ ٣٣٤.

«وجماع الدين أصلان: ألا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بالبدع، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فلا يكون العبد متحققا بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]»[2].

فإن هذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

ولفظ «أسلم» يتضمن شيئين:

أحدهما: الإخلاص.

والثاني: الاتباع والإذلال[3].

ثانيًا: التزام الشرع:

والتزام الشرع هو المتابعة والموافقة لما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال ابن كثير: «﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ ما كان موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم»[4].

ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله يجمعون هذين الأصلين كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال: أخلصه وأصوبه.

فقيل له: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟

فقال: إن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[5].

وهو المتفق عليه بين المسلمين، فإنه لا بد له في العمل أن يكون مشروعا مأمورًا به، وهو العمل الصالح، ولا بد أن يقصد به وجه الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) العبودية، ابن تيمية ص ١٤٨.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٠٤.
(٣) جامع المسائل، ابن تيمية ٦/ ٢٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٣.
(٥) الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٣٠٨-٣٠٩.

يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا[(١)].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

«وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: أكثر عملًا، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين بطل وحبط»[(٢)].

وأصبح مردودًا على عامله، يعود عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورًا.

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

وفي الصحيح عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ)[(٣)].

وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء[(٤)].

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٢/ ٧٦ بتصرف.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم ١٧١٨.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٠٥ بتصرف.

دوافع العبادة

هناك دوافع وأسباب تدفع الإنسان لعبادة الله سبحانه وتعالى، وتجعله دائم الصلة بربه تعالى، وبإمكاننا أن نقسم هذه الدوافع إلى قسمين:

أولًا: دوافع فطرية:

ومن تلك الدوافع:

١. دافع الشعور الفطري بوجود الخالق.

فمعرفة الخالق مغروسة في الفطرة الإنسانية، وهي عهد الله وميثاقه الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني آدم، فقد نص الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، أنه استخرج من صلب آدم ذريته، وأقروا بأن الله تعالى ربهم ومليكهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو»[(٥)].

وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها،

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٠٠.

قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

قال المراغي: «أي: الزموا خلقة الله التي خلق الناس عليها، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به؛ لكونه موافقا لما يهدي إليه العقل، ويرشد إليه صحيح النظر، كما ورد في الحديث عن النبي أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه...)[١] الحديث»[٢].

وثبت أيضًا عن النبي أنه قال فيما يحكى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم) الحديث[٣].

بل إن المشركين في حالة الشدة والبلاء وانقطاع رجائهم عن الدنيا يرجعون إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في أكثر من آية في كتابه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت:٦٥].

قال الرازي: «وفي الآية إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا، فإذا أنجاهم وأرجأهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا به سبحانه وتعالى»[٤].

وإنما خص بالذكر حال خوفهم من هول البحر في هذه الآية وفي آيات كثيرة في كتاب الله؛ لأن أسفارهم في البر كانوا لا يعتريهم فيها خوف يعم جميع السفر؛ لأنهم كانوا يسافرون قوافل، معهم سلاحهم، ويمرون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عام، فأما سفرهم في البحر فإنهم يفرقون من هوله ولا يدفعه عنهم وفرة عدد ولا قوة عدد، فهم يضرعون إلى الله بطلب النجاة ولعلهم لا يدعون أصنامهم حينئذ[٥].

فكل فرد من أفراد الناس مفطور أي: مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق، والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم ٢٦٥٨.

(٢) تفسير المراغي ٢١/ ٤٥-٤٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٧٦.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٢ بتصرف.

جمهور السلف[1].

ونستخلص مما سبق أن معرفة الله فطر عليها الخلق بأجمعهم، والإقرار بربوبيته سبحانه وتعالى، وأن الانحراف عن هذه المعرفة والإيمان قد تكون من قبل الأبوين، أو المجتمع، أو بسبب الغفلة، أو الشياطين، كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

٢. دافع الحاجة والافتقار.

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة، وحقيقته أنه غني حميد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيًا حميدًا ذاتي، فغناه وحمده ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث، ولا إمكان - ردًا على الفلاسفة والمتكلمين- بل هو ذاتي للفقير، فحاجة العبد إلى ربه لذاته، لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته، لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا كما أن الغنى أبدًا وصف له ذاتي»[2].

وعرف تبارك وتعالى «الفقراء» في هذه الآية؛ ليريهم شديد افتقارهم إليه، إذ هم جنس الفقراء، وإن كان العالم بأسره مفتقر إليه؛ فلضعفهم جعلوا كأنهم جميع هذا الجنس ولو نكر لكان المعنى: أنتم، يعني: الفقراء[3].

وقال الرازي في سبب نزول هذه الآية: «لما كثر الدعاء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والإصرار من الكفار، وقالوا إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمرًا بالغًا، ويهددنا على تركها مُبالغًا، فقال تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم»[4].

ثانيًا: دوافع شرعية:

ومن تلك الدوافع:

١. دافع الرغبة والرهبة.

وهي من أعظم الدوافع الشرعية، فهي من صفات المؤمنين الصادقين، وهي باعث الرجاء والخوف؛ الرغبة في ثواب الله تعالى، والرهبة من عذابه وعقابه سبحانه

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٥٨.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ٨ بتصرف يسير.

(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٩/ ٢٣.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٩.

وتعالى، وقد أثنى الله عزو جل على أشرف الخلق إليه، وهم أنبيائه؛ لرغبتهم ورهبتهم.

قال تعالى عن زكريا عليه السلام وأهل بيته: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

قال الرازي: «فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، وأراد بذلك زكريا وولده وأهله، فبين أنه آتاهم ما طلبوه، وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم، أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به؛ لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة، أما قوله تعالى:﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قرئ: (رَغْبا ورَهْبا)، وهو كقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩].

والمعنى: أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة في عقابه. والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفًا من الإثم».[1] وقال ابن القيم: «وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية، وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ٥٠﴾ [النحل:٥٠]»[2].

٢. دافع المحبة والتعظيم.

فإن محبة الله تعالى وتعظيمه، دافع من دوافع عبادته، فالله عزو جل أهل لأن يعبد لذاته الجليلة، وأن يطاع لصفاته العظيمة، قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

قال السعدي: «أي: هو أهل أن يتقى ويعبد؛ لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه»[3].

وقد مدح الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين في كتابه، لمحبتهم إياه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

قال القرطبي في هذه الآية: «وقيل: إنما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأن الله تعالى أحبهم أولًا ثم أحبوه، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتم، قال الله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٨٢-١٨٣.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص٢٨٢- ٢٨٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩٨.

تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤][1].

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ «وفيه دقيقة وهي أنه تعالى قدم محبته لهم على محبتهم له، وهذا حق؛ لأنه لولا أن الله أحبهم، وإلا لما وفقهم حتى صاروا محبين له»[2].

فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًا وحرية عما سواه[3].

٣. دافع الشكر والعرفان.

فإن نعم الله سبحانه وتعالى على بني آدم عظيمة؛ لأن كل النعم على بني آدم منه.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وهي دافع للعبادة لله سبحانه وتعالى، شكرًا وعرفانًا بعطاياه التي لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤].

فلا يستطيع الإنسان حصر هذه النعم؛ لكثرتها عليه.

قال الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن بني آدم لا يقدرون على إحصاء نعم الله لكثرتها عليهم، وأتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فدل ذلك على تقصير بني آدم في شكر تلك النعم، وأن الله يغفر لمن تاب منهم، ويغفر لمن شاء أن يغفر له ذلك التقصير في شكر النعم، وبين هذا المفهوم المشار إليه هنا بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن المفرد إذا كان اسم جنس وأضيف إلى معرفة أنه يعم؛ لأن ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ مفرد أضيف إلى معرفة فعم النعم»[4].

وقد أمر الله بالشكر، ونهى عن ضده.

قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

ووعد أهله بأحسن جزائه.

قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

وجعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنعمته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٠٤، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٦-١٩٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨١.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٥/ ١٨٨.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦٢.

وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه، كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣][١].

وقد سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلا يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردت قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: كل الناس أعلم منك يا عمر![٢]، فشكر الله تعالى أصعب عبادة وأشرفها.

قال الراغب في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٢].

«وإنما قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ ولم يقل: (واشكروني) علمًا بقصورهم عن إدراكه، بل عن إدراك الآية، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، فأمرهم أن يعدوا بعض أفعاله في الشكر له، وشكر الله عز وجل أصعب عبادة وأشرفها، ولهذا قيل: غاية شكر الله الاعتراف بالعجز عنه، فكل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله، فإن شكرها نعمةٌ منه»[٣].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٢٣٢-٢٣٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٧٧.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٣٤٥.

صور العبادة

من حكمة الله تعالى في شريعته أن نوَّع لهم العبادات، وجعل لها صورًا وأشكالًا مختلفة، ومن تلك الصور:

أولًا: عبادات قولية:

وتشمل قول اللسان: كالدعوة إلى الله، وتبليغ دينه، وقراءة القرآن، والدعاء إلى الله، ونحو ذلك.

ومن أدلة هذا النوع:

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨].

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠][٤].

ثانيًا: عبادات قلبية:

وتشمل قول القلب: وهو الاعتقاد بما أخبر الله به عن نفسه، وعن ملائكته ولقائه على لسان رسله، ونحو ذلك[٥].

ومن أدلة هذا النوع:

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

(٤) المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي ص ٩٥ بتصرف.
(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٠ بتصرف.

﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:١٧٧] [1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة:١١١].

وتشمل كذلك عمل القلب: كالتوكل عليه، والإنابة إليه، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه وغير ذلك من أعمال القلوب [2].

ومن أدلة هذا النوع:

قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:٥٤].

وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠] [3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود:٢٣].

ثالثًا: عبادات بدنية:

وتشمل أعمال الجوارح: من صلاة، وجهاد، وحج، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك [4].

ومن أدلة هذا النوع:

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج:٧٧].

وقوله جل جلاله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج:٢٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة:٩] [5].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

رابعًا: عبادات مالية:

وتشمل إخراج الزكاة من المال؛ امتثالًا لأمر الله، والوفاء بالنذر، والجهاد بالمال في سبيل الله عز وجل.

---

(١) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٥.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢١ بتصرف.
(٣) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٥.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢١ بتصرف.
(٥) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٦.

ومن أدلة هذا النوع:

قول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١].

وقول الله عز وجل: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان:٧][١].

خامسًا: عبادات مشتركة:

وهي ما اشتملت على نوعين فأكثر من العبادات، منها على سبيل المثال:

الحج: وهي عبادة مركبة من نوعين بدنية ومالية[٢].

واتفق الفقهاء على أن من شروط وجوب الحج الاستطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧].

والاستطاعة أي: القدرة، وتتحقق بأمور منها: وجود المال الذي يكفي ذهابًا وإيابًا[٣]، فالحج إذًا عبادة لا تقوم إلا بالبدن والمال؛ ولهذا لا يجب إلا عند وجود المال وصحة البدن.

وكذلك العمرة فهي عبادة مركبة من نوعين: بدنية ومالية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦].

وقد ذهب الفقهاء إلى أنه يجوز أداء العمرة عن الغير؛ لأن العمرة كالحج تجوز النيابة فيها؛ لأن كلًّا من الحج والعمرة عبادة بدنية مالية[٤].

والجهاد كذلك عبادة مركبة من نوعين: بدنية ومالية.

قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٤١].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «قوله: ﴿وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها»[٥].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٥].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، لأن الجهاد يقتضي الأمرين:

(١) المصدر السابق ص ٩٦.
(٢) انظر: المنتقى من فرائد الفوائد، ابن عثيمين ص ٤.
وانظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٣/ ٢٠٩٥.
(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٢/ ٣٤٨ بتصرف.
(٤) المصدر السابق ٣٠/ ٣٢٨.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٤.

بذل النفس وبذل المال»[1].

والصلاة تشتمل على عبادات قلبية وقولية وعملية.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢].

فالصلاة في الشرع يراد بها: العبادة المُبتدَئة بالتكبير المُختتَمة بالتسليم، التي تشتمل على عبادات قلبية وقولية وعملية، فالصلاة تشتمل على أنواع العبادة في القلب: من الخشوع، والخشية، والإقبال على الله سبحانه وتعالى، وباللسان: من التكبير، والتحميد، والثناء على الله، وتلاوة كتابه الكريم، ومناجاة الرب سبحانه وتعالى، وبالجوارح: من القيام، والركوع، والسجود، والجلوس، فالصلاة عبادة عظيمة، يجتمع فيها ما لا يجتمع في غيرها من أنواع العبادات؛ ولذلك جعلها الله عمود الإسلام، وجعلها الركن الثاني من أركان الإسلام[2].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٧١.

(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح الفوزان ١/ ١٦٥ بتصرف يسير.

عبادة غير الله تعالى

كان الناس أمة واحدة على دين واحد بعد أبينا آدم عليه السلام، واستمروا على ذلك فترة من الزمن، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله الرسل لدعوتهم إلى عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وكان أول الرسل نوح عليه السلام.

وقد تحدث القرآن الكريم عن عبادة غير الله عز وجل كثيرًا، ويمكن إيجازها في النقاط الآتية:

أولًا: النهي عن عبادة غير الله:

لقد بعث الله سبحانه وتعالى في كل أمة من الأمم رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما زينه الشيطان لهم وأوقعهم فيه من عبادة ما سواه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

قال السعدي: «يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولًا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾»[3].

والطاغوت: كل ما عبد من دونه إما بقهر

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٠.

منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، سواء كان إنسانًا ذلك المعبود، أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صنمًا، أو كائنًا ما كان من شيء[1].

وقد أخبر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده والنهي عن عبادة ما سواه، هي دعوة الرسل من قبله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقد قام الأنبياء والرسل جميعًا بذلك، فما منهم من أحد إلا قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٣٢].

وقد احتدم الصراع بين دعاة الحق وأنصار الباطل بين الرسل وأممهم، وخلال هذا الصراع الرهيب تحطمت الأصنام وتهاوت الأوثان، وانخذل الشرك وأهله، وانتصر الحق ودعاته[2].

المعبودات من دون الله لا تملك شيئًا لعابديها:

أخبر الله عزو جل في كتابه عن جهل المشركين في عبادتهم لمن لا يملك لهم نفعًا، ولا ضرًا، ولا نصرًا، ولا رزقًا، في أكثر من آية.

منها: قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ۝٥٥﴾ [الفرقان:٥٥].

قال ابن كثير في هذه الآية: «يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا، بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم، ويقاتلون في سبيلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ أي: عونا في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ۝٧٥﴾ [يس:٧٤-٧٥].

أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرًا، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم، ويذبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ معنى لطيف ذكره الرازي: «وهو أنه تعالى لما قال: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جندًا لهم ومحضرون لنصرتهم، فإن ذلك دال

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤١٩ بتصرف.
(٢) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ١٧ بتصرف.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٨ باختصار يسير.

على عدم الاستطاعة، فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهبًا ولم يجمع أنصاره»[1].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٧٣ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧٤﴾ [النحل: ٧٣-٧٤].

وفي هذه الآيات تقريع للكفار وتوبيخ لهم، وإظهار لفساد نظرهم فهذه الأصنام لا تملك توفير الرزق لعبدتها ولا تستطيع فعل شيء، فآية: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ نفي الملك وتحصيل الملك، ومن لا يملك شيئا وهي الأصنام، ليس في استطاعتها تحصيل الملك، أي: إنها لا تملك شيئًا، ولا تستطيع تمليك شيء، والنتيجة لذلك أنكم أيها الوثنيون لا تجعلوا لله أندادًا وأشباهًا وأمثالًا، ولا تشبهوه بخلقه، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لا تمثلوا لله الأمثال، وإن الله يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم أيها البشر الوثنيون بجهلكم تشركون به غيره[2].

وقد ضرب الله الأمثال في القرآن لبيان حال هذه المعبودات، وأنها ضعيفة وعاجزة.

ومن هذه الأمثال، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج: ٧٣].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى حول هذا المثل: «حقيق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ما هو أكبر منه، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب، وإذا سلبهم الذباب شيئًا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوان، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما يسلبهم إياه فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله تعالى؟! وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم»[3].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٠٧.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٨٣.
(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ١/ ١٣٩.

ثانيًا: إنكار المعبودات من دون الله لعابديها:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن هذه المعبودات التي عبدت من دون الله، سواءً كانت من الحجر، أو من البشر، أو من الملائكة، أو من الجن، سوف تنكر عابديها يوم القيامة وتتبرأ من ذلك.

قال تعالى في شأن إبليس: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

قال السعدي في هذه الآية: «أي: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطبًا لأهل النار ومتبرئًا منهم ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ودخل أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ على ألسنة رسله، فلم تطيعوه ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ الخير ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعًا لأهوائكم وشهواتكم ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ كل له قسط من العذاب ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكًا مع الله، فلست شريكًا لله ولا تجب طاعتي»[1].

والإشراك الذي كفر به إشراكهم إياه في العبادة بأن عبدوه مع الله؛ لأن من المشركين من يعبدون الشياطين والجن، فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرة، ومنهم من يعبدون الأصنام فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته[2].

قال ابن عاشور: «والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه؛ لأن هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان، مليء بإضمار الشر لهم فيما وعدهم في الدنيا مما شأنه أن يستفز غضبهم من كيده لهم وسخريته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنهم بما يتوقعون إتيانه إليهم من قبله، وذلك أصل عظيم في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٢٤ باختصار يسير.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٢١.

الموعظة والتربية»(١).

وقال تعالى في شأن الأولياء والصالحين وغيرهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝١٧ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝١٨ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩﴾ [الفرقان:١٧-١٩].

قال السعدي في هذه الآية: «يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ﴾ الله مخاطبًا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ هل أمرتموهم بعبادتكم وزينتم لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به وبرؤوا أنفسهم من ذلك ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ أي: لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحدًا بعبادتنا؟! هذا لا يكون، أو سبحانك عن ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين، فقالوا: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ اشتغالًا في لذات الدنيا، وإكبابًا على شهواتها.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي: بائرين لا خير فيهم، فلما تبرؤوا منهم قال الله توبيخًا وتقريعًا للعابدين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفداء أو غير ذلك ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لعجزكم وعدم ناصركم، هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، وأما المعاند منهم الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بترك الحق ظلما وعنادًا ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ أمره»(٢).

وقال تعالى في شأن الأصنام: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥﴾

(١) المصدر السابق ١٣/ ٢١٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٨٠ باختصار.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف:٥-٦].

أي: لا أحد أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين، وأضل الضالين والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ الضمير الأول للأصنام، والثاني لعابديها.

والمعنى: أن الأصنام التي يدعونها غافلون عن ذلك لا يسمعون ولا يعقلون، لكونهم جمادات، فالغفلة مجاز عن عدم الفهم فيهم، وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء؛ لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ العابدون للأصنام ﴿كَانُوا﴾ أي: كان الأصنام ﴿لَهُمْ﴾ أي: لعابديهم ﴿أَعْدَاءً﴾ يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا، وقد قيل: إن الله يخلق الحياة في الأصنام فتكذبهم، وقيل: المراد إنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم جاحدين مكذبين، وقيل: الضمير في كانوا للعابدين، كما في قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، والأول أولى[(١)].

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١٣: ١١- ١٢ باختصار.

مقاصد العبادة وآثارها

لقد فرض الله تعالى عن الناس عبادات لها مقاصدها وآثارها في إصلاح الفرد والمجتمع، وفي تزكية الأنفس وإصلاح القلوب، ولها آثار ونتائج مفيدة.

وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: مقاصد العبادة:

إن المقصد الأعظم والباعث الأساسي للعبادة هو استحقاق الله تعالى لذلك، فنحن نعبد الله جل وعلا؛ لأنه مستحق للعبادة؛ وتحقيقًا للغاية التي من أجلها خلق الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

فالمقصد الأصلي للعبادات هو تحقيق العبودية لله والانقياد له سبحانه وتعالى.

قال الشاطبي: «إن مقصود العبادات الخضوع لله، والتوجه إليه، والتذلل بين يديه، والانقياد تحت حكمه، وعمارة القلب بذكره، حتى يكون العبد بقلبه وجوارحه حاضرًا مع الله، ومراقبًا له غير غافل عنه، وأن يكون ساعيًا في مرضاته وما يقرب إليه على حسب طاقته»[(٢)].

ونجد أن هذا المعنى قد تقرر في القرآن

(٢) الموافقات، الشاطبي ٢/ ٣٨٣.

بأساليب مختلفة، منها ما جاء بصيغة الأمر.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ [الزمر:٦٦].

إلى غير ذلك من الآيات[١].

وهناك بعض المقاصد للعبادات قد نص الله تعالى عليها في كتابه، وبين ثمرتها وفائدتها، ومن ذلك:[٢]

أنه قال في الصلاة: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤].

قال السعدي: «وقوله: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي؛ لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصًا الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة؛ لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح»[٣].

وقال في الزكاة: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

والصدقة تطلق على الفرض والنفل وسمى الله تعالى الزكاة صدقة؛ لأن المال بها يصح ويكمل، فهي سبب إما لكمال المال وبقائه، وإما لأنه يستدل بها على صدق العبد في إيمانه وكماله فيه[٤].

وقد بين الله تعالى الحكمة في الزكاة وبيان مصالحها العظيمة، فقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ أي: من الذنوب ومن الأخلاق الرذيلة، وتطهر المال من الأوساخ والآفات، وأما قوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فالزكاة هي النماء والزيادة، فهي تنمي المؤتي للزكاة، تنمي أخلاقه، وتحل البركة في أعماله، وتنمي المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره، وتحل فيه البركة من الله[٥].

ونسبت التزكية إلى رسول الله؛ لأنه هو المربي للمؤمنين على ما تزكو به نفوسهم[٦].

وفي الآية دلالة على أن الزكاة إنما يتولى أخذها الإمام أو نائبه؛ لأنه تعالى جعل للعاملين سهمًا منها[٧].

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، محمد اليوبي ص٤٨٥ بتصرف.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٤٨١ بتصرف.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٣ بتصرف واختصار.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٦١.

(٥) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص٧٦-٧٧ باختصار.

(٦) تفسير المراغي ١١/ ١٦-١٧ بتصرف.

(٧) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري

وفيها دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وأن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها[1].

وقال في الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال أبو زهرة: «وقد بين الله تعالى حكمة شرعيته بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي رجاء منكم لأن تصلوا إلى درجة المتقين، فتتقوا المعاصي، وسيطرة الأهواء والشهوات على نفوسكم، وذلك لأن الصوم يربي النفس على الضبط، والاستيلاء على أهوائها وشهواتها، وحيث قويت الإرادة قوي سلطانها على الالتواء وعلى الشهوات»[2].

وفي الآية تأكيد للحكم، وترغيب في الفعل، وتطييب لأنفس المخاطبين فإنه عبادة شاقة، والأمور الشاقة إذا عمت كثيرًا من الناس سهل تحملها ورغب كل أحد في عملها[3].

وقال في الحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

قال الرازي: «لما أمر بالحج في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ ذكر حكمة ذلك الأمر في قوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا، وهي أن يتجروا في أيام الحج، وبعضهم حملها على منافع الآخرة، وهي العفو والمغفرة، وبعضهم حملها على الأمرين جميعًا وهو الأولى، ثم نكر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات»[4].

ولأن العبادات شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم أو بالمال كالزكاة، وقد اشتمل الحج عليهما مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال[5].

وكنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا وذبحوا، وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى، وأن يخالف

٣/ ٤٩٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٠.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٥٥١ باختصار يسير.
(٣) تفسير المراغي ٢/ ٦٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٢١.
(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي ٢/ ٤٣٦.

المشركين في ذلك، فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان [1].

ثانيًا: آثار العبادة:

إن الإسلام قد فرض على الناس عبادات لها أثر حسن في إصلاح القلوب وتهذيب النفوس [2]، فأثرها يتمثل في تقويم أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، وتوجيههم الوجهة النافعة، وقد أوصى الله عباده بالفضائل، وحذرهم من الرذائل، فقال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠] [3].

ومن الآثار المترتبة على العبادات: انشراح الصدر، وراحة البال، وسعة الرزق، وسلامة الإنسان وارتياحه واطمئنانه، وقد جاء في القرآن آياتٌ كثيرة تدل على تلك الآثار، وعلى أن تقوى الله عز وجل والأعمال الصالحة يترتب عليها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

فإن هذه الآية الكريمة تدل على أن من اتقى الله عز وجل وآمن به، فإن الله تعالى يثيبه ويعطيه في الحياة الدنيا من الرزق، ويفتح عليه من بركات السماء والأرض وما ذكره الله في هذه الآية عن أهل القرى، هو من الثواب الدنيوي على الإيمان والتقوى، وأما الثواب الأخروي للمؤمنين المتقين، فقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة:٦٥].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب:٧٠].

وهذه عبادة، ثم ذكر الأثر المترتب على ذلك بقوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧١].

فإن إصلاح الأعمال في الدنيا، ومغفرة الذنوب في الآخرة، من الآثار المترتبة على العبادة، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر آثار تترتب على العبادة في الدنيا وفي الآخرة.

وقال تعالى فيما حكاه عن نوح وقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٢١.
(٢) العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون ص ٨٩.
(٣) العبادات في الإسلام وأثرها في تضامن المسلمين، علي عبد اللطيف منصور ص ١١٩ باختصار.

[نوح:١٠-١٢].

فإن هذه الأمور من الآثار المترتبة على العبادة، فالعبادة هنا هي الاستغفار والآثار المترتبة عليها في هذه الآية هي أنه يرسل السماء عليهم مدرارًا، ويمددهم بالأموال والبنين، ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهارًا، ومثل هذه الآية[١].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

قال القاسمي في هذه الآية: «فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين»[٢]، ثم إن من العبادات الصلاة والزكاة والصيام والحج، وكل واحدة منها لها آثار طيبة في حياة المسلم.

فالصلاة هي عمود الإسلام، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وهي صلةٌ وثيقةٌ بين العبد وبين ربه، فإذا حافظ الإنسان على الصلوات في المساجد جماعة مع المسلمين فإنه تقوى صلته بالله عز وجل؛ لأنه يكون على صلة بالله دائمًا وأبدًا في اليوم والليلة[٣]؛ لذلك حث الله تعالى على إقامة الصلاة في الجماعة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

ومن آثارها أنها تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على مواجهة المشقات والمكاره في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣][٤].

ثم إن الزكاة آثارها عظيمة فهي تطهر النفس من الشح والبخل، وتطهر المال، وتكون سببًا في نمائه وكثرته، وبذلك يحصل الخير والفلاح والفوز[٥].

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٣].

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦].

«والمعنى: أن الإنفاق يقي صاحبه من

---

(١) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ١١-١٦ بتصرف واختصار.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٥٩.
(٣) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ٢٠ بتصرف.
(٤) العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون ص ٩٠ بتصرف.
(٥) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ٢١ بتصرف.

الشح المنهي عنه، فإذا يسر على المرء الإنفاق فيما أمر الله به فقد وقي شح نفسه، وذلك من الفلاح وإضافة الشح إلى النفس؛ للإشارة إلى أن الشح من طباع النفس، فإن النفوس شحيحة بالأشياء المحببة إليها، قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء:١٢٨]»[1].

وأما الصيام فإن آثاره عظيمة، ونتائجه كبيرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣].

قال المراغي: «فرضه عليكم ليعدكم لتقوى الله بترك الشهوات المباحة الميسورة؛ امتثالًا لأمره واحتسابًا للأجر عنده، فتتربى بذلك العزيمة والإرادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرمة والصبر عنها، وإعداد الصوم لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة، منها: أنه يُعوِّدُ الإنسان الخشية من ربه في السر والعلن، ويكسر حدة الشهوة، ويجعل النفس مصرفة لشهواتها بحسب الشرع، ويعود الشفقة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة، فهو عند ما يجوع يتذكر من لا يجد قوتًا من أولئك البائسين، فيرق قلبه لهم ويشفق عليهم، وفي ذلك تكافل للأمة وشعور بالأخوة الدينية»[2].

وأما الحج فإنه عبادة عظيمة، ولها آثار طيبة، ونتائج حميدة في حياة الإنسان.

قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧].

فالحج غذاء روحي كبير تمتلئ فيه جوانح المسلم خشية وتقى لله رب العالمين، ففي كل منسك من مناسكه غذاء للروح، فما الإحرام إلا تجرد من شهوات النفس والهوى، وحبس للنفس عما سوى الله عز وجل، وحث على التفكير في عظمة الله جل جلاله، وحث على تذكر الموت والاستعداد له بالعمل الصالح فالحاج في لباس إحرامه يذكر الميت في أكفانه، وما التلبية إلا استجابة وذكر وطاعة وامتثال، وما الطواف بعد التجرد إلا استحضار لعظمة الله تعالى حول بيته، وامتثال لأمره ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩].

وما السعي بين الصفا والمروة إلا تردد بينهما التماسا لرحمة الله تعالى وطلبا لمغفرته، وما الوقوف بعرفة إلا بذل للمهج في الضراعة إلى الله بقلوب مملوءة بالخشية وأيد مرفوعة بالرجاء وألسنة لاهجة بالدعاء وآمال صادقة في أرحم الراحمين، وما الرمي بعد ذلك إلا رمز

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٨٩.
(٢) تفسير المراغي ٢/ ٦٨-٧٠ بتصرف واختصار.

لاحتقار عوامل الشر ونزعات الشيطان، وما الذبح إلا إراقة للدم الذي أمر الله به أن يراق ورمز للتضحية والفداء ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام:١٦٢].[1].

والحاصل أن هذه العبادات العظيمة التي شرعها الله عز وجل، وبنى عليها دينه الحنيف، تترتب عليها آثار طيبة في حياة المسلم الدنيوية، وآثار عظيمة في حياته الأخروية[2].

موضوعات ذات صلة:

الحج، الزكاة، الصبر، الصلاة، الصيام، الطهارة

(١) العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون ص ٩٧ بتصرف.

(٢) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ٣٠.





عناصر الموضوع

مفهوم العبرة

أولًا: المعنى اللغوي:

العبرة: اسم من الاعتبار[1]، وهو مأخوذ من مادة (ع ب ر)، والمتأمل كتب المعاجم اللغوية يجد أن «العين والباء والراء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدل على النفوذ والمضي في الشيء. يقال: عبرت النهر عبورًا»[2].

ويقال: عبر الرؤيا: يعبرها عبرًا وعبارةً. وعبرها: فسرها وأخبر بآخر ما يؤول إليه أمرها[3].

ومن الباب: عبر الرجل والمرأة والعين من باب طرب، أي: جرى دمعه، ورجلٌ عابر سبيلٍ، أي: مار الطريق، ويقال: عبر الرؤيا، فسرها[4].

قال الخليل: «العبرة: الاعتبار بما مضى، أي: الاتعاظ والتذكر»[5].

و «العابر: الناظر في الشيء، والمعتبر: المستدل بالشيء على الشيء»[6].

فالمعنى اللغوي يدور حول الانتقال، والتجاوز من حال إلى حال، سواء أكان هذا الانتقال والتجاوز محسوسًا، أم كان معنويًا.

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: العبرة هي: «الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد»[7].

إلا أن هذا التعريف غير جامع؛ لأن هناك حالات غير مشاهدة، ذكرها القرآن الكريم، وكانت مضربًا للعبرة، كقصص السابقين.

وقيل: هي الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها وعاقبة أمثالها[8].

وعرفها الواحدي النيسابوري بقوله: «والعبرة: الآية التي يعبر بها من منزلة الجهل إلى

(١) الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٣٢.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٧.
(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ١٣٠.
(٤) مختار الصحاح، الرازي ص١٩٨.
(٥) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٩٠ بتصرف.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٣٠.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٤٣.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٨٢.

العلم؛ لأن المعتبر بالشيء، تاركٌ جهله، وواصلٌ إلى علمه بما رأى -ثم قال- وأصله من: «العبور»، وهو: النفوذ من أحد الجانبين إلى الآخر. ومنه: «العبارة» وهو: الكلام الذي يعبر بالمعنى إلى المخاطب، «وعبارة الرؤيا» من ذلك؛ لأنه تفسير لها، يعبر بها من حال النوم إلى حال اليقظة بإظهار التأويل»[(١)].

وعرف ابن منظور العبرة بأنها كالموعظة مما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر ليستدل به على غيره[(٢)].

(١) التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٨٩- ٩٠.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٣١.

العبرة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عبر) في القرآن الكريم (٧) مرات[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الأمر	١	﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر:٢]
المصدر	٦	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات:٢٦]

وجاءت العبرة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الدلالة بالشيء على مثله للعظة والاعتبار، وحقيقتها: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١]، يعني: عظةً وتذكرةً لهم[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٥٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٧٤٣.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٣/ ٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الآية:

الآية لغة:

بمعنى العجب، وبمعنى العلامة، وبمعنى الجماعة[١].

الآية اصطلاحًا:

الآية أصلها العلامة الدالة على شيء، من قول أو فعل، وآيات الله الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، ومنه آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للناس[٢].

الصلة بين العبرة والآية:

«الآية» من الألفاظ التي فيها قدر مشترك مع «العبرة»؛ ذلك لأن من معاني العبرة «الدلالة»، ومن معاني الآية العلامة الدالة على الشيء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧]. قال ابن عباس: لعبرةً للمصدقين[٣].

٢ الاتعاظ:

الاتعاظ لغة:

من «الوعظ» والوعظ هو: النصح والتذكير بالعواقب و«اتعظ» أي: قبل «الموعظة» يقال: السعيد من «وعظ» بغيره والشقي من «اتعظ» به غيره[٤].

الاتعاظ اصطلاحا:

قبول الموعظة بكف النفس عن الشر، وذلك من قولهم: ««اتعظ»: قبل الموعظة وائتمر وكف نفسه»[٥].

الصلة بين العبرة والاتعاظ:

الاتعاظ هو حالة تنتج عن العبرة، فمن شاهد العبر اتعظ، وتجنب الوقوع في المهالك.

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ٨٥.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٨٧.
(٣) التفسير البسيط، الواحدي ١٢/ ٦٤٠.
(٤) مختار الصحاح، زين الدين الرازي ص ٣٤٢.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٤٣.

٣ التفكر:

التفكر لغةً:

تردد القلب في الشيء. يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرًا. ورجل فكير: كثير الفكر(١).

التفكر اصطلاحًا:

تصرف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب، وقيل: هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء(٢).

الصلة بين العبرة والتفكر:

العبرة أعم وأشمل من التفكر؛ لأن التفكر هو تصرف القلب بالنظر في الدليل، أما العبرة فهي تشمل النظر في الدليل وفي غيره كالنظر في العواقب، وفي غير ذلك.

وبناء على ذلك: فإن في كل عبرة تفكرًا وتأملًا، وليس في كل تفكر عبرة.

٤ الغفلة:

الغفلة لغة:

من «غفل»، والغين والفاء واللام أصلٌ صحيحٌ يدل على ترك الشيء سهوًا، وربما كان عن عمدٍ(٣).

الغفلة اصطلاحًا:

هو سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ(٤).

الصلة بين العبرة والغفلة:

العبرة: الاعتبار بما مضى، أي: الاتعاظ والتذكر»(٥)، أما «الغفلة» فهي من الألفاظ المقابلة التي تعني «فقد الشعور بما حقه أن يشعر به»(٦)، وهذا يعنى أن صاحبها قد يتصف بالغباء والبلادة بعكس المعتبر؛ ومن ثم فالعلاقة بين اللفظين التضاد.

---

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٠٤.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٦٣.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٦.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٠٩.
(٥) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٩٠.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٥٢.

مواطن العبرة في القرآن

أشار القرآن الكريم إلى مواطن متعددة، يحسن بالعبد أخذ العبرة فيها، ومن تلك المواطن:

أولًا: بدائع القدرة الإلهية في الكون:

إن من مواطن العبرة في القرآن، والتي بها نقف على بدائع القدرة الإلهية في الكون؛ مشهد تقليب الليل والنهار.

وهو مشهد يوقظ في القلب الأحاسيس، وفي النفس الخشوع، وفي الروح الخضوع.

قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

والتقليب تغيير هيئة إلى ضدها ومنه ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

أي: يدير كفيه من ظاهر إلى باطن، فتقليب الليل والنهار: تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء، ومن حالة النهار إلى حالة الظلام، فالمقلب هو الجو بما يختلف عليه من الأعراض، ولكن لما كانت حالة ظلمة الجو تسمى ليلًا، وحالة نوره تسمى نهارًا، عبر عن الجو في حالتيه بهما، وعدى التقليب إليهما بهذا الاعتبار.

ومما يدخل في معنى التقليب تغيير هيئة الليل والنهار بالطول والقصر، ولمراعاة تكرر التقلب بمعنييه عبر بالمضارع المقتضي للتكرر والتجدد[١].

ومن هذا التعريف للتقليب يتبين أن تقليب الليل والنهار يشمل كل المعاني التي ذكرها المفسرون على أنها اختلاف؛ فالتقليب يحتمل أن يكون بمعنى «أن يأتي بالليل بعد النهار ويأتي بالنهار بعد الليل، أو أن ينقص من الليل ما يزيد من النهار وينقص من النهار ما يزيد في الليل، أو أنه يغير النهار بظلمة السحاب تارة وبضوء الشمس أخرى، ويغير الليل بظلمة السحاب مرة وبضوء القمر مرة، أو أن يقلبها باختلاف ما يقدر فيهما من خير وشر ونفع وضر»[٢].

فالتقليب إذًا هو «تعاقبهما ومجيء أحدهما بعد الآخر وهو كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢].

ومنها ولوج أحدهما في الآخر، وأخذ أحدهما من الآخر، ومنها تغير أحوالهما في البرد والحر وغيرهما، ولا يمتنع في مثل ذلك أن يريد تعالى معاني الكل؛ لأنه في الإنعام والاعتبار أولى وأقوى»[٣].

إن الإنسان حينما يطلق لعقله عنان التفكير في هذا الجانب من جوانب الكون- مشهد تقليب الليل والنهار ليرى بدائع القدرة

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٦٤ بتصرف.

(٢) النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي ٤/ ١١٤ بتصرف.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٠٦.

الإلهية في الكون، فالليل والنهار آيتان يتتابعان لكن دون رتابة، فالليل قد يأخذ من النهار، والنهار يأخذ من الليل، وقد يستويان في الزمن تمامًا. ومن تقليب الليل والنهار ما يعتريهما من حرٍ أو برد أو نور وظلمة.

إذن: فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة، إنما هي قيومية الله تعالى وقدرته في تصريف الأمور على مراده تعالى؛ لذلك يقول تعالى بعدها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]»[1].

ثانيًا: بدائع القدرة الإلهية في المخلوقات:

إن الوقوف على بدائع القدرة الإلهية في المخلوقات، ولا سيما الأنعام، محلٌ للعبرة، والاتعاظ، وبها يوقف على دلائل تمام قدرة الخالق سبحانه، وانفراده تعالى بالخلق، وسعة العلم، وهذه هي حقيقة العبرة التي يعبر بها الإنسان من الجهل إلى العلم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢١-٢٢].

الأنعام: «اسم جمع لكل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز»[2].

والمتأمل أحوال الأنعام، بداية من خلق الإبل والبقرة والغنم إلى ما فيها من منافع، يجد مصداق ذلك.

فالمنافع كثيرة، ومنها ما ذكر القرآن:

١. ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي: تشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، وتتخذون منها السمن والجبن وغير ذلك، وتنتج لكم الحملان.

٢. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: وتستفيدون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وتتخذون منها الملابس والفرش.

٣. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: وتأكلون من لحومها بعد ذبحها، فتنتفعون بها حية وبعد الذبح.

٤. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وتركبون ظهورها وتحملون عليها الأحمال الثقال إلى البلاد والبقاع النائية، كما تنتفعون بالسفن.

قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣][3].

إن تأمل مواقع العبرة التي تضمنها البيان المعجز في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ

(١) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٢٩٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٩٩.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٧- ٢٨.

﴿لَعِبْرَةً﴾ تؤكد وجود العبرة بحرف التوكيد «إن» وكذلك بـ«لام الابتداء»، وهي «اللام المزحلقة» بين اسم «إن» المؤكدة وخبرها، وهي ترد أيضًا لتفيد معنى «التوكيد»، ومواقع العبرة يمكن أن تكون في هذا اللبن ذاته، مادته وأجهزة تصنيعه، وكذلك تركيبه الكيميائي وكيفية تنقيته بحيث يصير سائغًا لمن يشربه[1].

والامتنان بهذه النعم الجليلة بقصد الإرشاد إلى الخالق، والتعرف على قدرة الله تعالى[2].

فكأن القرآن الكريم يقول لنا إن الحقيقة من وراء ذكر الأنعام أن «تعتبروا بها، فتعرفوا بها أيادي الله عندكم، وقدرته على ما يشاء، وأنه الذي لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يعجزه شيء شاءه»[3].

ولذا قال أبوبكرٍ الوراق إذ يقول: «العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له في كل شيء»[4].

ثالثًا: قصص المرسلين وأقوامهم:

يعد القصص القرآني مجالًا خصبًا لأخذ العبرة، ولذا عقب القرآن بعد كل قصة في سورة الشعراء وغيرها بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]: أي: لعبرة لمن بعدهم[5].

وأوضح دليل على ذلك تعقيب القرآن على قصة يوسف بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ومعنى ذلك أن قصة يوسف وأبيه وإخوته، أو في قصص الأمم «عبرةٌ» أي: فكرةٌ وتذكرةٌ وعظةٌ»[6].

قال الطبري: «لقد كان في قصص يوسف وإخوته عبرة لأهل الحجا والعقول يعتبرون بها، وموعظة يتعظون بها وذلك أن الله جل ثناؤه بعد أن ألقي يوسف في الجب ليهلك، ثم بيع بيع العبيد بالخسيس من الثمن، وبعد الإسار والحبس الطويل، ملكه مصر، ومكن له في الأرض، وأعلاه على من بغاه سوءًا من إخوته، وجمع بينه وبين والديه وإخوته بقدرته بعد المدة الطويلة، وجاء بهم إليه من الشقة النائية البعيدة، فقال جل ثناؤه للمشركين من قريش من قوم نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: لقد كان لكم، أيها القوم، في قصصهم عبرةٌ لو اعتبرتم به، أن الذي فعل ذلك بيوسف وإخوته، لا يتعذر عليه فعل مثله بمحمد صلى الله عليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٨٠-٢١٨١.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٧-٢٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٢٣.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ١٧/ ٩٠.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٧.

وسلم، فيخرجه من بين أظهركم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال من الأتباع والأصحاب، وإن مرت به شدائد، وأتت دونه الأيام والليالي والدهور والأزمان[(١)].

ولعل وجه الاعتبار بقصصهم هو أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد حبسه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن كان لبعض أهلها في حكم العبد، وجمع بينه وبين والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة؛ لقادرٌ على أن يعز محمدًا، ويعلي كلمته، وينصره على من عاداه»[(٢)].

فالعبرة في خبر المرسلين مع قومهم إجمالًا، كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين[(٣)].

ومن العبرة التي نشهدها في القصص القرآني: «إثبات الوحي والرسالة، وبيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح إلى عهد محمد، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد رب الجميع، وبيان أن غاية الأديان واحدة، فضلًا على أنها كلها من عند إله واحد، وبيان أن ثمة وسائل مشتركة عند الأنبياء في الدعوة، كالدعوة بالبيان والتبليغ وإقامة الحجة، وأن استقبال قومهم لهم متشابه، وبيان الأصل المشترك بين رسالة الإسلام التي أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم والرسالة التي بعث الله بها إبراهيم عليه السلام، ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان، وبيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك المكذبين، وذلك تثبيتًا لمحمد، وتأثيرًا في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان، وبيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه، وتنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وبيان قدرة الله على الخوارق، وبيان عاقبة الطيبة والصلاح، وعاقبة الشر والإفساد، وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة»[(٤)].

رابعًا: عذاب المعاندين للحق:

إن في الوقوف على مصائر المكذبين وعواقب المعاندين للحق لعبرة لمن يعتبر، وعظة لمن يتعظ.

عبرة تستحق الوقوف طويلًا أمامها للتأمل، وعظة تلفت الأنظار إليها كثيرًا للتدبر، وهذا ما أمرنا القرآن به.

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِيٓ أَخۡرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ الۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ الۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣١٢- ٣١٣.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٢/ ٢٧٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٢٧.
(٤) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص ١٤٥- ١٥٥ بتصرف.

﴿يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

«قال المفسرون: نزلت هذه الآية في بني النضير، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منهم، فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا وظهر على المشركين قالت بنو النضير: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له رايةٌ، فلما غزا أحدًا وهزم المسلمون نقضوا العهد، وأظهروا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صالحهم عن الجلاء من المدينة»[1].

والسؤال الذي يفرض نفسه كيف نقضوا العهد، وعاندوا الحق؟

لما قتل أصحاب بئر معونة، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا سبعين، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعا إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم: «لقد قتلت رجلين، لأدينهما».

وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكان منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه -ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم-فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضي الله عنهم.

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا إلى المدينة، فلما استلبث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة، فسألوه عنه، فقال:

(١) أسباب نزول القرآن، الواحدي ص ٤١٦.

رأيته داخلا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم.

ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخل والتحريق فيها. فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا.

وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة، ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وخلوا الأموال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

ومن خلال تلك الواقعة تبين كيف فعل الله بهم، فكان موطنًا من مواطن العبرة التي ينبغي على المؤمن أن يتعظ بها، وكان التعقيب من القرآن بصيغة الأمر ﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

أي: «فاتعظوا يا معشر ذوي الأفهام بما أحل الله بهؤلاء اليهود الذين قذف الله في قلوبهم الرعب، وهم في حصونهم من نقمته، واعلموا أن الله ولي من والاه، وناصر رسوله على كل من ناوأه، ومحل من نقمته به نظير الذي أحل ببني النضير. وإنما عنى بالأبصار في هذا الموضع أبصار القلوب، وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الإبصار بالعيون»[2].

والاعتبار في عدة أوجه:

أحدها: أنهم اعتمدوا على حصونهم، وعلى قوتهم وشوكتهم، فأباد الله شوكتهم وأزال قوتهم، ثم قال: فاعتبروا يا أولي الأبصار ولا تعتمدوا على شيء غير الله.

وثانيها: أن يعرف الإنسان عاقبة الغدر والكفر والطعن في النبوة فإن أولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر، والكفر في البلاء والجلاء، والمؤمنين أيضًا يعتبرون به

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥٨ بتصرف.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٦٦.

فيعدلون عن المعاصي[1].

ومن جملة الاعتبار هنا أنهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منها.

وثالثها: أنه سلط عليهم من كان ينصرهم.

ورابعها: أنهم هدموا أموالهم بأيديهم.

ومن لم يعتبر بغيره اعتبر في نفسه. وفي الأمثال الصحيحة: «السعيد من وعظ بغيره»[2].

خامسًا: نصرة المؤمنين على المعاندين:

لقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كثيرًا من ألوان العناد من قبل قريش.

حيث عاندت قريش الحق ورفضته، وقاتلت رسول الله وحاربته، فخذل الله قريشًا وهزمها هزيمة كسرت شوكتها، وأراقت على الأرض كرامتها، ونصر رسوله وأتباعه عليهم.

وأحداث غزوة بدر شاهدة على ذلك؛ ولذا عقب الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

«يعني: إن فيما فعلنا بهؤلاء الذين وصفنا أمرهم: من تأييدنا الفئة المسلمة مع قلة عددها، على الفئة الكافرة مع كثرة عددها ﴿لَعِبْرَةً﴾، يعني: لمتفكرًا ومتعظًا لمن عقل وادكر فأبصر الحق»[3].

والحقيقة التي ينبغي أن تستقر في الأذهان أن نصر الله تعالى المسلمين على وجهين: نصرٌ بالغلبة، كنصرهم يوم بدر. ونصرٌ بالحجة. ولو هزم قومٌ من المؤمنين لجاز أن يقال: هم المنصورون بالحجة، ومحمود العاقبة[4].

«وقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: « يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله ما أصاب قريشا». فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

ولعل هذا يفسر قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: قد كان لكم -أيها اليهود

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٣-٥٠٤ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٤٣.

(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٨٩.

القائلون ما قلتم - ﴿ءَايَةٌ﴾ أي: دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ أي: طائفتين ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ أي: للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر[(١)].

فهذه الآيات التي تتضمن الإشارة إلى أحداث غزوة بدر واردة في صدد خطاب بني إسرائيل، وتهديدهم بمصير الكفار قبلهم وبعدهم.

وفيها لفتة لطيفة عميقة الدلالة كذلك، فهو سبحانه وتعالى يذكرهم فيها بمصير آل فرعون، وكان الله سبحانه قد أهلك آل فرعون وأنجى بني إسرائيل. ولكن هذا لا يمنحهم حقًا خاصًا إذا هم ضلوا وكفروا، ولا يعصمهم أن يوصموا بالكفر إذا هم انحرفوا، وأن ينالوا جزاء الكافرين في الدنيا والآخرة كما نال آل فرعون الذين أنجاهم الله منهم! كذلك يذكرهم مصارع قريش في بدر- وهم كفار- ليقول لهم: إن سنة الله لا تتخلف. وإنه لا يعصمهم عاصم من أن يحق عليهم ما حق على قريش. فالعلة هي الكفر. وليس لأحد على الله دالة، ولا له شفاعة إلا بالإيمان الصحيح!

وقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ يحتمل تفسيرين: فإما أن يكون ضمير «يرون» راجعًا إلى الكفار، وضمير «هم» راجعًا إلى المسلمين، ويكون المعنى أن الكفار على كثرتهم كانوا يرون المسلمين القليلين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ وكان هذا من تدبير الله حيث خيل للمشركين أن المسلمين كثرة وهم قلة، فتزلزلت قلوبهم وأقدامهم.

وإما أن يكون العكس، ويكون المعنى أن المسلمين كانوا يرون المشركين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ هم- في حين أن المشركين كانوا ثلاثة أمثالهم- ومع هذا ثبتوا وانتصروا.

والمهم هو إرجاع النصر إلى تأييد الله وتدبيره، وفي هذا تخذيل للذين كفروا وتهديد، كما أن فيه تثبيتا للذين آمنوا وتهوينا من شأن أعدائهم فلا يرهبونهم.

إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة. ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة- ولو قل عددها- قائم كذلك في كل لحظة. وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف.

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة وتثق في ذلك الوعد وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة وتصبر حتى يأذن الله ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧ بتصرف.

المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة»[1].

فكأن الآية الكريمة تقول: «قل يا محمد للمغرورين بأموالهم وأولادهم وبأعوانهم وأنصارهم: لا تغرنكم كثرة العدد ولا بما يأتي به المال من العدد، ولا تحسبوا أن هذا هو السبب الذي يفضي إلى النصر والغلب، فإن في الاعتبار ببعض حوادث الزمان أوضح آية على بطلان هذا الحسبان، فذكر الفئتين، أي: الطائفتين اللتين التقتا في القتال هو من قبيل المثال»[2].

سادسًا: عاقبة المتكبرين والعصاة:

التكبر على الحق آفة خطيرة أصابت الأمم من قديم، وانتشر هذا الداء العضال، والمرض الفتاك في جسد البشرية، وابتليت الأمم على مدار التاريخ بأناس تكبروا على الحق، وتجبروا على الخلق، وأعملوا في أقوامهم صنوف العذاب، وألوان العقاب، غير أن يد القدرة أمهلتهم، علهم يرجعوا عن غيهم، أو يثوبوا إلى رشدهم، فلما لم يرجعوا أو يثوبوا، أعمل الله فيهم سنته، وأجرى عليهم قدره الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

ولقد ضرب الله لنا في قرآنه العظيم نماذج من هؤلاء، جعل في قصصهم العبرة، وفي أخبارهم العظة. ومن هذه النماذج أنموذج فرعون الذي جاء ذكر قصته مع سيدنا موسى عليه السلام في أكثر من موضع من مواضع القرآن الكريم، ولعل موضع سورة النازعات هو أصرح المواضع تأكيدًا على أخذ العظة والعبرة، إذ يقول الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦].

والعبرة هنا بمعنى «الاعتبار» بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد[3].

والعبرة في هذه القصة أن الله خاطب موسى عليه السلام أن اذهب إلى فرعون الذي علا وتكبر وكفر فقل له: ألم يأن لك أن تسلم؟ أو هل ترغب في توحيد ربك، وتشهد أن لا إله إلا الله، وتزكي نفسك من الكفر، والشرك؟ وأدعوك إلى توحيد ربك ﴿فَتَخْشَىٰ﴾، وتخاف عذابه فتسلم، ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يعني: العصا، واليد، وسائر الآيات.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ يعني: كذب الآيات، ولم يقبل قول موسى عليه السلام ثم أدبر عن التوحيد، وسعى في هلاك موسى، وجمع أهل المدينة فنادى فيهم، فقال: لهم اعبدوا أصنامكم التي كنتم تعبدون، فإن هؤلاء

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٧١-٣٧٢ بتصرف.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٩٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٤٣.

أربابكم الصغار، وأنا ربكم الأعلى ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ يعني: فعاقبه بعقوبة الدنيا والآخرة، وهي الغرق وعقوبة الآخرة وهي النار. ويقال: الآخرة والأولى. يعني: العقوبة بالكلمة الأولى، والكلمة الأخرى، فأما الأولى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، والأخرى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، وكان بين الكلمتين أربعون سنة. ويقال: قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ كان في الابتداء، حيث أمرهم بعبادة الأصنام، ثم نهاهم عن ذلك، وأمرهم بأن لا يعبدوا غيره، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾. فعقب الله على ذلك كله بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

أي: في هلاك فرعون وقومه لعبرةً لمن يخشى، يعني: لعظة لمن يريد أن يعتبر، ويسلم[(١)].

قال الرازي: «والمعنى أن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون، وما أحله الله بفرعون من الخزي، ورزق موسى من العلو والنصر عبرة لمن يخشى، وذلك أن يدع التمرد على الله تعالى، والتكذيب لأنبيائه خوفًا من أن ينزل به ما نزل بفرعون، وعلما بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله، فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه، أي: اعلموا أنكم إن شاركتموهم في المعنى الجالب للعقاب، شاركتموهم في حلول العقاب بكم»[(٢)].

ومن خلال ذلك تبين أن أخذ العبرة هنا يكمن في تهديد المشركين بأنهم إذا ما استمروا في طغيانهم، كانت عاقبتهم كعاقبة فرعون[(٣)].

(١) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤٣ بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٤٢.

(٣) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١٥/ ٢٧٢.

أهل العبرة

ذكرنا مواطن العبرة في المبحث السابق، ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أهل العبرة، من هم؟ وما صفاتهم وسماتهم؛ حتى يتسنى لنا معرفة الذين ينتفعون بالعبرة.

وأهل العبرة المنتفعون بها أربعة كما ذكرهم القرآن الكريم، هم «المؤمنون، و أولو الأبصار، أولو الألباب، أهل الخشية».

أولًا: المؤمنون:

المؤمنون صنف من الناس يتمتع بموهبة قلبية يستطيع بها النفوذ إلى لب الحقائق ليرى بنور الله، وما ذلك إلا لأن الإيمان له نور يقذفه الله في قلوب عباده المؤمنين، فهم المصدقون بكل ما جاء عن الله وعن رسوله، ومن ثم كانوا هم المتفعين بالعبرة، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].

وما أكثر الآيات التي تربط العبرة والانتفاع بالإيمان، نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ونحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

فاستخراج العبرة من آيات الله الكونية يفتقر إلى إيمان صادق ينفذ به صاحبه إلى أعماق الحقائق ليستخرجها.

قال أبو بكر الوراق: «العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له في كل شي»[(١)].

ويقصد بذلك أن يعتبر الإنسان، كيف سخر الله له الأنعام؟ يستفيد من لبنها ولحومها وتنقله ومتاعه، وتطيعه دون معصية وهو في المقابل يعصي ربه وخالقه الذي أنعم عليه بكل شيء.

والإيمان الحي هو الذي يوقظ صاحبه للوقوف على أمثال هذه العبرة، ومن ثم يظهر لكل ذي عينين أن المؤمنين هم أهل العبرة.

ثانيًا: أولو الأبصار:

إذا كان البصر يقال للجارحة الناظرة، فإن البصيرة يقصد بها قوة القلب المدركة للأمور[(٢)].

وأولو الأبصار قوم ألقى الله في قلوبهم نورًا يرى به حقائق الأشياء وبواطنها، وهذا النور بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها.

والمتتبع لكثير من آي القرآن الكريم يلحظ ربط القرآن الانتفاع بالعبرة بمن لديه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٢٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٢٧ بتصرف.

نور البصيرة.

ويفهم من قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

أن يعتبر ويتعظ المكلف بالشرع من قدرة الله تعالى على أن في «تقليبه الليل والنهار لعبرة لمن اعتبر به، وعظةً لمن اتعظ به. ممن له فهم وعقل؛ لأن ذلك ينبئ ويدل على أنه له مدبرا ومصرفًا ومقلبا لا يشبهه شيء»[(١)].

فمن ذا الذي يستطيع أن يفهم هداية هذه الآية، ويقف على العبرة منها إلا إذا كان من ذوي العقول والفهم في الدين؟.

قال القرطبي: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في الذي ذكرناه من تقلب الليل والنهار، وأحوال المطر والصيف والشتاء ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتبارًا ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لأهل البصائر من خلقي»[(٢)].

ويفهم من قول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

أن العبرة في نصرة الله لرسوله يوم بدر مع قلة أصحابه عبرة، كما يفهم أن فيما «أبصره المشركون من كثرة المسلمين مع قلتهم عبرة لذوي الأعين والبصائر»[(٣)].

كما أن تقليل العدد لشد العزيمة فيه عبرة، وتكثير العدد للتهويل وإرجاف الأنفس فيه عبرة.

ولن يستطيع إنسان أن يقف على هذه العبرة إلا إذا كان ممن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»[(٤)].

فكأن القرآن يقول: «فاتعظوا يا معشر ذوي الأفهام بما أحل الله بهؤلاء اليهود الذين قذف الله في قلوبهم الرعب، وهم في حصونهم من نقمته، واعلموا أن الله ولي من والاه، وناصر رسوله على كل من ناوأه، ومحل من نقمته به نظير الذي أحل ببني النضير. وإنما عنى بالأبصار في هذا الموضع أبصار القلوب، وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الإبصار بالعيون[(٥)].

ومن خلال ما سبق تبين أن أصحاب الأبصار هم المنتفعون دون غيرهم بالعبرة.

ثالثًا: أولو الألباب:

وأولو الألباب هم ذوو العقول السليمة

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٠.
(٣) تفسير النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٧٥ بتصرف.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٦٦.

الذي يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم[1].

وأولو الألباب يجمعون بين صفة التذكر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وصفة التأمل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وصفة حسن الاتباع كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

ولهذه الصفات المجتمعة فيهم جعل الله الانتفاع بالعبرة الواقعة في قصص الأنبياء منوطة بأولي الألباب.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وهذه القصص[2] عبرة لما «اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الرسل الذين قص حديثهم، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم»[3].

ونلحظ أن القرآن الكريم ربط العبرة بأولي الألباب دون غيرهم؛ لأنهم «هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات، ومن ثم لا يفيدهم النصح»[4].

فهو عبرة «لأهل العقول الخالصة من شوائب الكدر، يعبرون بها إلى ما يسعدهم، بعلم أن من قدر على ما قص من أمر يوسف عليه السلام وغيره قادر على أن يعز محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويعلي كلمته، وينصره على من عاداه كائنًا من كان كما فعل بيوسف وغيره - إلى غير مما ترشد إليه قصصهم من الحكم، وتعود إليه من نفائس العبر»[5].

كما نلحظ أن القرآن الكريم أشار إلى أن الذين يعتبرون بما أودع الله من أسراره العجيبة في بعض مخلوقاته من حيوانات وزروع ونباتات هم أصحاب العقول.

أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧٣.
(٢) القصص: الخبر بما يتلو بعضه بعضًا، من قص الأثر، والألباب العقول، لأن العقل أنفس ما في الإنسان وأشرف.
انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٠/ ٢٦٠.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧٣.
(٤) تفسير المراغي ١٣/ ٥٦.
(٥) نظم الدرر، البقاعي ١٠/ ٢٦٠.

﴿حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٦، ٦٧].

ولما كان مفتتح الكلام: وإن لكم في الأنعام لعبرة، ناسب الختم بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول كما قال: إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب[١].

فأولوا الألباب هم أهل العبرة.

رابعًا: أهل الخشية:

قال الراغب: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]»[٢].

فأهل الخشية هم الذين اتصفوا بالخوف من الله تعالى، لكنه خوفٌ نابعٌ عن علم وفهم وتدبر لما تؤول إليه عواقب الأمور، فهو خوف مع إجلال وهيبة من الله تعالى.

وهذا يفسر لماذا أهل الخشية هم أهل العبرة؛ لأن خوفهم نابع من تأملهم واعتبارهم بمآلات الأمور، وعواقبها.

وهذا ما أكده القرآن الكريم حينما عقب على قصة موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

فإن في العقوبة التي عاقب الله بها فرعون في عاجل الدنيا، وفي أخذه إياه نكال الآخرة والأولى، عظة ومعتبرا لمن يخاف الله ويخشى عقابه[٣].

فأهل الخشية جمعوا بين قلب يتأثر، وعقل يتدبر.

فقلوبهم من شأنها أن تخشى الله وتتقيه، وتخاف عقوبته، وتحاذر غضبه.

وعقولهم من شأنها أن تدبر في عواقب الأمور ومصايرها، فينظرون في حوادث الماضين، ويقيسون بها أحوال الحاضرين ليتعظ بها»[٤].

فالذي «يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه، أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب؛ حتى يصطدم بالعاقبة اصطدامًا، وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى»[٥].

ومن ثم «كان أهل الخشية هم أهل العبرة؛ لأن الذين يخشون الله هم أهل المعرفة الذين يفهمون دلالة الأشياء على لوازمها وخفاياها»[٦].

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٦/ ٥٥٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠٥.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٩ بتصرف.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٦.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٨٢.

فوائد العبرة في الدعوة

استخدام أسلوب العبرة في الدعوة إلى الله تعالى يوصل إلى استشراف عواقب الأمور.

فأخذ العبرة يجعل الداعية، بل و المدعو يأخذان من الأمور الواقعة المحسوسة دليلًا على ما يمكن أن يأتي في المستقبل غير المحسوس، وهذا ما يشهد له التأمل والتدبر الذي هو جوهر الاعتبار، وأخذ العبرة، فالحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

أي: «إن ذلك الذي رأوه وشاهدوه وهو أن الفئة القليلة المؤمنة التي تقاتل في سبيل الله، غلبت الفئة الكثيرة الكافرة التي تقاتل في سبيل الشيطان مع كثرتها وعدتها وأموالها فيه اعتبار بأن يجعلوا منه سبيلًا لإدراك المستقبل فكان على هؤلاء أن يعرفوا من هذه الواقعة التي انتصر فيها الإيمان مع قلة أهله على الكفر مع كثرته، أن القوة المادية ليست كل شيء»[١].

ويعلق سيد قطب على أخذ العبرة قائلًا: «إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة. ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة- ولو قل عددها- قائم كذلك في كل لحظة. وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف.

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة وتثق في ذلك الوعد وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة وتصبر حتى يأذن الله ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة»[٢].

وأكد الشيخ القاسمي على هذه الفائدة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

بقوله: «والعبرة: الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد. والمراد منه التأمل والتفكر. ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه، وإخراجه من السجن، وتمليكه مصر بعد العبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة، واليأس من الاجتماع، قادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته، وإظهار دينه»[٣].

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١١٢٩-١١٣٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٧٢.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٣٨.

والحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

فإن الفائدة الدعوية هنا أن تأخذ من الحاضر المشاهد دلالة على الغائب غير المشاهد، «فيأخذ المستبصر من رؤية تقلب الليل والنهار، وانتظامه بإحكام ودوامه دليلًا على أن إرادة حكيمة متصرفة تفعل ذلك بتدبير وإحكام»[(١)].

١. توسع مدارك الداعية وتجعله يسير على هدى وبصيرة في جميع أموره.

فالداعية حينما يقف مع العبرة من قصص الأنبياء مع أممهم، يلحظ إعراض أقوامهم عن دعوتهم، ويرى أن الإعراض عن قبول دعوة الأنبياء ليس ببدع من الأمم، بل سبق به أقوام كثيرون، وفي ذلك تسلية للدعاة، إلى ما فيه من التنبيه إلى أن الله لا يهمل أمر المبطلين، بل يمهلهم، وتكون العاقبة للمتقين، فيسير على هدى وبصيرة في جميع أموره.

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة[(٢)].

وهذا ما يشهد له قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٢. تمنع الداعية من الاغترار بالقوة والاعتزاز بغير الله تعالى.

وهذه الفائدة حاضرة وبقوة في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣].

«فاشتمل ذلك النص الكريم على حقيقة مقررة، ودعوة إلى التأمل والاستبصار لأولي الأبصار، ليمتنع الناس عن الاغترار بالقوة والاعتزاز بغير الله تعالى. أما الحقيقة فهي أن الله ينصر من يشاء، فهو الذي سينصر ويخذل، وأن من يعتمد على قوته وحده من غير اعتبار بما تجري به المقادير يخذله الله، وإن شأن الذين يغترون بالقوة المادية دائما ويعتزون بها لا يعتمدون على الله تعالى، ولا يعملون حسابا للقدر الذي يجريه خالق الكون حسب مشيئته وتدبيره، وأنهم إذ ينسون هذا يأتي هم القدر من حيث لا يحتسبون، فينهزمون حيث يرتقبون النصر؛ وإذا كان النصر والخذلان بيد الله تعالى، فالله سبحانه ينصر من ينصره، ويخذل من يكفره»[(٣)].

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٢٠٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٤.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١١٢٩.

٣. تقي الداعية شر الحمق وتضفي عليه ملامح النجابة والفطنة والذكاء.

وهذا أمر واضح الظهور فيمن يعايش قصص السابقين ويستخرج العبرة منها؛ لأن هذه القصص تبعث على العظة والاعتبار، خاصة ما حدث للأمم السابقة، فيميز بين الطيب والخبيث، والفاسد والصحيح، وفي ذلك قيمة عقلية كبرى تؤدي إلى يقظة الأفراد ونهضة الأمم.

٤. توظيف العبرة الكامنة في إشارات الإعجاز العلمي في الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا التوظيف له فائدتان:

الأولى: تقوية للإيمان بالنسبة لبعض المسلمين، أو إيقاظ للإيمان المخدر عند البعض الآخر.

والثانية: وسيلة دعوية مؤثرة في غير المسلين؛ فما أكثر الآيات التي كانت سببًا في إيمان الكثير من المشركين زمن نزول القرآن، واليوم لا تزال هذه الآيات -وخاصة التي فيها إشارات الإعجاز العلمي- تملك قوة التأثير على غير المسلمين، فإبراز العبرة الكامنة في الحقائق العلمية اليقينية التي استقر عليها البحث العلمي التجريبي كانت سببًا في إسلام الكثير من علماء الغرب.

المضامين التربوية في آيات العبرة

لا شك أن آيات العبرة الواردة في القرآن الكريم تحتوي على كثير من المضامين التربوية، سواء في الجانب العقدي، أو الجانب الاجتماعي، أو الجانب العلمي، أو في غير ذلك من الجوانب الأخرى، ومنها:

١. أنها تربي المؤمن على اليقين بنصر الله تعالى للفئة المؤمنة: ومن شأن هذا اليقين أنه ينمي في نفس المسلم الشعور بأن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومعلِ أمره»[1]، فالعبرة تربي المسلم على الإيمان بأن هناك قوةً فوق جميع القوى -الإرادة الإلهية- تؤيد الفئة القليلة فتغلب الكثيرة بإذن الله، فإن النفس تتوجه إليه بكل ما فيها من قوةٍ وشعورٍ ووجدانٍ، وما يمكنها من تدبيرٍ واستعدادٍ مع الثقة بأن وراء قوتها معونة الله وتأييده[2].

٢. تربي وتنشط على عبادة النظر والتأمل والتدبر: سواء أكان في هذا الكون المهيب كما أمر الله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

(١) تفسير القاسمي ٢/ ٢٩٠.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا٣/ ١٩٣، ١٩٤ .بتصرف.

[يونس: ١٠١]. أم في خلق الإنسان العجيب كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. أم في خلق الحيوان، والطير كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل: ٦٦]. ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]. أم النبات كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]. أم في غير ذلك. وتعد هذه العبادة أولى خطوات المرء نحو تحصيل العبرة والعظة.

٣. تورث الخوف والخشية من الله عز وجل: فالعبرة تكسب المؤمن خوفًا من الله عز وجل ومهابة من عقابه، وتجعله يعرف الدنيا، ويوقن أنها ظل زائل، وأن الآخرة هي دار القرار، فيقنع المؤمن بما رزقه الله عما في أيدي الناس، فيعيش المؤمن بسعادة واطمئنان.

٤. تعبر العبر على معالم الخير والشر: فينتفع بذلك في معاشه ومعاده، فيأتي الخير ويجتنب الشر.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البصر، التفكر، الرؤية، القرآن



العتاب

عناصر الموضوع

مفهوم العتاب

أولاً: المعنى اللغوي:

العتاب مصدر عاتب، «وعتب عليه عتبًا وعتابًا وتعتابًا ومعتبًا ومعتبةً، لامه وخاطبه مخاطبة الإدلال طالبًا حسن مراجعته، ومذكرًا إياه بما كرهه منه»[(١)]، وكذلك قال الأزهري[(٢)].

قال صاحب مقاييس اللغة: « (عتب) العين والتاء والباء أصلٌ صحيح، يرجع كله إلى الأمر فيه بعض الصعوبة من كلامٍ أو غيره» [(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي للعتاب عن المعنى اللغوي المذكور سابقًا، فالعتاب: مخاطبة الإدلال، ومذاكرة الموجدة[(٤)]، فهو لوم من طرف لآخر على سبيل الحب والإدلال[(٥)]، وإنما يعاتب من ترجى عنده العتبى، أي: الرجوع عن الذنب والإساءة، أو ما هو أولى، وهذا المعنى هو أنسب معاني العتاب وأمسها بالموضوع.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٧٥- ٧٧، الصحاح، الجوهري ١/ ١٧٥ -١٧٧، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٥٣- ٥٥، المفردات، الأصبهاني ص ٥٤٥، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض ٢/ ٦٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٧٥- ١٧٦، مختار الصحاح، الرازي ص ١٩٩، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٧٦- ٥٨٠، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٢/ ٣٩١، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٣٠٩- ٣١٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٢/ ٥٨١.

(٢) انظر: تهذيب اللغة ٢/ ١٦٥.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٢٥.

(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٦.

(٥) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٨/ ٣٤١٩.

العتاب في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (عتب) في القرآن الكريم (٥) مرات [١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٤	﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥﴾ [الجاثية:٣٥]
اسم المفعول	١	﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾ [فصلت:٢٤]

وورد العتاب في القرآن بمعناها في اللغة وهو: مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة.

تقول: عاتبه معاتبة. قال الشاعر [٢]:

أعاتب ذا المودة من صديق ... إذا ما رابني منه اجتناب

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٤٥.
(٢) انظر: تاج اللغة، الجوهري، ١/ ١٧٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللوم:

اللوم لغة:

لام يلومه لومًا وملامًا وملامةً ولومةً فهو ملوم ومليمٌ، ولامه إذا عذله وعنفه[١].

اللوم اصطلاحًا:

هو «عذل الإنسان عما فيه عيب»[٢].

الصلة بين العتاب واللوم:

أن العتاب هو خطاب على تضييع حقوق المودة والصداقة فهو مفارق للوم، فاللوم هو خطاب وتنبيه على أمورٍ واجبة التحقق ويترتب على تركها ضررٌ[٣]، وعلى ذلك فاللوم يكون مقرونًا بالشدة والتأنيب، بينما العتاب فيه لطف ولين.

٢ النصيحة:

النصيحة لغةً:

نصحت له نصوحًا ونصيحةً ومناصحةً: أي أخلصت وصدقت، والاسم النصيحة، والنصيح: الناصح، وهي كلمة جامعة لإرادة الخير للمنصوح[٤].

النصيحة اصطلاحًا:

هي «الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد»[٥].

الصلة بين العتاب والنصيحة:

العتاب يكون عند تقصير صادر من المنصوح تجاه الناصح، بينما النصيحة تكون بتوجيه ما فيه خير للمنصوح دون وجود تقصير.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٤١٠١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١١٥٩.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٩٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٥٠.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٦١٥.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص٢٤١.

٣ العفو:

العفو لغة:

مصدر عفا يعفو عفوًا، والعفو يطلق على معنيين أصليين:

أحدهما: ترك الشيء، **والآخر**: طلبه [١].

والعفو اصطلاحًا:

كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها، فقد عفا [٢].

الصلة بين العتاب والعفو:

العتاب توجيه اللوم للمقصر بلطف لضياع حقوق، والعفو ترك العقوبة عن المذنب.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٦، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٩٣٨.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٣، ٥٩٨.

الأساليب القرآنية في العتاب

تنوعت أساليب القرآن في الحديث عن العتاب، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولاً: أسلوب المؤاخذة الصريح:

تنوعت أساليب القرآن في العتاب ما بين التصريح والتعريض، وكلاهما خلاف الآخر، فمما قيل في تعريفهما أن التعريض: تضمين الكلام دلالة ليس لها فيه ذكر، كقولك: ما أقبح البخل، تعرض بأنه بخيل. فيفهم السامع مراد المتكلم من غير تصريح.

والتصريح: خلاف التعريض، كقولك: أنت بخيل، ممن يعتقد أنه بخيل. فلا يحتمل الكلام غير المقصود[(١)].

ولما كان العتاب من سنة الأحباب.

قال تعالى عن الكفار في يوم القيامة: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

فقوله: ﴿وَلَا هُمْ﴾ أي: الذين وضعوا الأشياء في غير مواضعها ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يطلب منهم ظاهرًا أو باطنًا بتلويح أو تصريح أن يزيلوا ما وقعوا فيه مما يوجب العتب، وهو الموجدة عن تقصير يقع فيه المعتوب؛ لأن ذلك لا يكون إلا بالطاعة، وقد فات محلها بكشف الغطاء؛ لفوات الدار التي تنفع فيها الطاعات؛ لكونها إيمانًا بالغيب، والعبارة تدل على أن المؤمنين يعاتبون عتابًا يلذذهم[(٢)].

ومن أشد الآيات الصريحة في العتاب آيات سورة عبس، ومع ذلك جاءت ممهدة، فآذنت النبي صلى الله عليه وسلم بالعتاب أولًا، ثم جاءت بالصريح، بل ومن أشد الصريح، فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢].

أي: قطب النبي صلى الله عليه وسلم وجهه، وأعرض؛ لأن جاءه الأعمى، وقطع كلامه، وهو عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه، فأعرض عنه.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ٣-٤] أي: وما يعلمك ويعرفك يا محمد لعل الأعمى يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ، فتنفعه الموعظة.

وفي هذا إيماء إلى أن غير الأعمى ممن تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين لا يرجى منهم الهداية، وفيه تعظيم من الله سبحانه لابن أم مكتوم.

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٦٢، الحدود الأنيقة، زكريا الأنصاري ص٧٨، أنيس الفقهاء، قاسم الحنفي ص٥٥.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ١٣٤.

وبعد هذا الوصف المؤذن بالعتاب جاء العتاب صريحًا في قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥-٦].

أي: أما من استغنى بماله وثروته وقوته عما لديك من معارف القرآن والهداية الإلهية، وعن الإيمان والعلم، فأنت تقبل عليه بوجهك وحديثك، وهو يظهر الاستغناء عنك والإعراض عما جئت به!

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧] أي: لا بأس ولا شيء عليك في ألا يسلم ولا يهتدي، ولا يتطهر من الذنوب، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان مثل هؤلاء من الكفار[١].

قال سيد قطب: «جاء الإسلام ليقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فيضرب صفحًا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس، ثم جاء هذا الحادث لتقرير هذه القيمة في مناسبة واقعية محددة.

جاء الرجل الأعمى الفقير ابن أم مكتوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش، لا لنفسه ولا لمصلحته، ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام.

فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة، وانتشر بعد ذلك الإسلام فيما حولها، بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار.

فأعرض صلى الله عليه وسلم عن الرجل المفرد الفقير الذي يعطله عن الأمر الخطير، الأمر الذي يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشيء الكثير، والذي تدفعه إليه رغبته في نصرة دينه، وإخلاصه لأمر دعوته، وحبه لمصلحة الإسلام، وحرصه على انتشاره!

فجاء العتاب من الله العلي الأعلى لنبيه الكريم، صاحب الخلق العظيم، في أسلوب عنيف شديد.

وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب: ﴿كَلَّا﴾ وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب!

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢] بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب! وفي هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب سبحانه أن يواجه به نبيه وحبيبه؛ عطفًا عليه، ورحمة به، وإكرامًا له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه!

ثم يستدير التعبير -بعد مواراة الفعل الذي نشأ عنه العتاب- إلى العتاب في صيغة الخطاب.

فيبدأ هادئًا شيئًا ما: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [عبس: ٣-٤].

ما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير،

---

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣٠/ ٦١.

أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير -الذي جاءك راغبًا فيما عندك من الخير-، وأن يتيقظ قلبه فيتذكر فتنفعه الذكرى.

ثم تعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته، وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:٥-١٠].

أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة، أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل أمره، وتجهد لهدايته، وتتعرض له وهو عنك معرض!

وأما من جاءك طائعًا مختارًا ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ ويتوقى ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، ويسمي الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير التقي تلهيًا، وهو وصف شديد، ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر: ﴿كَلَّآ﴾ لا يكن ذلك أبدًا»[1].

ثانيًا: أسلوب التعريض:

لم يقتصر القرآن الكريم على الأساليب الصريحة في العتاب، بل اشتمل على عدة آيات، استنبط العلماء منها أن المراد منها عتاب غير صريح، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وأنه تعريض بمعاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بالعتاب الأول في خشيته الناس[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

فقد استنبط العلماء منه أنه تعريضٌ للمؤمنين بالعتاب على توليهم يوم أحدٍ بعد أن قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فندبوا إلى الجهاد، فكان ما كان منهم يوم أحدٍ، فنزلوا منزلة من يشك في عملهم بأنه خيرٌ؛ لعدم جريهم على موجب العلم[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ [التوبة:٤٠].

عتاب من الله أيضًا للمؤمنين بعد انصراف نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من تبوك؛ لأن معناها: إن تركتم نصره، فالله يتكفل به؛ إذ قد نصره الله في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والعزة[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٢٣-٣٨٢٥ بتصرف.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٨، التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٠٧٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٩٥.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢٢٠.

[الأعراف:١٠].

عتاب من الله تعالى لبني آدم على قلة شكرهم[1].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتقدير الكلام: لقد كان لكم في رسول الله قدوة حسنةٌ أن تتأسوا به، ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على الحرب ومعاناة الشدائد، لمن كان يرجو ثواب الله، والفوز بالنجاة في اليوم الآخر، وقد قرن الله الرجاء بكثرة ذكر الله[2].

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٠٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٥٥، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣١١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٧٩.

صور من عتاب الله لأنبيائه

تحدث القرآن الكريم عن صور من عتاب الله تعالى لأنبيائه، وسوف نتناولها بالتوضيح فيما يأتي:

أولاً: عتاب الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام:

آدم عليه السلام أول الأنبياء وأبو البشر، خلقه الله بيديه، لما عصى الله تعالى قال تعالى عنه: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١].

وصفه بالعصيان والغواية، وهو أبو الأنبياء.

وكرر ذلك في مواضع عدة من كتابه الكريم؛ وذلك تحذيرًا من خطر الانحراف عن شرع الله، فما بالكم بمن هو دون آدم صلوات الله وسلامه عليه بمراحل كثيرة؟![3].

ووردت قصة آدم عليه السلام في سبعة مواطن في القرآن الكريم، وهي سور: «البقرة» و«الأعراف» و«الحجر» و«الإسراء» و«طه» و«الكهف» و«ص».

عاتب الله آدم عليه السلام لاستجابته لإغواء إبليس، وتوبته مما أقدم عليه، قال عز وجل: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا

(٣) انظر: الوارف في مشروعية التشريب على المخالف عبدالعزيز الجربوع ص٩.

﴿الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

وقال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

وقال عز من قائل: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢].

قال الزمخشري: «﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ، حيث لم يحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس»[1].

وقال أبو السعود: «﴿وَأَقُل لَّكُمَا﴾ عطف على ﴿أَنْهَكُمَا﴾ أي: ألم أقل لكما ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدو»[2].

ما يستفاد من القصة:

تضمنت قصة آدم عليه السلام العديد من الفوائد والعبر، نذكرها فيما يلي:

١. أن آدم عليه السلام أبو البشر، وهذا ما تكاد تجمع عليه جميع الديانات السماوية، حيث كان آدم يتبوأ منزلة في الجنة، لكنه لما استجاب لغواية إبليس وإغرائه، أخرج منها إلى الأرض، وتوالدت منه ومن زوجه البشرية، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[النساء:١].

٢. أن آدم عليه السلام أخطأ في أكله من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها؛ ولكن هذا الخطأ لم يكن مقصودًا، بل كان عن ضعف ونسيان، كما قال سبحانه: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

٣. سعة رحمة الله وفضله، وسابغ كرمه، وقبوله لتوبة التائبين، كما قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

٤. أن آدم عليه السلام خلق من طين لازب، ومن حمأ مسنون، كما نصت على ذلك العديد من الآيات، نحو قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

٥. اقتضت إرادة الله أن يجعل في الأرض خليفة، هو آدم ومن توالد من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

٦. أن العداوة بين إبليس وذريته، وبين آدم وذريته عداوة قديمة ومستحكمة ومستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن

(١) الكشاف ٢/ ٩٦.
(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢٢١.

عليها، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

٧. أن المتقلب في نعمة يجب أن يحافظ عليها، ويشكر الله ويدعوه بدوامها، ولا يعمل عملًا فيه مخالفة لأمر الله؛ لأن كفران النعم مذهب بها، وقد قال عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

٨. أن قوة الإيمان تتغلب على كيد الشيطان، وأن عباد الرحمن ليس لإبليس عليهم سلطان، قال تعالى مخاطبًا إبليس ومبشرًا عباده المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

٩. خروج آدم عليه السلام من الجنة، وتحذيره وذريته من إغواء إبليس وكيده، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

هذه أهم القضايا الرئيسة التي أبرزتها قصة آدم عليه السلام كما عرضها القرآن الكريم، وهي في مجملها تبرز صورة الصراع بين الحق والباطل، وبين الإنسان وعدوه الأول والأخير إبليس الرجيم.

ثانيًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام:

وهذا نوح عليه السلام لما سأل الله ما ليس له به حق في ابنه أن ينجيه، فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

قال ابن عاشور: «النداء هنا نداء دعاءٍ، فكأنه قيل: ودعا نوحٌ ربه؛ لأن الدعاء يصدر بالنداء غالبًا، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافًا إلى نوحٍ عليه السلام تشريفٌ لنوحٍ وإيماءٌ إلى رأفة الله به، وأن نهيه الوارد بعده نهي عتابٍ»[(١)].

فماذا قال الله تعالى؟

قال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

حذره من الجهل، وأن هذا السؤال ليس لك إنما للجاهلين[(٢)].

ويبدو في ظاهر تلك الآيات أن الله عاتب نوحًا على أسلوبه بقوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلابد وأن يكون نوح أخطأ! وحقيقة الأمر أنه كاد أن يسأل نوح ربه أن ينجي كافرًا -ولا يجوز

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ٨٤.

(٢) انظر: الوارف في مشروعية التريب على المخالف، عبدالعزيز الجربوع ص٩- ١٠.

له ذلك- لجهله بكفر ابنه، فيحذره الله ألا يسأل ما لا يعلم.

ويرفع الله قدر نبيه بأن يرتقي به من أن يكون من الجاهلين بأن ينهاه عن السؤال بغير علم، بينما الأمر واضح أنه طالما استثنى الله ابن نوح فإن الولد كافر، وماذا في ذلك؟ فالله يهذب أنبيائه ويعلمهم؛ حتى يكونوا قدوة لأتباعهم المؤمنين.

وبعد أن ذكر الله تعالى هذه الزلة ومعاتبته إياه عليها، ذكر توبته منها، ورجوعه إليه، واستغفاره إياه واعترافه على نفسه بالجهل لها، فقال -جل جلاله-: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

وقال عز وجل في اعترافه وتوبته: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧][1].

ثالثًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام:

مما ورد في كتاب الله تعالى، ويدل على معاتبته له، قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٣-٨٤].

قال الزمخشري: «﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ أي: شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقًا إلى كلام ربه، وتنجز ما وعد به، بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزل عنه أنه عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظرًا إلى دواعي الحكمة، وعلمًا بالمصالح المتعلقة بكل وقت، فالمراد بالقوم: النقباء، وليس لقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح.

فإن قلت: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ سؤال عن سبب العجلة، فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك، وقوله: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ [طه: ٨٤].

كما ترى غير منطبق عليه.

قلت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين:

أحدهما: إنكار العجلة في نفسها.

والثاني: السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر، وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدم يسير، مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب، فقال:

(١) انظر: بحر الفوائد، الكلاباذي ص٣٥٧.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤].

ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام»[(١)].

رابعًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لداود عليه السلام:

معلوم ثناء الله تعالى على داود عليه السلام في كتابه الكريم، فنبي الله داود قد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وجعله خليفة في الأرض ليحكم بين الناس.

واختلف أهل العلم في سبب عتاب الله له على قولين:

الأول: طلبه من أحد جنوده أن ينزل له عن امرأته، وكان ذلك أمرًا مباحًا عندهم، ووجه العتاب فيه: ارتكابه خلاف الأولى.

والتمس أصحاب هذا القول أن ذلك مشابهًا لما كان عليه المهاجرون والأنصار في بادئ الأمر.

قال ابن جزي: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣].

هذه حكاية كلام أحد الخصمين، والأخوة هنا أخوة الدين، والنعجة في اللغة تقع على أنثى بقر الوحش وعلى أنثى الضأن، وهي هنا عبارة عن المرأة، ومعنى: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أملكها لي، وأصله: اجعلها في كفالتي، وقيل: اجعلها كفلي، أي: نصيبي، ومعنى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني في الكلام والمحاورة يقال: عز فلان فلانًا إذا غلبه.

الثاني: تركه قضاء حوائج الناس.

فنبي الله داود قد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وجعله خليفة في الأرض ليحكم بين الناس، فهذه مهمته وهذا منصبه وهذه مؤهلاته، لكنه قسم زمنه إلى أثلاث: يوم لأهل بيته وشأنه الخاص، ويوم يجلس فيه للحكم بين الناس، ويوم يخلو ويعتكف لله سبحانه وتعالى في محرابه، ولكن هل الرسل بعثوا ليعتكفوا في المحاريب؟ وهل القضاة يتركون القضاء بين الناس ويعتكفون؟ لا.

فأداء الواجب مقدم على ذلك، فلما حصل من داود عليه السلام ما حصل وكان الخلطاء في حالة لا ترضى، بعث الله له ملكين تسوروا عليه المحراب ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ قالوا: نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، وذكرا له القضية، وهي قضية محلولة لا تحتاج إلى قضاء، رجل عنده تسعة وتسعون نعجة والثاني عنده واحدة، فقال صاحب التسعة والتسعين: أعطنيها أكمل المائة، وهذا ظلم لو عرضته على طفل صغير لقال: لا.

هذا ظالم، ولا حاجة إلى قاضٍ صاحب

---

(١) الكشاف ٣/ ٨٠- ٨١.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٨٦.

اجتهاد قد أوتي الحكمة.

إذًا القضية منتهية.

لكن ليرشد نبي الله داود بأن مهمته ليست الاعتكاف ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ سبحان الله ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: بترك الخلطاء يبغي بعضهم على بعض وهو معتكف في محرابه، وما دمت تعترف بأن الخلطاء يبغي بعضهم على بعض، فلماذا تتركهم ومهمتك الأساسية الخلافة في الأرض، وقد آتيناك الحكمة وفصل الخطاب؟ لماذا تعطل هذا وتأتي إلى محرابك تعتكف؟

قال أصحاب هذا القول: «هذه هي حقيقة الفتنة المذكورة في سورة ص، ولن يكون للمرأة دخل في هذه القضية البتة؛ لأن الله قدم لهذه القصة، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ [ص:١٧].

وإضافته بصفة العبودية أعظم في التكريم ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص:١٧] صاحب القوة المعنوية والقوة المادية.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ شديد الأوب والرجوع إلى الله.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨-١٩].

سبحان الله! إنسان أعطي القوة، ويسخر الله الجبال معه بالتسبيح، ويجمع الله الطير عليه حينما يسبح فتسبح معه، وهو شديد الأوب إلى الله ويفتن بامرأة؟! والله ولا حتى المجنون يصدق هذا.

إذًا سياق القصة يدل على نزاهة نبي الله داود، وأن حقيقة الفتنة هو ما ذكر ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٤][1].

وعلى كلا القولين بعد أن ذكر الله تعالى هذه الزلة ومعاتبته إياه عليها، ذكر توبته منها، ورجوعه إليه، واستغفاره إياه، فقال جل جلاله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] فغفر له ذلك[2].

خامسًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لسليمان عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

اختلفت أقوال المفسرين فيما فتن فيه سليمان عليه السلام، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب[3].

قال أكثر المفسرين: «تزوج سليمان عليه السلام امرأة من بنات الملوك، فعبدت الصنم في داره، ولم يعلم بذلك سليمان، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك»[4].

(١) تفسير سورة الحجرات، عطية سالم ٢/ ١٢-١٣.
(٢) انظر: بحر الفوائد، الكلاباذي ص٣٥٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٩.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٥٣.

وقيل: سبب فتنته قربانه بعض نسائه في الحيض، وقيل: احتجابه عن الناس ثلاثة أيام، وقيل: تزوجه في غير بني إسرائيل[1].

وقال ابن كثير: «﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ﴾ أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة»[2].

وقال الألباني: أقرب ما قيل فيه: أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال: (لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس مجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة وجاءته بشق رجل)[3].

فالمراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤].

هو هذا، والجسد الملقى هو المولود شق رجل[4].

وبعد أن ذكر الله تعالى هذه الزلة ومعاتبته إياه عليها، ذكر توبته منها، ورجوعه إليه، واستغفاره إياه، فقال جل جلاله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] فغفر له ذلك.

(١) انظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، أبو القاسم النيسابوري ٢/ ٧١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، ٤/ ٢٢، رقم ٢٨١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب الاستثناء، ٣/ ١٢٧٦، رقم ١٦٥٤.

(٤) انظر: السلسلة الضعيفة، الألباني ١٢/ ٦٢٩.

سادسًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم:

إن من أعظم الأدلة على صدق القرآن وعلى صدق نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وعلى صدق حملة الإسلام من الصحابة عتاب الله الثابت حتى الآن للنبي صلى الله عليه وسلم، فكم من آية في كتاب الله يعاتب ربنا فيها النبي صلى الله عليه وسلم عتاب توجيه، أو عتاب تنبيه، أو عتاب تحذير.

وقد عاتب الله سبحانه نبيه في خمسة مواضع من كتابه: في الأنفال، وبراءة، والأحزاب، والتحريم، وعبس[5].

حادثة ابن أم مكتوم:

من أوضح ما جاء من العتاب في القرآن قوله تعالى يعاتب رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد جاءه أحد المسلمين يسأله في أمور الدين، وهو الصحابي عبد الله بن أم مكتوم، وكان الرسول ﷺ صلى الله عليه وسلم في حديث مع طائفة من المشركين مؤملًا أن يفضى به الحديث إلى إيمانهم، فلم يعن بأمر هذا المسلم السائل، بل أعرض عنه عابسًا، فنزل[6] قوله سبحانه:

(٥) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٢/ ١٣-١٤.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة إذا الشمس كورت، رقم ٣٣٣١

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١-١٠].

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكرمه بعد هذا العتاب من الله.

قال الثوري: «فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول: (مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي) ويقول: (هل من حاجة؟)»[1].

وهذا العتاب بدأ متحدثًا عن الغائب، وكأنه بذلك يريد أن يرسم الصورة لرسوله على لوحة يراها أمام عينيه على وجه غير وجهه، لتكون الصورة واضحة القسمات، بينة المعالم، فالمرء لا يرى وجه نفسه، ثم اتجه العتاب إلى الخطاب في رفق قريب من العنف، مبينًا ما لعله يرجى من الخير من هذا الأعمى السائل، ثم عقد موازنة بين من عني به النبي ومن أعرض عنه، فهذا مستغن لا يعنيه أن يصغي إلى الدعوة أو يطيعها، والآخر مقبل تملأ قلبه الخشية ويدفعه الإيمان، وقد سجل القرآن معاملة الرسول لهما، فهذا العتاب يحمل في ثناياه عذر الرسول صلى الله عليه وسلم فهو ما تصدى لمن استغنى إلا أملًا في هدايته وإرشاده.

وقد يقسو القرآن في العتاب، بعد أن يكون قد استخدم الرفق واللين؛ وذلك في الأمور التي يترتب على التهاون فيها ما يودي بالدعوة.

كما ترى ذلك في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

ولعله بعد رفقه بهم وبيانه لهم أن متاع الحياة الدنيا قليل إذا قيس بمتاع الآخرة، رأى ألا يقف عند هذا الحد من الموازنة، بل مضى محذرًا منذرًا من العتاب القاسي؛ لأنه يمس أساسًا من أسس نشر الدعوة؛ لتأخذ طريقًا إلى النصر والنجاح كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

واستغربه.
واختلف في وصله وإرساله، وصحح الموصول الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص٢٣٠.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢١٣.

أما إذا لم يتصل العتاب بمثل ذلك من مهمات الأمور، فإن العتاب يرق ويلين، كما ترى ذلك في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

فمعرفة الصادق والكاذب إذا كانت قد ضاعت في فرصة، فمن الممكن أن يتوصل إليها في فرصة أخرى، وتحريم النبي صلى الله عليه وسلم لما أحل الله له مسألة شخصية ليس لها من الأثر ما للجهاد من آثار.

قال العلماء: ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالمًا بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغولٌ بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله -تبارك وتعالى- عاتبه؛ حتى لا تنكسر قلوب الضعفاء والمساكين؛ وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم كان نوعًا من المصلحة؛ لأنه بإسلام هؤلاء القوم تسلم القبيلة كلها، إلا أن الله تبارك وتعالى وجهه إلى الأولى والأحسن، وهو أن النظر إلى المؤمن وإن كان فقيرًا أصلح وأولى من الإقبال على الأغنياء طمعًا في إيمانهم[(١)].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢١٣، السراج المنير، الخطيب الشربيني ٤/ ٤٨٥.

تحريم ما أحل الله له:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ١-٢].

فهذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سريته مارية أو شرب العسل؛ مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله تعالى هذه الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

﴿تَبْتَغِي﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله صلى الله عليه وسلم، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه، سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكمًا حكمًا عامًا في جميع الأيمان: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٨٧].

إلى أن قال: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ

﴿كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

فكل من حرم حلالًا عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يمينًا بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ لتبرأ ذممكم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به؛ فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

ومعنى العتاب ظاهرٌ في هذه الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ١-٣].

وكلاهما له علاقةٌ بالجانب الشخصي، سواءٌ ابتغاء مرضاة الأزواج، أو استرضاء صناديد قريشٍ، وهذا مما يدل على أن التشريع الإسلامي لا مدخل للأغراض الشخصية فيه[١].

وقد اختلف في سبب نزول هذه الآيات، مع اتفاق مضمونها بأنه كان لتحريم شيء حلال؛ طلبًا لرضا أزواجه صلى الله عليه وسلم.

فقال ابن كثير: «اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة فقيل: نزلت في شأن مارية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمها، ثم ساق الأحاديث في تلك القضية ثم قال: والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، ثم ساق الأحاديث»[٢].

وقال الطبري -بعد عرض الروايات-: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه شيئًا كان الله قد أحله له، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون شرابًا من الأشربة، وجائز أن يكون كان غير ذلك، غير أنه أي ذلك كان فإنه كان تحريم شيء كان له حلالًا، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله، وبين له تحلة يمينه في يمين كان حلف بها مع تحريمه ما حرم على نفسه»[٣].

وقال السعدي: «هذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حين حرم على نفسه سريته مارية أو شرب العسل»[٤].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢١٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٦٢، المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ٢/ ١٠٣٢.

(٣) انظر: جامع البيان ٢٣/ ٨٩، المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ٢/ ١٠٣٣.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٢، المحرر في أسباب نزول القرآن،

الزواج من زينب رضي الله عنها:

عاتب الله نبيه في سورة الأحزاب، فقال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[الأحزاب: ٣٧].

قال ابن العربي: «تخشى الناس أن يعاتبوك، وعتاب الله أحق أن تخشاه»[(١)].

فهذا عتاب من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم أنه أخفى ما سيبديه ربه تعالى، وأنه خشي من المنافقين وأهل السوء أن يطعنوا فيه عندما يتزوج من مطلقة ابنه بالتبني!

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا لكتم هذه»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»[(٣)].

وتفصيل ذلك: أن زيد بن حارثة رضي الله عنه كان في أول أمر الإسلام ابنًا للنبي صلى الله عليه وسلم بالتبني، وكان يدعى «زيد بن محمد» وقد زوجه النبي صلى الله عليه وسلم من ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها، فلما أبطل الله تعالى التبني نسب زيدٌ لأبيه حارثة.

ثم إن زيدًا رضي الله عنه اشتكى لنبينا صلى الله عليه وسلم من زوجته زينب رضي الله عنها، والنبي صلى الله عليه وسلم يصبره ويذكره بتقوى الله تعالى، وبعد ذلك الإبطال للتبني يوحي الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن زيدًا سيطلق زوجته وأنها ستكون زوجة له، فأخفى النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر -وهو تزوجه بزينب مستقبلًا- عن الناس ولم يبده لأحد، ولم يكن وحيًا مأمورًا بتبليغه، وإنما خبر سيتحقق، وقد حصل فعلًا أن طلق زيد زوجته زينب، وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم.

فليس في قصة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب ما يقدح في مقامه، ولا ما ينزل من قدره، وما يذكره بعض المفسرين في ذلك من أقوال تخالف ما ذكرناه فكله ضعيف مردود.

قال ابن العربي: «فإن قيل: لأي معنى قال

خالد المزيني ٢/ ١٠٣٣.

(١) أحكام القرآن ٣/ ٥٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء)، ٩/ ١٢٤، رقم ٧٤٢٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/ ١٦٠، رقم ١٧٧.

له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد أخبره الله أنها زوجه؟

قلنا: أراد أن يختبر منه رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن علمه منه في أمرها.

فإن قيل: كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لابد منه، وهذا تناقض؟!

قلنا: بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان، وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلًا وحكمًا، وهذا من نفيس العلم فتيقنوه، وتقبلوه»[١].

وإذا كان الله يعلم أن زواج زيد بزينب لن يستمر إلا سنة واحدة ثم يتزوجها محمد صلى الله عليه وسلم: فلماذا لم يأمره بالزواج بها ابتداءً؟

فيجاب عن ذلك بأنه لا يجوز للإنسان أن يقترح على الله تعالى ماذا يفعل؟ ولا أن يعترض على فعله؛ وذلك لكمال علم الله تعالى وحكمته وقدرته، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة التي كثيرًا ما تغيب عن الإنسان ولا يعلمها، قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثم أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بتزوج زينب بعد طلاق زيد لها فيه حكمة عظيمة، وهي تقرير إبطال التبني تقريرًا عمليًا من الرسول صلى الله عليه وسلم؛ حتى يعلم الجميع أن الابن من التبني ليس له أحكام الابن من الصلب، فزوجة الابن من التبني حلال لمن تبناه، وهذه الحكمة تفوت لو أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج زينب ابتداءً.

والتطبيق العملي للأحكام الشرعية يختلف في قوته وأثره عن الواقع النظري، وخاصة فيما يتعلق بأمرٍ مشتهر في الجاهلية ويراد القضاء عليه.

ومن أمثلة ذلك: إفطار النبي صلى الله عليه وسلم في السفر لما شق الصيام على الصحابة، ولم يكتف بأمرهم بالإفطار.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما **(أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان فصام حتى بلغ كراع الغميم فصام الناس، فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإنما ينظرون فيما فعلت فدعا بقدحٍ من ماءٍ فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام فقال: (أولئك العصاة، أولئك العصاة)**[٢].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ

(١) أحكام القرآن ٣/ ٥٧٨ ونقله عنه القرطبي في جامعه ١٤/ ١٩١ وأقره.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، ٢/ ٧٨٥، رقم ١١١٤.

﴿زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾[الأحزاب:٣٧].

أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، أي: الأبناء من التبني؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال له: زيد بن محمد.

فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[الأحزاب: ٤-٥].

ثم زاد ذلك بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة؛ ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣].

ليحترز من الابن الدعي؛ فإن ذلك كان كثيرًا فيهم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم»[١].

وأوضح منه فيما نريده ما قاله الطاهر ابن عاشور رحمه الله حيث قال: «وأشار إلى حكمة هذا التزويج في إقامة الشريعة، وهي إبطال الحرج الذي كان يتحرجه أهل الجاهلية من أن يتزوج الرجل زوجة دعيه، فلما أبطله الله بالقول إذ قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾[الأحزاب: ٤].

أكد إبطاله بالفعل؛ حتى لا يبقى أدنى أثر من الحرج أن يقول قائل: إن ذاك وإن صار حلالًا فينبغي التنزه عنه لأهل الكمال، فاحتيط لانتفاء ذلك بإيقاع التزوج بامرأة الدعي من أفضل الناس، وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

والجمع بين (اللام) و(كي) توكيد للتعليل، كأنه يقول: ليست العلة غير ذلك»[٢].

فكيف لتلك الأحكام والفضائل أن تظهر لولا وقوع التبني فعليًا من النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تزويجه لابنه في التبني من ابنة عمته، ثم تزوج النبي صلى الله عليه وسلم منها بعد إبطال التبني؟

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٢٦.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٩.

التجاوز عن المتخلفين عن غزوة تبوك:

عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في قبوله لأعذار المنافقين، وإذنه لهم بالتخلف عن غزوة تبوك؛ وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

فتضمنت هذه الآية عتاب الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حيث أذن لمن طلب منه التخلف عن النفور والنهوض إلى تبوك، وكان من السياسة الرشيدة عدم الإذن لأحد حتى يتميز بذلك الصادق من الكاذب.

فقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ أي: تجاوز عنك ولم يؤاخذك، وقدم هذا اللفظ على العتاب الذي تضمنه الاستفهام ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ تعجيلًا للمسرة للنبي صلى الله عليه وسلم إذ لو أخر عن جملة العتاب لأوجد خوفًا وحزنًا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ علة للعتاب على الإذن للمنافقين بالتخلف عن الخروج إلى تبوك[1].

قال الطبري: «هذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتب به نبيه في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه حين شخص إلى تبوك لغزو الروم من المنافقين، يقول جل ثناؤه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ يا محمد ما كان منك في إذن لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك من قبل أن تعلم صدقه من كذبه ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لأي شيء أذنت لهم؟! ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يقول: ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك إذ قالوا لك: لو استطعنا لخرجنا معك؛ حتى تعرف من له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره وتعلم من الكاذب والمتخلف نفاقًا وشكًا في دين الله، وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل.

قال مجاهد: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ ناس قالوا: استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

قال قتادة: قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ الآية، عاتبه كما تسمعون ثم أنزل الله التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢].

فجعله الله رخصة في ذلك من ذلك.

قال عمرو بن ميمون الأودي: اثنتان

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٧٢.

فعلهما رسول الله لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى، فأنزل الله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الآية.

قال مورق: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ عاتبه ربه»[1].

الصلاة على المنافقين:

أتى عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لما مات أبوه المنافق عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وحربة الحاسدين الناقمين على الإسلام، فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك حتى أكفن أبي فيه. وأبوه عدو للإسلام، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام تقديرًا لابنه المسلم المؤمن، أعطاه قميصه، فكفن هذا المنافق فيه؛ جزاءً لابنه، وإكرامًا له. فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه، فقال: أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال: (أنا بين خيرتين) قال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

فصلى عليه، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة ٨٤][2].

فجعلها صلى الله عليه وسلم خاتمة عمله في هذه المسألة أن لا يصلي على من علم نفاقه وكفره وضرره على الإسلام والمسلمين.

ثالثًا: الأساليب الرقيقة في عتابات الرسول صلى الله عليه وسلم:

المتتبع لمواقف العتاب للرسول صلى الله عليه وسلم يجده عتابًا لصالحه -عليه الصلاة والسلام- رحمةً به، وشفقةً عليه، لا كما يقول البعض: إن الله تعالى يصحح للرسول خطأ وقع فيه[3].

فالقرآن ينتهج في العتاب نهجًا فريدًا، جامعًا فيه بين العذوبة والرقة والقوة، وهذان أمران أساسان في كل عتاب ناجح.

لأن العتاب مقام يقتضي نوعين من المعاني والألفاظ؛ لأنه لا يكون إلا عن تقصير أو خطأ، هذا أحد سببيه الأقوى، ولا يكون إلا حين يرجى من المعاتب عود إلى الجادة، وتوخي الصواب.

وعتاب القرآن الذي يهمنا هنا: عتاب الله رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء عتابه ناجحًا لاشتماله على تلك الخاصتين:

- تذكير بما كان مما استوجب العتاب.
- وإغراء على الرجوع إلى الحق والحث

(١) جامع البيان ١١/ ٤٧٧-٤٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الكفن في القميص، ٢/ ٧٦، رقم ١٢٦٩، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، ٤/ ٢١٤١، رقم ٢٧٧٤.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٦١٨.

عليه بما يثيره النص من بوارق الأمل، وأسباب العفو.

فمن عتاب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذي يتجلى فيه هذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١-١٦].

وهذا أشد عتاب وجهه الله لرسوله عليه الصلاة السلام، وبين له فيه كثيرًا من الحقائق، وفي هذا العتاب -مع شدته- اشتمل القرآن على كثير مما يخففه.

ويبين حسن نية الرسول -عليه الصلاة السلام- فيما بدر منه حين أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم وأقبل على وفد قريش يحاورهم، فقد خفف من شدة هذا العتاب أن الله لم يسند العبوس والتولي للرسول مواجهًا له به، فجاء مسندًا إليه على طريقة الغيبة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ولم يقل له: عبست وتوليت وهو مقتضى الحال ترفيقًا له في العتاب حتى لكأن العابس والمتولي شخص آخر غير محمد عليه الصلاة السلام، والجمهور يسمون هذا السلوك القولي: وضع الغيبة موضع الخطاب.

ويسميه السكاكي: التفاتًا[1] إذ لا يشترط أن يسبقه التعبير بواحد من طرقه الثلاثة، وأيًا كان الخلاف بينهم فإن المؤدى واحد هو كراهة إسناد ما لا يليق بالرسول على سبيل الخطاب.

وخفف منه أيضًا أن القرآن أبان أن ما حدث من الرسول لم يكن لغرض شخصي، بل لباعث من بواعث الرسالة التي جاء بها، وهو حرصه الشديد على هداية هؤلاء الناس، فكأنه أراد أن يستميلهم بحديثه وإقباله عليهم.

كما أن في التعبير بضمير المخاطب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]. الإيناس بعد الإيحاش، والإقبال بعد توهم الإعراض، أما ابن أم مكتوم فمؤمن لا يتأثر بمثل هذه الأعمال التي بدرت من الرسول عليه الصلاة السلام لمصلحة دينية توقعها هو.

فهكذا يكون العتاب الرقيق باستخدام الألفاظ الرقيقة التي لا تؤثر سلبًا على نفس سامعها، بحيث ينسى أنه عتاب ويتحول إلى مدافعٍ ومجادلٍ عن موقفه؛ ليثبت أنه على صواب، ولا يؤتي العتاب -في تلك الحالة- ثمرته المرجوة.

وانظر إلى لطف العتاب في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

(١) انظر: مفتاح العلوم السكاكي ص١٧٥.

﴿لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

فمبالغة في لطف عتاب الله له صدر العتاب بالعفو من أول الأمر، وقدم على ما استحق من أجله العتاب: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وأن العتاب الرقيق يدل على عظم منزلة المعاتب عند المعاتب، أن يبادره بالعفو، ثم يأخذ معه في بيان ما خالف فيه مما ينبغي ألا يكون.

وقد غلا الزمخشري في توجيه هذه الآية حيث قال: «﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الجناية؛ لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت»[1].

وغلوه في هذا التوجيه ظاهر؛ لأنه حمل الكلمة ما ليس من طبيعتها، وصرح بما لم يصرح به الله في كتابه، ولو كان هذا الذي يقوله الزمخشري مطلوبًا لله من هذه الآية لما منع مانع من ذكره.

ولو أنه فسر قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بما قاله في تفسير: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ لكان لقوله شبهة قبول؛ لأن ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ هو موضوع المخالفة.

وقد تعقب ابن المنير قول الزمخشري، وخطأه فيه.

ثم قال: «ولقد أحسن من قال في هذه الآية: إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأ بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداءً: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لتفطر قلبه عليه الصلاة السلام.

فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه الصلاة والسلام»[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

قال الألوسي: «﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه تعظيم لشأنه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي الكريم يعد كالذنب، وإن لم يكن في نفسه كذلك، وأن عتابه صلى الله تعالى عليه وسلم- ليس إلا لمزيد الاعتناء به، وقد زل الزمخشري ها هنا كعادته، فزعم أن ما وقع من تحريم الحلال المحظور لكنه غفر له عليه الصلاة والسلام»[3].

وقال سيد قطب: «﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يوحي بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته، وهو إيحاء لطيف»[4].

ومن ذلك أيضًا ما رواه مسلم[5] عن

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧٤.

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف، ابن المنير ٢/ ٢٧٤ ـ مع الكشاف.
وانظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبدالعظيم المطعني ١/ ٢٧٣- ٢٧٦.

(٣) روح المعاني ١٤/ ٣٤٣.

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦١٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد

ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: (لما أسروا الأسارى في بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرٍ وعمر: (ما ترون في هؤلاء الأسارى؟) فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ترى يا ابن الخطاب؟) قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيلٍ فيضرب عنقه، وتمكني من فلانٍ -نسيبًا لعمر- فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكرٍ، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيءٍ تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) شجرةٍ قريبةٍ من نبي الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

فالنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف آثر السلامة، وهو رأي كثير من أصحابه، ولكن الله -تبارك وتعالى- أرشده إلى الأولى من ذلك، وهو الشدة في هذا الموقف؛ لأن هؤلاء هم صناديد الكفر، وكبار أهل الضلال، فالأولى معهم القتل والتنكيل بدلًا من العفو والصفح، خاصة والدعوة في بداياتها، وتحتاج إلى أن تظهر بمظهر القوة بين قبائل العرب، وكان هذا هدفًا لا يعدله المال، ولذا سمي هذا اليوم بيوم الفرقان لعظمته في تاريخ الدعوة.

فعاتبه الله بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ فالخطاب ليس موجهًا مباشرة إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم، ولكن المعنى: لا يحق لأي نبي مهما كان أن يكون في هذا الموقف وعنده أئمة الكفر الذين حاربوه وأخرجوه ومكروا به، وأرادوا قتله أن يعفو عنهم.

وهكذا يكون العتاب الرقيق الذي لا يوجه مباشرة إلى الملوم؛ حتى لا يتشاغل بالدفاع عن نفسه، وينسى في ظل الجو شديد السخونة أن يتعلم ويفهم المراد من التوجيهات السديدة، والنصائح الرشيدة، ويفهم عن اقتناع ورضا نفس أن الأولى هو فعل ما يرشد إليه العاتب.

والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم، ٣/ ١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

ولقد تعلم النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا فقه العتاب وفنه من أحاديث ومواقف الأنبياء التي قصها الله -تبارك وتعالى- عليه، وأعلمه بها، فمن ذلك ما رواه أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرةٍ، فلدغته نملةٌ، فأمر بجهازه، فأخرج من تحتها، ثم أمر بها فأحرقت فأوحى الله إليه فهلا نملةً واحدةً)**(1).

عاتب الله تبارك وتعالى هذا النبي الذي يقال: إنه العزير، بأنه قتل جماعة النمل لأنه لدغ من واحدة فقط، فاستدعى الله انتباهه وقال له: **(فهلا نملةً واحدة)**.

والناظر لقوله تعالى: **(فهلا نملةً واحدةً)** يجد أنها لطيفة موجهة لما هو أرفق بهذا النبي؛ حيث إن الموقف لا يستدعي الشدة، فالخطب يسير، وأمة النمل مهما بلغت لا تملك من أمرها شيئًا.

وعلى هذا المنوال من الأدب الجم والفقه العميق لفن العتاب، تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في المواقف التي تحتاج إلى ذلك، وتوجيههم إلى ما هو أصلح وأولى، فكان صلى الله عليه وسلم بذلك يهذب أصحابه ولا يلجئهم إلى الدفاع عن أنفسهم، بل يلفت انتباههم إلى العبرة والعظة من العتاب.

ولقد حرص صلى الله عليه وسلم أن تكون الصيغ والكلمات معبرة وموحية بالحب والعطف والشفقة على محدثه؛ لتنفذ هذه النصائح والكلمات إلى قلبه؛ فيتأثر بها ويعمل بمقتضاها.

وغيرها من المواقف التي تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يصرح باسم أحد من صحابته، بل يقول: **(ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا)**(2) يعاتبهم بأسلوب مهذب رقيق، ليس فيه تجريح للمشاعر، ولا غض من قيمة الشخص الذي اقترف خطأ، فكان صلى الله عليه وسلم مثلًا حيًا للصحابة في فقه التعامل مع الناس؛ حتى قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان النبي صلى الله عليه وسلم قلما يواجه رجلًا في وجهه بشيءٍ يكرهه»(3).

بل كان يتعامل مع أهله -أعني زوجاته- بهذا الفقه، فمن ذلك ما قصه ربنا -تبارك وتعالى- في سورة التحريم، حيث قال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب دخلت امرأة النار في هرة، رقم ٣٠٧٢.

(2) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، ٤/ ٢٥٠، رقم ٤٧٨٨. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٠٦٤.

(3) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الترجل، باب في الخلوق للرجال، ٤/ ٨١، رقم ٤١٨٢. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، رقم ٤١٨٢.

﴿بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

أي أن النبي صلى الله عليه وسلم استكتم حفصة سرًا بتحريم العسل على نفسه، وأن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي؛ فذكرته حفصة لعائشة، فأظهره الله عليه، فعرف بعضه وأعرض عن بعض.

أي: قال لها: إن الله أوحى إلي ما أفشيت من السر في تحريم العسل، وأنك أخبرت عائشة بذلك.

وهذا التغاضي عن كثير من أخطاء الأحبة والمقربين من شيم الكرام الأخيار الذين لا يلومون أحبابهم على كل ما يفعلون، أو يأتون من أخطاء، ولكن يكفي التعريض ببعضها والكف عن البعض الآخر.

ويعد هذا من قمة فقه العتاب وفنه بمكان، لا يصل إليه إلا من تأدب بآداب القرآن، وتعلم من النبي العدنان صلى الله عليه وسلم.

قال الحسن: «ما استقصى كريم قط»[(١)].

وقال سفيان: «ما زال التغافل من فعل الكرام»[(٢)].

وعلى هذا يجب علينا أن نتعلم من النبي صلى الله عليه وسلم الأساليب اللطيفة في العتاب والمحاورة الرقيقة التي تجعل المعاتب لا يخرج عن حب معاتبه، ولا يجنح إلى الإعراض عنه، بل يسمع ويطيع؛ لأن معاتبه لا يبغي إلا صلاحه وكماله سواء في الفعل أو القول.

هذه بعض المواقف من حياته صلى الله عليه وسلم التي تبرز وتوضح ما للعتاب من قيمة حيوية في ديننا وشريعتنا، لعلنا نعتبر بها في عصر الجفاء والغلظة علها أن تبرد أكبادنا، وتطفئ نار قلوبنا، وتهدئ من روعنا[(٣)].

ونلحظ ثلاثة جوانب في آيات الذكر الحكيم من عتاب لبعض الأنبياء والمرسلين:

أولها: إثبات بشرية هؤلاء الأنبياء، وأنهم وإن بلغوا قمة الكمالات البشرية فلا تزول عنهم صبغة البشر المخلوق الذي تتنازعه الطاقات والقوى المودعة فيه، فإن صلتهم بالملأ الأعلى، وسعيهم الحثيث لتطبيق ما يوحى إليهم، والمسارعة إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى يجعل منهم قدوة لأتباعهم في الإيمان والعمل الصالح، إلا أن دواعي الحاجة الإنسانية من طعام وشراب وسير في الأسواق للكسب والمعاش، وعدم الاطلاع على الغيب ومستقبل الأيام، وما يعتريهم من مرض ونسيان وضعف في القوى الجسمية كل ذلك يؤكد بشريتهم، فلا يستطيعون

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٦٤.
(٢) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي ٩/ ٦٣١.
(٣) موقع صيد الفوائد.

النجاة منها، وإلى هذا الجانب أشار القرآن الكريم في دحض شبهة من زعم أن عيسى وأمه إلهين من دون الله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٥].

فبلوغ الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه الدرجات العليا من القربى والطاعة لا تخرجهم عن طبيعة البشر، ولا يجوز اتـخاذهم شركاء مع الله سبحانه وتعالى.

وقد ضلت الأمم السابقة في هذا الأمر فاختلطت عليهم المقاييس، فبلغ من تقديسهم لأنبيائهم وصالحيهم أن عبدوهم من دون الله، كما فعلت النصارى فضلوا وأضلوا.

وأبرزت بعض الأمم جانب البشرية فيهم وضخمته، ونفت عنهم المزايا التي يتميزون بها عن غيرهم، فنسبت إليهم كل نقيصة ظلمًا وزورًا فضلوا وأضلوا، كما فعل اليهود في سير أنبيائهم، والمنهج العدل أن يعتقد في اصطفائهم من البشر لحمل رسالة ربهم وتبليغها إلى الناس على خير وجه، وصلتهم بالملأ الأعلى، وتلقيهم عن طريق الوحي إليهم، وهي مكانة لا تدانيها مكانة غيرهم من البشر.

إلا أنهم يبقون من البشر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

فوجود النسيان والسهو من بعض الأنبياء تأكيد لهذا الجانب، من غير أن يؤثر على مكانتهم الرفيعة عند ربهم ومولاهم جل جلاله.

ثانيها: جانب تربوي تعليمي: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يمثلون قمة العبودية لله تعالى، وهم القدوة لغيرهم في ذلك.

كما أن سيرتهم الذاتية هي النبراس لغيرهم أثناء السير إلى الله تعالى، فلئن وقع منهم بمقتضى الطبيعة البشرية ما يعاتبون عليه سرعان ما يرجعون إلى الله، ويلتجئون إلى عفوه ومغفرته، ويتفيؤون ظلال رحمته ورضوانه.

إن في رسم معالم التوبة والاستغفار واستدرار الرحمة والرضوان من خلال سيرة الأنبياء تشريعًا للأمم، ولو لم تكن هذه

الوقائع في سيرهم فأنى للمذنبين أن يدركوا طريق الإنابة إلى ظلال رحمة ربهم.

إن في لجوء آدم عليه السلام إلى ربه بالابتهال والإنابة ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وفي استسلام نوح عليه السلام لربه ورجوعه إليه، وإيثار رضوانه على ما تطلعت إليه نفسه بشأن ابنه أكبر المعالم التربوية إلى يوم القيامة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وفي ابتهال ذي النون في بطن الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

زادٌ لمن وقع في ضيق الدنيا وتقلبات أحوالها، وسدت في وجهه السبل.

وفي إنابة داود عليه السلام واستغفاره وإقباله على ربه بالطاعة والعبادة، إدراك للصلة بين العبد وخالقه ومولاه ومالكه ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

لو ترك البشر يشرعون لأنفسهم طريق التوبة والإنابة والاستغفار لما اهتدوا إلى رضوان ربهم، ولضلوا كما ضل من شرع لنفسه شئون حياته الدنيوية، إن **(الدعاء هو العبادة)**[(١)].

والشرائع التعبدية كلها من الله سبحانه وتعالى، وليس لأحد أن يشرع لنفسه، والمقربون إلى الله سبحانه وتعالى يدركون ما يليق بالذات القدسية من كمالات وما تنزع عنها الذات القدسية من نقص ومحال، والبشر عاجزون عن ذلك، فما يكون كمالًا في حق البشر، قد يكون نقصًا محالًا على الذات الإلهية؛ إن وجود الولد والزوجة والقرين والشريك من متطلبات الحياة الإنسانية، وتعتبر من الكمالات البشرية ومن عدمها اشتكى من نقص في نفسه.

أما بالنسبة لله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، ٢/ ٧٦، رقم ١٤٧٩، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، ٥/ ٦١، رقم ٢٩٦٩، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨، رقم ٣٨٢٨، وأحمد ٣٠/ ٣٤٠، رقم ١٨٣٩١.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٢٧، رقم ١٦٢٧.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٣].

ثالثها: إن من يمعن النظر في الأقوال والأعمال التي عوتب عليها الأنبياء صلوات الله عليهم يجدها لا تخرج عن دائرة الأقوال والأفعال التي تدخل في دائرة الاجتهاد وورود الاحتمالات عليها، والموقف الذي اتـخذه النبي في الغالب يكون مما يقال عنه أن الأولى كان الوجه الآخر، إلا أن هذه الأولوية لا تدرك إلا بعد التنبيه الرباني ولا يمكن الاستدلال عليها بالظواهر والأسباب المتاحة عند وجود الحادثة، وإلا لأدى إلى ارتكاب النبي المخالفة الواضحة، وهم منزهون عن ذلك.

وإذا كان العتاب يرد على خلاف الأولى، والتهديد يرد على الأمر المفروض غير الواقع.

ولمن العتاب؟ ولمن التهديد؟ لصفوة الله من خلقه وأنبيائه المرسلين إلى عباده، فكيف يكون الحال بالنسبة لمن خالف صريح أمره، وارتكب صريح نهيه، وعصى محكم شرعه؟

إن في ذكر هذه الألوان من العتاب إيجاد حاجز نفسي بين العباد وبين المعصية، ومخالفة شرائع الله[١].

ومن أهم آداب العتاب التي تستنبط من القرآن الكريم:

١. عدم الإكثار من العتاب.

فلا تعتب على أخيك بكل كبيرة وصغيرة، وإذا كنت في كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه؛ فكثرة العتاب تودي إلى القطيعة، فلابد من الحكمة في العتاب.

٢. لا نترك العتاب مطلقًا.

فمن حين إلى آخر، إن رأيت من أخيك شيئًا أقلقك ينبغي أن تعاتبه، فهذا دليل صدق المحبة، والحرص على دوام الوصال، فأكبر عقاب من الله عز وجل للكافر عدم استعتابه، حيث قال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤] فالكافر لا يستعتب؛ لأنه خارج العناية الإلهية، أما المؤمن فيستعتب.

٣. الإنصاف.

فعند العتاب لابد أن تذكر محاسن أخيك، وتشير إلى فضائله.

وفي ذلك فوائد -أي: في ذكر المحاسن

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص٢٦٢- ٢٦٧.

والإشارة إلى الفضائل - فوائد كثيرة من هذه الفوائد:

أولًا: ذكر المحاسن والفضائل هو مدخل إلى تقبل العتاب، وتطييب لنفس صاحبك لما هو فيها. ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل) قالت: حفصة فكان بعد لا ينام إلا قليلًا[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة)[2].

بل امدح على قليل الصواب يكثر من الممدوح الصواب.

ثانيًا: من الذل أن تذكر المساوئ والأخطاء، وتوجع قلب أخيك بتكرار ما عليه، ولا تشير إلى فضائله ومحاسنه، ولا شك أن هذا ظلم للعباد، أن تنقل عنهم شرهم، وتخفي خيرهم.

٤. سلامة المقصد.

فالمؤمن مرآة أخيه، أن يكون القصد من العتاب مقصدًا شريفًا؛ لأجل النصح والتوجيه، وليس بتتبع الزلات والسقطات، وروي أن رجلًا صحب رجلًا فلما أراد أن يفارقه قال له: أخبرني عن عيوبي، فقال: سل غيري؛ فإني كنت أراك بعين الرضا.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا[3]

فبعض الناس يفعل ذلك بشكل منفر للنفس والعياذ بالله، وهنا إذا حصل ذلك يخرج العتاب عن معناه الصحيح، ويصبح هذا العتاب هو الشرارة الأولى للعداوة، وهو الذي عبر عنه الشاعر بقوله[4]:

فدع العتاب فرب شر ... هاج أوله العتاب

بل يكن لسان حالك وأنت تعاتب أخاك أو زوجك أو ولدك:

أنت عيني وليس من حق عيني
طبق أجفانها على الأقذاء

٥. فتح للرجوع والعود.

وذلك عن طريق التماس العذر، فلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل، ٢/ ٤٩، رقم ١١٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، ٤/ ١٩٢٧، رقم ٢٤٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، ٤/ ٣٢٨، رقم ٢٦٥٣. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١١٧٣، رقم ٢٣٢٨.

(٣) البيت للشافعي في ديوانه ص١٢٣ ت: د.عمر فاروق الطباع. ونسب لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. انظر: الحيوان، الجاحظ ٣/ ٢٣٦، عيون الأخبار، ابن قتيبة ٣/ ١٦، العقد الفريد، ابن عبدربه ٢/ ١٩٤.

(٤) البيت من شواهد تهذيب اللغة ٢/ ١٦٥، تاج العروس ٣/ ٣١١، لسان العرب ١/ ٥٧٨ دون نسبة.

يغلق عليه الأبواب بعتاب غليظ جاف، ثم يريده أن يعتذر منه، ألم تر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءه المتخلفون عن غزوة تبوك يعتذرون عن تخلفهم، أخذ بظواهرهم وقبل اعتذارهم، ووكل سريرتهم إلى الله تعالى.

وتأمل صنيع الشافعي، قال يونس الصدفي: «ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة ثم افترقنا، فلقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة؟»[(١)].

٦. الرفق.

فقد قال صلى الله عليه وسلم: (لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه)[(٢)].

وقال عليه السلام: (إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق!)[(٣)].

يدخل أعرابي المسجد فيبول في ناحية منه، فيغضب عليه بعض الصحابة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاهم عن فعلهم هذا حتى فرغ الأعرابي، ثم يناديه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له: (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن)[(٤)].

كلمات يسيرة، تخرج في رحمة وإشفاق، فتلامس شغاف قلب رجل البادية، فيرفرف قلبه حبورًا ويقول في ذهول: «اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا»[(٥)].

ومن الرفق استخدام العبارات اللطيفة في إصلاح الخطأ والعتاب، فمثلًا حينما نقول للمخطئ: لو فعلت كذا، ما رأيك لو نفعل كذا؟ أنا أقترح أن تفعل كذا، عندي وجهة نظر أخرى ما رأيك لو تفعلها؟ فلا شك أنها أفضل مما لو قلت له: يا قليل التهذيب والأدب، وعديم المروءة والرجولة ألا تفقه؟! ألا تفهم؟! ألا تسمع؟! ألا تعقل؟!

والعتاب يمحو كل ما يعتلي القلب من كراهية وأحقاد وأحزان.

موضوعات ذات صلة

الحوار، الدعوة، النصيحة

(١) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ٥١/ ٣٠٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢١/ ١٦٧، رقم ١٣٥٣١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٨٧، رقم ٥٦٥٤ لفظ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه».
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٤٦، رقم ١٣٠٥٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٤٧، رقم ٢٢٤٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات، ١/ ٢٣٦، رقم ٢٨٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٨/ ١٠، رقم ٦٠١٠.



عناصر الموضوع

مفهوم العجب

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ع ج ب) تدل على معنيين رئيسين:

الأول: الكبر واستكبار للشيء.

الثاني: خِلقَة من خِلَقِ الحيوان.

ويقال للمتكبر: معجب بنفسه، ويقال للأمر المستعظم: أمرٌ عجيب[(١)].

قال الراغب الأصفهاني: «العجب والتعجب: حالةٌ تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولهذا قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني رحمه الله: «العجب: تغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله»[(٣)].

وقال الكفوي رحمه الله: «العجب، بفتحتين: روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء»[(٤)].

يقول الباحث: بعد الاطلاع على أقوال العلماء في معنى العجب نستطيع أن نقول بأن العجب هو: حالة تصيب الإنسان من الاستعظام والذهول عند رؤيته لشيء خرج عن العادة والمألوف.

فالعجب في معنييه: اللغوي والاصطلاحي يدول على استعظام الشيء عند رؤيته.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٣٤.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٨٠، مختار الصحاح، الرازي ص٢٠٠.

(٢) المفردات ص٥٤٧.

(٣) التعريفات ص١٤٧.

(٤) الكليات ص٦٥٥.

العجب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عجب) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(٢٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾ [الصافات:١٢]
الفعل المضارع	٨	﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:٥]
صيغة المبالغة	١	﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥]
المصدر	٥	﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس:٢]
الصفة المشبهة	٢	﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾ [هود:٧٢]

وجاء العجب في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الاستعظام: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] أي: عجبت من إنكارهم البعث لشدة تحققك بمعرفته[٣].

الثاني: الكريم الشريف: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

أي: كريمًا شريفًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٤٤٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٣٨.

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٢٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الذهول:

الذهول لغة:

أصل مادة (ذهل) تدل على شغل عن شيء بذعر أو غيره، ذهلت عن الشيء أذهل، إذا نسيته أو شغلت به، وأذهلني عنه كذا[(١)].

الذهول اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «الذهول: شغل يورث حزنًا ونسيانًا»[(٢)].

وقال الكفوي: «الذهول هو عدم استثبات الإدراك حيرة ودهشة»[(٣)].

الصلة بين الذهول والعجب:

هناك صلة وثيقة بين الذهول والعجب، إذ أن الذهول هو حالة ناتجة عن العجب.

٢ العجب:

العُجب لغة:

العجب بالضم: الزهو والكبر، والمعجب: الإنسان المعجب بنفسه أو بالشيء[(٤)].

العُجب اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «العجب: هو عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبة لا يكون مستحقًا لها»[(٥)].

وقيل: «العجب: مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه، من فعل، أو ترك، أو اعتقاد»[(٦)].

الصلة بين العَجَب والعُجْب:

العُجب: تصور استحقاق الشخص رتبة لا يكون مستحقًا لها، أما العَجَب: فهو تغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٦٣.
(٢) المفردات ص ٣٣٢.
(٣) الكليات ص ٥٠٦.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢، تاج العروس، الزبيدي، ٣/ ٣١٨.
(٥) التعريفات، ص ١٤٧.
(٦) البحر الزخار، ٦/ ٤٩٠.

التعجب وصوره

التعجب له صور كثيرة ومتعددة، منها ما يكون في العقائد، ومنها ما يكون في الأمور الخارقة للعادة، ومنها ما يكون في الأخلاق والأعمال.

أولًا: صور التعجب في مسائل العقيدة:

١ . التعجب من وحدانية الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية وما سبقها من آيات روايات منها: أن جماعة من قريش اجتمعوا في نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب، لنكلمه في شأن ابن أخيه، فلما دخلوا على أبي طالب قالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه، فقال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قريش، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك، فقال صلى الله عليه وسلم: **(يا عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟)** قال: وإلام تدعوهم؟ قال: **(أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم)**، فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينها لك وعشرة أمثالها، فقال صلى الله عليه وسلم: **(تقولون: لا إله إلا الله)**، فنفر أبو جهل وقال: سلنا غير هذا، فقال صلى الله عليه وسلم: **(لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي، ما سألتكم غيرها)**، فقاموا غضابا، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي أرسلك بهذا[1].

قال طنطاوي: «والاستفهام للإنكار، أي: أجعل محمد صلى الله عليه وسلم الآلهة المتعددة، إلهًا واحدا، وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: إن هذا الذي طلبه منا، ودعانا إليه، لشيء قد بلغ النهاية في العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل، وعجابٌ أبلغ من عجيب، فلفظ عجابٌ صيغة مبالغة سماعية.

وقد حكاها سبحانه عنهم للإشعار بأنهم كانوا يرون- لجهلهم وعنادهم- أن ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو شيء قد تجاوز الحد في العجب والغرابة، واسم الإشارة يعود إلى جعله صلى الله عليه وسلم الآلهة إلهًا واحدا، لأنهم يرون- لانطماس بصائرهم-

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٦.

أن ذلك مخالف مخالفة تامة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام، وما كان مخالفا لما ورثوه عن آبائهم فهو- في زعمهم- متجاوز الحد في العجب»[1].

٢. التعجب من عبادة غير الله.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦].

الاستفهام في قوله: ﴿ أَتَعْبُدُونَ ﴾ لإنكار واقعهم والتعجيب مما وقع منهم، وتوبيخهم على جهلهم وغفلتهم، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الضالين من النصارى وأشباههم في الكفر والشرك قل لهم: أتعبدون معبودات غير الله تعالى هذه المعبودات وأشباههم في الكفر والشرك، لا تملك لكم ضرًّا، كالمرض والفقر، ولا تملك أيضًا أن تنفعكم بشيء من النفع كبسط الرزق وغير ذلك مما أنتم في حاجة إليه[2].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

بعدما وقع من إبراهيم عليه السلام تحطيم الأصنام التي كان يعبدها قومه، جاؤوه مسرعين إليه وهم في قمة الغضب، فلما رآهم إبراهيم عليه السلام لم يأبه بهم، بل رد عليهم ردًّا منطقيًّا سليمًا ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: قال لهم موبخا ومؤنبًا ومتعجبًا: أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها وتقطعونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم، وتتركون عبادة الله تعالى الذي خلقكم وخلق الذي تعملونه من الأصنام وغيرها[3].

٣. التعجب من بشرية الرسل.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦].

يبين سبحانه الأسباب التي أدت إلى سوء عاقبة الكافرين، وما أصابهم من هلاك ودمار، أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالآيات البينات، وبالمعجزات الواضحات، الدالة على صدقهم، فما كان من هؤلاء الأقوام إلا أن أعرضوا عن دعوة الرسل، وقال كل قوم منهم لرسولهم على سبيل الإنكار والتكذيب والتعجب: أبشر مثلنا يهدوننا إلى الحق والرشد؟!!، فما كان منهم إلا الكفر بسبب هذا القول الفاسد[4].

٤. التعجب من نزول الوحي على البشر.

قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٢/ ١٣٣.
(٢) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي، ٤/ ٣٧٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٠.
(٣) انظر: روح البيان، الألوسي ٧/ ٤٧١.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٤٥٥.

﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

معنى الآية الكريمة: أبلغ الجهل وسوء التفكير بمشركي مكة ومن على شاكلتهم، أن كان إيحاؤنا إلى رجل منهم يعرفهم ويعرفونه لكي يبلغهم الدين الحق، أمرًا عجبًا، يدعوهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه صلى الله عليه وسلم حتى لكأن النبوة في زعمهم تتنافى مع البشرية، إن الذي يدعو إلى العجب حقًّا هو ما تعجبوا منه؛ لأن الله تعالى اقتضت حكمته أن يجعل رسله الى الناس من البشر؛ لأن كل جنس يأنس لجنسه، وينفر من غيره، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته[1].

قال الزمخشري رحمه الله: «فإن قلت: فما معنى اللام في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ وما الفرق بينه وبين قولك: كان عند الناس عجبا؟

قلت: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها. ونصبوه علمًا لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في «عند الناس» هذا المعنى، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلًا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولًا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم البعث، وينذر بالنار ويبشر بالجنة، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرًا مثلهم.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضًا؛ لأن الله تعالى إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال لما اختير له من النبوة، والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: ٣٧].

والبعث للجزاء على الخير والشر، هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبًا إنما العجب والمنكر في العقول، تعطيل الجزاء»[2].

وقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩].

والاستفهام في هذه الآية للإنكار والتوبيخ، أي: أفمن هذا القرآن وما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات تتعجبون،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٢٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٢٧.

وتنكرون كونه من عند الله تعالى[1].

٥. التعجب من كون الرسول من القوم أنفسهم.

قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ مأخوذ من العجب، وهو تغير في النفس من أمر لا ترتاح إليه، وتخفى لديها أسبابه، والمعنى: وعجب هؤلاء الكافرون من مجيء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك، ويأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وقال هؤلاء الكافرون عندما دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الدين الحق ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: قالوا: هذا الرسول ساحر؛ لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها، وكذاب فيما يسنده إلى الله عز وجل من أنه سبحانه أرسله إلينا[2].

٦. التعجب من البعث بعد الموت.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث- لأن من شاهد ما عدد سبحانه من الآيات الدالة على قدرته، أيقن بأن من قدر على إنشائها، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره والله تعالى لا يتعجب، ولا يجوز عليه التعجب، لأنه- أي التعجب- تغير النفس بما تخفى أسبابه، وذلك في حقه تعالى محال، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون»[3].

وعليه فإن معنى الآية يكون وإن تعجب من شيء- أيها الرسول الكريم- فاعجب من قول أولئك المشركين: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أإذا صرنا ترابا وعظاما نخرة بعد موتنا أإنا بعد ذلك لنعاد إلى الحياة مرة أخرى من جديد، والاستفهام للإنكار، لاستبعادهم الشديد إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى لمحاسبتهم على أعمالهم[4].

٧. التعجب من أحداث الساعة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ٣].

والمراد بالإنسان في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ جنسه فيشمل المؤمن والكافر، والاستفهام: المقصود به التعجب مما حدث من أهوال، والمعنى: وقال كل إنسان على سبيل الدهشة والحيرة والتعجب، أي شيء حدث للأرض، حتى جعلها تضطرب هذا الاضطراب الشديد[5].

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٢٠٣.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢١٩٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٨٤.
(٤) انظر: الصحيح المسبور، حكمت ياسين، ٣/ ١٠٥.
(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم

٨. التعجب من القرآن المعجز.

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

أي: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم للناس، إن الله تعالى قد أخبرك عن طريق أمين وحيه جبريل: إن جماعة من الجن قد استمعوا إليك وأنت تقرأ القرآن، فقالوا -على سبيل الفرح والإعجاب بما سمعوا-: إنا سمعنا من الرسول صلى الله عليه وسلم قرآنًا عجبًا، أي: إنا سمعنا قرآنا جليل الشأن، بديع الأسلوب، عظيم القدر، ووصفهم للقرآن بكونه قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد يدل على تأثرهم به تأثرًا شديدًا، وعلى إعجابهم العظيم بنظمه المتقن، وأسلوبه الحكيم، ومعانيه البديعة، ولذا أعلنوا إيمانهم به بدون تردد[١].

ثانيًا: صور التعجب في الأمور الخارقة للعادة:

١. الإنجاب عن عقم وكبر.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

عندما تصل المرأة سن اليأس ولم يكن لها ولد، ثم تأتيها مثل هذه البشارة يهتز كيانها، ويزداد عجبها، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

والمراد بها هنا: التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك، وهي كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يدهشن له، ويتعجبن منه، أي: قالت بدهشة وعجب عند ما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد: يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ أي: زوجي إبراهيم شيخًا كبيرًا متقدمًا في السن، وقد رد عليها الملائكة بقولهم: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: أتستبعدين على قدرة الله تعالى أن يرزقك الولد وأنت وزوجك في هذه السن المتقدمة؟ لا أنه لا ينبغي لك أن تستبعدي ذلك، لأن قدرة الله لا يعجزها شيء، فالاستفهام هنا المراد به إنكار تعجبها واستبعادها البشارة، وإزالة أثر ذلك من نفسها إزالة تامة[٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ

الخطيب، ١٦/ ١٦٥٠.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٦٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١١٨، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١١٥.

﴿ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: ٨].

قال زكريا عليه السلام مخاطبًا ربه بعد أن بشره بابنه يحيى: يا رب كيف يكون لي غلام، وحال امرأتي أنها كانت عاقرًا في شبابها وفي شيخوختها، وحالي أنا أنني قد بلغت من الكبر عتيًّا، أي: قد تقدمت في السن تقدمًا كبيرًا[١].

قال طنطاوي: «فإن قيل: ما المراد باستفهام زكريا عليه السلام مع علمه بقدرة الله تعالى على كل شيء؟ فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار؛ لأنه لم يكن يعلم أن الله تعالى سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها، ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته، ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتي الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته. وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله تعالى؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء»[٢].

٢. الإنجاب من غير زوج.

قال تعالى: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٠].

هذا رد مريم عليها السلام على جبريل عليه السلام عندما جاء ليخبرها بأنه سيهب لها بإذن الله عز وجل غلامًا زكيًّا، فتقول مريم عليها السلام في تعجب شديد ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي﴾ قالت على سبيل التعجب مما سمعته: كيف يكون لي غلام، والحال أنى لم يمسني بشر من الرجال عن طريق الزواج الذي أحله الله تعالى، ولم أك في يوم من الأيام بغيًا؟! أي: فاجرة تبغي الرجال، أو يبغونها للزنا بها[٣].

وقال الجمل في حاشيته: «وإنما تعجبت مما بشرها به جبريل؛ لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا بعد الاتصال برجل، فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداءً، كيف وقد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله تعالى من غير أب أو أم»[٤].

٣. قصة أصحاب الكهف.

قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

قال الإمام الرازي: «اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف، وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان، فقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٣٨٠.
(٢) التفسير الوسيط، ٩/ ١٨.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٢/ ١٨١.
(٤) حاشية الجمل على الجلالين، ٣/ ٥٦.

﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ لا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب؛ فإن من كان قادرًا على خلق السموات والأرض، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن، ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزًا خالية من الكل، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم؟!»[1].

يقول الباحث: وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة، بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست شيئًا عجبًا بالنسبة لقدرة الله عز وجل.

٤. حوت موسى ويوشع عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

قال يوشع لموسى عليهما السلام تذكر وانتبه واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الحوت، أرأيت ما دهاني في وقت أن أوينا ولجأنا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين، فإني هناك نسيت أن أذكر لك ما شاهدته منه من أمور عجيبة، فقد عادت إليه الحياة، ثم قفزت في البحر، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذي طلبه منه موسى، للإشعار بأن الغداء الذي طلبه موسى منه، هو ذلك الحوت الذي فقداه، وما أنساني تذكيرك بما حدث من الحوت إلا الشيطان الذي يوسوس للإنسان، بوساوس متعددة، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور الهامة، وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي: نسيت أن أخبرك بأن الحوت عند ما أوينا إلى الصخرة عادت إليه الحياة، واتخذ طريقه في البحر اتخاذًا عجيبًا، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر في الماء، والماء من حوله كالقنطرة التي تنفذ منها الأشياء[2].

قال الرازي: قوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ فيه وجوه:

الأول: أن قوله ﴿عَجَبًا﴾ صفة لمصدر محذوف، كأنه قيل: واتخذ سبيله في البحر اتخاذا عجبا، ووجه كونه عجبا، انقلابه من المكتل وصيرورته حيًّا وإلقاء نفسه في البحر.

الثاني: أن يكون المراد منه ما ذكرنا من أنه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسراب.

الثالث: قيل: إنه تم الكلام عند قوله واتخذ سبيله في البحر ثم قال بعده: عجبًا والمقصود منه تعجب يوشع من تلك الحالة العجيبة التي رآها، ثم من نسيانه لها»[3].

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٤٢٨.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٢١.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٨٠.

ثالثًا: صور التعجب في الأخلاق والأعمال:

١ . التعجب من ارتكاب الفواحش.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٥].

قال لوط عليه السلام لقومه متعجبًا من فعلهم أتأتون الفاحشة التي لم يسبقكم إليها أحد، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وأنتم تبصرون بأعينكم أنها تتنافى مع الفطرة السوية حتى بالنسبة للحيوان الأعجم فأنتم ترون وتشاهدون أن الذكر من الحيوان لا يأتي الذكر، وإنما يأتي الأنثى، حيث يتأتى عن طريقها التوالد والتناسل وعمارة الكون، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حالية المقصود بها زيادة تبكيتهم وتوبيخهم؛ لأنهم يشاهدون تنزه الحيوان عنها، كما يعلمون سوء عاقبتها، وسوء عاقبة الذين خالفوا أنبياءهم من قبلهم، وقوله سبحانه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ تأكيدٌ للإنكار السابق، وتوضيح للفاحشة التي كانوا يأتونها، أي: أإنكم -أيها الممسوخون في فطرتكم وطبائعكم- لتصبون شهوتكم التي ركبها الله تعالى فيكم في الرجال دون النساء اللاتي جعلهن الله تعالى محل شهوتكم ومتعتكم[(١)].

قال الألوسي: «والجملة الكريمة تثنية للإنكار، وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام وتحلية الجملة بِحَرْفَيِّ التأكيد، للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد، لكمال شناعته، وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية، لزيادة التقبيح والتوبيخ»[(٢)].

٢ . التعجب من مخالفة القول العمل.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

كيف يليق بكم يا معشر اليهود، وأنتم تأمرون الناس بأمهات الفضائل، وألوان الخيرات، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون به غيركم، وأنتم مع ذلك تقرؤون توراتكم، وتدركون أي عقوبة أليمة لمن يأمر الناس بالخير وينسى نفسه، أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه الذي ترديتم فيه، ويحذركم من سوء عاقبته، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مزيد تقبيح لشأنهم، ذلك أن قراءتهم لكتبهم أبطلت اعتذارهم بالجهل الذي قد يتشبث به بعض الفاسقين

---

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٣٦٨، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦١٣.

(٢) روح البيان ١٩/ ٢١٦.

على أمر الله عندما ينكر الناس عليهم فسوقهم، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أسمى أنواع الهداية والإرشاد السليم، فإن من ألطف الأساليب في الخطاب والتوجيه، أن يكون للموجه إليه النصح صفة من شأنها أن تسوقه إلى خير، ولكنه ينساق إلى غيره من أنواع الشرور فيقع فعله من الناس موقع الدهشة والغرابة والتعجب، فيذكر له مسدي النصح تلك الصفة في معرض الاستفهام بغية تذكيره بأن ما صدر منه لا يلتقي مع ما عرف عنه[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

والاستفهام في هذه الآية للإنكار والتوبيخ والتعجب من الذي يقول قولًا لا يؤيده فعله؛ لأن هذا القول إما أن يكون كذبًا، وإما أن يكون خُلفًا للوعد، وكلاهما يبغضه الله تعالى، فهذا نداء من الله تعالى يا من آمنتم بالله واليوم الآخر، لماذا تقولون قولًا، تخالفه أفعالكم، بأن تزعموا بأنكم لو كلفتم بكذا لفعلتموه، فلما كلفتم به قصرتم فيه، أو أن تقولوا بأنكم فعلتم كذا وكذا، مع أنكم لم تفعلوا ذلك[2].

قال الزمخشري رحمه الله: «ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم وهذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه، وقصد في «كبر» التعجب من غير لفظه، ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله وأسند إلى أن تقولوا، ونصب مقتًا على التمييز، للدلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه، لفرط تمكن المقت منه.

واختير لفظ المقت، لأنه أشد البغض وأبلغه، ومنه قيل: نكاح المقت- وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه-، وإذا ثبت كبر مقته عند الله، فقد تم كبره وشدته، وانزاحت عنه الشكوك»[3].

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١/ ١١٢، بيان المعاني، العاني ٥/ ٣٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٧٨.
(٣) الكشاف ٤/ ٥٢٣.

أنواع الإعجاب

الإعجاب له أنواع متعددة، كالإعجاب بالأقوال والإعجاب بالهيئات والإعجاب بالكثرة، هذا سيكون محور حديثنا في هذا المبحث.

أولًا: الإعجاب بالأقوال:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

ومن الناس فريق يروقك منطقهم، ويعجبك بيانهم، ويحسن عندك مقالهم، فأنت معجب بكلامهم الحلو الظاهر، المر الباطن، وأنت في هذه الدنيا لأنك تأخذ الناس بظواهرهم، أما في الآخرة فلن ﴿يُعۡجِبُكَ﴾ أمرهم لأنهم ستنكشف حقائقهم أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبهم عقابا أليما؛ لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح. وعلى هذا التفسير يكون قوله: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ متعلقًا بيعجبك.

وبعضهم يجعل قوله: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ متعلقًا بالقول، فيكون المعنى عليه ومن الناس فريق يعجبك قولهم إذا ما تكلموا في شؤون الدنيا ومتعها؛ لأنها منتهى آمالهم، ومبلغ علمهم، وأصل حبهم، ومن أحب شيئا أجاد التعبير عنه، أما الآخرة فهم لا يحسنون القول فيها، لأنهم لا يهتمون بها، بل هم غافلون عنها، ومن شأن الغافل عن شيء ألا يحسن القول فيه[1].

ويبدو أن تعلق الجار والمجرور بـ﴿يُعۡجِبُكَ﴾ أرجح، لأنه يتفق مع السياق حيث إن سياق الحديث في شأن الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويخدعون الناس بمعسول بيانهم مع أن نفوسهم مريضة، وليس في شأن الذين يحسنون الحديث عن شؤونها المختلفة، بل إن بعض الذين يحسنون الحديث في شؤون الدنيا لم يضيعوا أخراهم وإنما عمروها بالعمل الصالح، فهم جامعون بين حسنتي الدنيا والآخرة.

ثانيًا: الإعجاب بالهيئات:

قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢١].

أي: ولأنثى رقيقة مؤمنة مع ما بها من الرق وقلة الجاه والجمال خير في التزوج بها من امرأة حرة مشركة ولو أعجبتكم بجمالها ونسبها وغير ذلك من منافع دنيوية، لأن ما يتعلق بالمنافع الدينية يجب أن يقدم على المنافع الدنيوية، ولأن الزواج ارتباط روحي بين قلبين، ومن العسير أن يتم هذا الترابط بين قلب يخلص لله في عبادته، وقلب لا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٢٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٦٥.

يدين بذلك[1].

قال طنطاوي: «وصدرت الجملة بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغة في الحمل على الانزجار، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه أن يجعلوا الدين أساس رغبتهم في الزواج»[2]، فقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)**[3].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي: يعجب الخبراء بالزراعة لقوته وحسن هيئته، والمعنى: أن صفة المؤمنين في الإنجيل، أنهم كالزرع، يظهر في أول أمره رقيقا ضعيفا متفرقا، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد، وتعجب جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، كانوا في أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة، حتى بلغوا ما بلغوا في ذلك[4].

قال الزمخشري: «وهذا مثل ضربه الله تعالى لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده، ثم قواه الله تعالى بمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها، حتى يعجب الزراع»[5].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي: هذه الحياة الدنيا حالها وصفتها ومثلها كمثل مطر أعجب الكفار، وَرَاقَهُمْ وَسَرَّهُمْ ما ترتب على هذا المطر، من نبات جميل نبت من الأرض بعد هطول الغيث عليها، ثم يجف وييبس بعد خضرته، ثم يكون فتاتًا هشيمًا متكسرًا متحطمًا بعد

(١) انظر: تيسير التفسير، القطان ١/ ١٢٥.
(٢) التفسير الوسيط، الطنطاوي ١/ ٤٨٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم ٥٠٩٠، ٧/ ٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم ١٤٦٦، ٢/ ١٠٨٦.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٥١٠.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٤٧.

يبسه، تعصف به الرياح[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

يرسم سبحانه للمنافقين صورة تجعل كل عاقل يستهزئ بهم، ويحتقرهم، ويسمو بنفسه عن الاقتراب منهم، والمعنى: وإذا رأيت- أيها الرسول الكريم- هؤلاء المنافقين، أعجبتك أجسامهم، لكمالها وحسن تناسقها، وإن يقولوا قولا حسبت أنه صدق؛ لفصاحته، وأحببت الاستماع إليه لحلاوته، فهم أجسام تعجب، وأقوال تغري بالسماع إليها، ولكنهم قد خلت قلوبهم من كل خير، وامتلأت نفوسهم بكل الصفات الذميمة[(٢)].

قال القرطبي: «قال ابن عباس: كان عبدالله بن أبي، وسيمًا جسيمًا صحيحًا صبيحًا، ذلق اللسان، فإذا قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم مقالته»[(٣)].

ثالثًا: الإعجاب بالكثرة:

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

قل- يا محمد- للناس: إنه لا يستوي عند الله عز وجل ولا عند العقلاء القبيح والحسن من كل شيء، لأن الشيء القبيح- في ذاته أو في سببه أو في غير ذلك من أشكاله- بغيض إلى الله وإلى كل عاقل، وسيكون مصيره إلى الهلاك والبوار، أما الشيء الطيب الحسن فهو محبوب من الله ومن كل عاقل، ومحمود العاقبة دنيا ودينا.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ زيادة في التنفير من الشيء الخبيث، وحض على التمسك بما هو طيب، أي: لا يستوي في ميزان الله ولا في ميزان العقلاء الخبيث والطيب، حتى ولو كان الفريق الخبيث كثير المظهر، براق الشكل، تعجب الناظرين هيئته فلا تغتر به أيها العاقل، ولا تؤثر في نفسك كثرته وسطوته؛ فإنه مهما كثر وظهر وفشا، فإنه سيئ العاقبة، سريع الزوال، لذته تعقبها الحسرة، وشهوته تتلوها الندامة، وسطوته تصحبها الخسارة والكراهية، وطريقه المليئة بالدنس والقذر يجب أن يوصد أبوابها الأخيار الشرفاء، أما الفريق الطيب أو الشيء الطيب فهو محمود العاقبة، لذته الحلال يباركها الله، وثماره الحسنة تؤيدها شريعته وتستريح لها العقول السليمة، والقلوب النقية من كل دنس وباطل وطريقه المستقيم- مهما قل- سالكوه- هو الطريق الذي يوصل إلى كل خير وفلاح[(٤)].

---

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٣٢٦.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٩٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير،

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

أي: ويوم غزوة حنين، وهو اليوم الذي راقتكم فيه كثرتكم فاعتمدتم عليها حتى قال بعضكم: لن نغلب اليوم من قلة، ولكن هذه الكثرة التي أعجبتم بها لم تنفعكم شيئًا من النفع في أمر العدو، بل انهزمتم أمامه في أول الأمر، وضاقت في وجوهكم الأرض مع رحابتها وسعتها بسبب شدة خوفكم، ثم وليتم الكفار ظهوركم منهزمين لا تلوون على شيء[1].

[انظر: الغرور: التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد]

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الدعوة، الغرور

٣/ ٢٠٣، التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٧٤.

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ١/ ٨٧٠.





عناصر الموضوع

المجلد الثالث والعشرون

مفهوم العدل

أولاً: المعنى اللغوي:

العدل مصدر عدل يعدل عدلًا، وهو مأخوذ من مادة «ع د ل» التي تدل على معنيين متقابلين: أحدهما يدل على الاستواء، والآخر على الاعوجاج[1]، ويرجع لفظ العدل هنا إلى المعنى الأول، وإذا كان العدل مصدرًا، فمعناه: خلاف الجور، وهو ما قام في النفوس أنه مستقيم، وقد يستعمل هذا المصدر استعمال الصفات، ويرادفه في معناه المصدري العدالة والعدولة والمعدلة والمعدلة، يقال: فلان من أهل المعدلة، أي: من أهل العدل، وعدل عن الطريق عدولًا مال عنه وانصرف[2]. والعَدل والعِدل والعَديل: النظير والمثيل[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج العدل عن معنى الاستقامة على الحق، العدل هو الحكم بالحق، أو فصل الحكومة على ما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا الحكم بالرأي المجرد[4].

وقيل: «بذل الحقوق الواجبة، وتسوية المستحقين في حقوقهم»[5].

وقال ابن حزم: «هو أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه»[6].

وقال الجرجاني: «العدل: الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط، فالعدالة في الشريعة: عبارة عن الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب مما هو محظور دينًا»[7].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي فكلاهما يدلان على الاستواء والاستقامة، إلا أن المعنى الاصطلاحي خص بالاستقامة على الحق.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٤٦، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٥١.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ١١، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٦٦٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٠٦، تاج العروس، الزبيدي ٢٩/ ٤٤٤.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٢٣.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٨٠.
(٥) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، السعدي ص٢٥٣.
(٦) مداواة النفوس ص٨١.
(٧) انظر: التعريفات ص١٥٣.

العدل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عد ل) في القرآن الكريم (٢٨) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٧) مرة[1].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١١	﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾[الأنعام:٧٠]
الفعل الأمر	٢	﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[المائدة:٨]
المصدر	١٤	﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[النحل:٩٠]

وجاء العدل في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[2]:

الأول: الفداء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ [البقرة: ٤٨] يعني: فداء.

الثاني: القيمة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾ [المائدة: ٩٥] يعني: قيمة ذلك بصيام.

الثالث: الشرك: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] يعني: يشركون.

الرابع: الإنصاف: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: ٨].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٤٨-٤٤٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٤٢-٣٤٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ المساواة:

المساواة لغة:

مصدر سوي، والسوى: العدل، والسواء من المساواة تقول: بنو فلان سواء، إذا استووا في خير أو شر، فإذا قلت: سواسية لم يكن إلا في شر[(١)].

المساواة اصطلاحًا:

اتفاق الشيئين في الكمية[(٢)].

الصلة بين العدل والمساواة:

إن المساواة هي الغاية التي تسعى العدالة إلى تحقيقها، وهي الغاية المرجوة منها، والعدل -في مجال الحكم- هو الحكم بالسوية[(٣)]، ولما كانت العدالة خلقًا أو هيئة نفسانية تصدر عنها المساواة؛ فقد اقترن الأمران، وارتبطا ارتباطًا وثيقًا؛ لأن العادل من شأنه أن يساوي بين الأشياء التي هي غير متساوية؛ ولما كان الأمر كذلك، فإن كليهما قد يستعمل استعمال الآخر تسامحًا[(٤)]، ولكنهما غالبًا ما يستعملان معًا.

٢ الإنصاف:

الإنصاف لغة:

إعطاء الحق، وأنصف الرجل صاحبه إنصافًا، أي: عدل، وأنصف: إذا أخذ الحق، وأعطى الحق، والنصفة: اسم الإنصاف، وتفسيره: أن تعطيه من نفسك النصف، أي: تعطيه من الحق كالذي تستحق لنفسك. ويقال: انتصفت من فلان أخذت حقي كاملًا[(٥)].

الإنصاف اصطلاحًا:

قال المناوي: «الإنصاف: هو العدل في المعاملة بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله، وهو والعدل توأمان نتيجتهما علو الهمة، وبراءة

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٢٣٧.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص٨٤٣.
(٣) تهذيب الأخلاق، ابن مسكويه ص٩٨.
(٤) تهذيب الأخلاق، ابن مسكويه ص١٠٧.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٣٢.

الذمة باكتساب الفضائل، وتجنب الرذائل»[(١)].

الصلة بين العدل والإنصاف:

«إن الإنصاف إعطاء النصف، والعدل يكون في ذلك وفي غيره، ألا ترى أن السارق إذا قطع قيل: إنه عدل عليه، ولا يقال: إنه أنصف، وأصل الإنصاف: أن تعطيه نصف الشيء وتأخذ نصفه من غير زيادة ولا نقصان، وربما قيل: أطلب منك النصف، كما يقال أطلب منك الإنصاف»[(٢)].

٣ القسط:

القسط لغة:

القسط بالكسر: العدل، يقال أقسط يقسط فهو مقسطٌ: إذا عدل، وقسط يقسط فهو قاسطٌ: إذا جار، والقسط أيضًا: مكيال، وهو نصف صاع[(٣)].

القسط اصطلاحًا:

«القسط بالكسر، النصيب بالعدل»[(٤)].

الصلة بين العدل والقسط:

إن القسط هو: العدل البين الظاهر، ومنه سمي المكيال قسطًا، والميزان قسطًا؛ لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرًا، وقد يكون من العدل ما يخفى ولهذا قلنا: إن القسط هو النصيب الذي بينت وجوهه، وتقسط القوم الشيء تقاسموا بالقسط[(٥)].

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٦٤.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٦٢٦، الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٥٢.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص٢٧١.
وانظر: الكليات، الكفوي ص٧٣٣.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٤.

الحث على العدل

تنوعت أساليب القرآن في الحث على العدل، وهي كما يأتي:

أولًا: أسلوب الطلب:

هناك آيات كثيرة تأمر بالعدل، جملة وتفصيلًا في مجالات كثيرة، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: وليكتب كتاب الدين إلى الأجل المسمى بين الدائن والمدين ﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ يعني: بالحق والإنصاف في كتابه الذي يكتبه بينهما، بما لا يتحيف ذا الحق حقه، ولا يبخسه، ولا يوجب له حجة على من عليه دينه فيه بباطل، ولا يلزمه ما ليس عليه»[(١)].

وقال الماوردي: «وعدل الكاتب ألا يزيد فيه إضرارًا بمن هو عليه، ولا ينقص منه، إضرارًا بمن هو له»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال الزجاج: «ومعنى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: الذي يقوم بأمره؛ لأن الله أمر ألا نؤتي السفهاء الأموال، وأمر أن يقام لهم بها، فقال: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥].

فوليه الذي يقوم مقامه في ماله لو كان مميزًا»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾[النساء: ١٢٧].

وعن عائشة رضي الله عنها في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

قالت: «هذا في اليتيمة التي تكون عند الرجل لعلها أن تكون شريكته في ماله، وهو أولى بها، فيرغب عنها أن ينكحها؛ فيعضلها لمالها، ولا ينكحها غيره كراهية أن يشركه أحد في مالها»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

في هذه الآية يحذر المولى عز وجل النفوس الضعيفة التي تطبق ميزان العدل، وتشهد بالحق على الآخرين، وإذا كانت

(١) جامع البيان ٦/ ٥١.
(٢) النكت والعيون ١/ ٣٥٥.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٦٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي، ٧/ ١٦، رقم ٥١٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، ٤/ ٢٣١٥، رقم ٣٠١٨.

القضية تمسهم أو تمس أقاربهم فسرعان ما يميلون عن العدل، ويزيغون عن الحق.

قال ابن كثير: «يأمر الله تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

في هذه الآية الكريمة إشارة إلى الفضل مع العدل، ففيما يتعلق بالعدل فإن الإحسان فوقه؛ لأنه إذا كان العدل يعني أن يأخذ الإنسان ما له، ويعطي ما عليه؛ فإن الإحسان يعني أن يأخذ الإنسان أقل مما له، وأن يعطي أكثر مما عليه، فالإحسان بذلك زائد على العدل، وإذا كان تحري العدل من الواجبات؛ فإن تحري الإحسان ندب وتطوع، وكلاهما مأمور به، فالعدالة لابد منها لضبط الأمور، وإنصاف بعضهم من بعض.

وعندما سأل عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب القرظي: صف لي العدل، قال: بخ، سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أبًا، ولكبيرهم ابنًا، وللمثل أخًا، وللنساء كذلك! وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، ولا تضربن في غضبك سوطًا واحدًا؛ فتكون من العادين، ذاك وصف العدل.

وقال ابن رجب الحنبلي: «فجوامع الكلم التي خص بها النبي صلى الله عليه وسلم نوعان: أحدهما: ما هو في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال الحسن البصري: «لم تترك هذه الآية خيرًا إلا أمرت به، ولا شرًا إلا نهت عنه»[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

هذا أمر بالعدل المطلق في الأحكام والأعمال، وهو الأصل العام لجميع الأحكام بين الناس[3].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

قال الطبري: «السديد من الكلام: هو العدل والصواب»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

هذه الآية الكريمة تبين حرص الدعوة الإسلامية على بناء مجتمع العدل والقوة، وتوضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر يقوم على العدل والقوة، فالكتاب

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٩٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ص٣.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٤٧٧.

(٤) جامع البيان ٧/ ٢٦.

والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل، وتكفل استمراره، والعدل الشامل يمتد إلى المسلم والذمي والكافر، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، والرجال والنساء، حيث تتحدد حقوق الجميع وفق موازين العدل دون احتكار، أو استغلال، أو استئثار، أو ظلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أخبر الله في كتابه أنه أنزل الكتاب والحديد؛ ليقوم الناس بالقسط، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] الآية.

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بتولية ولاة الأمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور من طاعة الله تعالى»[(١)].

ثانيًا: أسلوب النهي عن ضده:

ضد العدل: الظلم، وأصله: وضع الشيء في غير موضعه، وكذلك ذكر غير واحد، قالوا: والعرب تقول: من أشبه أباه فما ظلم، أي: ما وضع الشبه في غير موضعه.

وأجمع العلماء سلفًا وخلفًا على تحريم الظلم، -ولو كان شيئًا يسيرًا-، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من اقتطع حق امرئٍ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة) فقال له رجلٌ: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: (وإن قضيبًا من أراكٍ)**[(٢)].

قال الزرقاني: «لئلا يتهاون بالشيء اليسير، ولا فرق بين قليل الحق وكثيره في التحريم، أما في الإثم؛ فالظاهر أنه ليس من اقتطع القناطير المقنطرة من الذهب والفضة كمن اقتطع الدرهم والدرهمين، وهذا خرج مخرج المبالغة في المنع، وتعظيم الأمر وتهويله»[(٣)]. وقال الراغب الأصفهاني: «الظلم هو الانحراف عن العدل؛ ولذلك حد بأنه وضع الشيء في غير موضعه المخصوص به، وقد يسمى هذا الانحراف جورًا، ولما كانت العدالة تجري مجرى النقطة من الدائرة؛ فإن تجاوزها من جهة الإفراط عدوان وطغيان، والانحراف عنها في بعض جوانبها جور وظلم، والظلم أعم هذه الألفاظ استعمالًا»[(٤)].

«وقال أبو بكر بن الأنباري: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، يقال: ظلم الرجل

(١) الحسبة ص١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، ١/ ١٢٢، رقم ١٣٧.

(٣) شرح الموطأ ٤/ ٥.

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب ص٢٥٣.



سقاءه، إذا سقا منه قبل أن يخرج زبده، قال الشاعر[1]:

وصاحب صدق لم تنلني شكاته

ظلمت وفي ظلمي له عامدًا أجر

أراد بالصاحب: وطب اللبن، وظلمه إياه: أن يسقيه قبل أن يخرج زبده، والعرب تقول: هو أظلم من حية؛ لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه، ويقال: قد ظلم الماء الوادي إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى[2].

وهناك آيات كثيرة قاضية بتحريم الظلم جملة وتفصيلًا، ومنها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال الزمخشري: «البغي: الظلم والكبر، أفرده بالذكر كما قال: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣].

فيه تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهانًا بأن يشرك به غيره»[3].

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: الظلم المجاوز للحد، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله؛ لكونه ذنبًا عظيمًا، كقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾»[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قال الواحدي: «البغي: الكبر والظلم ﴿يَعِظُكُمْ﴾ ينهاكم عن هذا كله، ويأمركم أن تتحاضوا على ما فيه لله رضا؛ لكي تتعظوا»[5].

ولم يقتصر التحريم على ظلم الغير، بل نهانا ربنا سبحانه وتعالى عن ظلم النفس كذلك، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

ومنع سبحانه كل سبب يؤدي إلى الظلم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

---

(١) البيت في لسان العرب ١٢/ ٣٧٥ دون نسبة، وروايته: «لم تربني» بدل «لم تنلني».
وانظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٧٦، الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي ص ٣١٠، أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٦٢٧.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٥.
وانظر: جامع الرسائل لابن تيمية ١/ ١٢٤.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠١.

(٤) فتح القدير ٢/ ٢٢٩.
وانظر: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، صديق حسن خان ص ٣٠١.

(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٣/ ٧٩.

قال الزمخشري: «لبغوا من البغي، وهو الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة، وكفى بحال قارون عبرة»[(١)].

وكذلك هناك آيات كثيرة قاضية بوعيد الله للظالمين، ومنها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل[(٢)].

وتكرير الفعل «يقتلون» للإشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافها في الوقت[(٣)].

قال الطبري: «تأويل الآية إذًا: إن الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون آمريهم بالعدل في أمر الله ونهيه، الذين ينهونهم عن قتل أنبياء الله، وركوب معاصيه»[(٤)].

وقال السعدي: «هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية أشد الناس جرمًا، وأي جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد، ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم وتعزيرهم، وتوقيرهم، ونصرهم، وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضًا الذين يأمرون الناس بالقسط، الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور، ونصحٌ له؛ فقابلوهم شر مقابلة فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها، المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح.

وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم،-قبحهم الله- ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين»[(٥)].

وبين سبحانه وتعالى أن الظالمين لا ينتفعون بالقرآن الكريم؛ لفساد فطرتهم، فقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

(١) الكشاف ٤/ ٢٢٣.
وانظر: روح المعاني، الألوسي ١٣/ ٣٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢٧.
(٢) معاني القرآن، النحاس ١/ ٣٧٥.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٩، روح المعاني، الألوسي ٢/ ١٠٥.
(٤) جامع البيان ٦/ ٢٨٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ١٢٦.

قال قتادة: قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ به ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أنه لا ينتفع به، ولا يحفظه، ولا يعيه[1].

وقال الشعراوي: «لأنهم بظلمهم واستقبالهم فيوضات السماء بملكات سقيمة، وأجهزة متضاربة متعارضة، فلم ينتفعوا بالقرآن، ولم يستفيدوا برحمات الله»[2].

ونهانا ربنا سبحانه وتعالى عن مجرد الميل اليسير إلى من تلبس بأي أنواع الظلم القليل، فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

قال الزمخشري: «تأمل قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾، فإن الركون هو الميل اليسير، وقوله ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل: إلى الظالمين»[3].

وبين المولى أن عاقبة الظالمين وخيمة -وإن أمهلهم-، فقال: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فهذه الآية الكريمة تبين أن الله تعالى يمهل ولا يهمل، وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[4].

وتزداد خيبة الظالم حسب حجم ظلمه ونوعه، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

قال الشنقيطي: «خيبة كل ظالم بقدر ما حل من الظلم»[5].

فعذاب الظالمين ليس عذابًا عاديًا، فوصفه الله عز وجل أنه كبير، فقال: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٣٩.
(٢) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٧١٣.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٣٣.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٥١، وفتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٠١، والمنار، محمد رشيد رضا لمحمد رشيد ١٢/ ١٤٠-١٤٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة)، ٦/ ٧٤، رقم ٤٦٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨٣.
(٥) أضواء البيان ٤/ ١٠١.

وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢][1].

وغير ذلك من الآيات التي تبين حال أهل الظلم وموقفهم بين يدي الله تعالى يوم الفصل والقضاء.

ثالثًا: وصف الله تعالى بالعدل في صفاته وأفعاله:

الله سبحانه وتعالى حكم عدل، يضع الأشياء مواضعها، لا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يناسبه وتقتضيه حكمته وعدله تبارك وتعالى، فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يجزي أحدًا إلا بذنبه، لا يزاد في سيئاته، ولا ينقص من حسناته شيئًا، كما أنه تعالى لا يسوي بين المؤمن والكافر، والصالح والفاجر، بل يجازي كلا بعمله.

فهو سبحانه عدل فيما شرعه من الدين عن الغلو والتقصير إلى التوسط، وخير الأمور أوساطها، وليس لما جاوز العدل حظ من رشد، ولا نصيب من سداد.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٤١].

ومن أسمائه تعالى: العدل[2]، ودليله:

---

(١) من أهل العلم من جعل المقصود بالظلم في مثل هذه الآيات هو الشرك، ومنهم من أطلقه، وأدخل فيه كل أنواع الظلم، وجعل العذاب فيه مراتب.

(٢) اختلف أهل العلم في عده اسمًا لله عز وجل، فجعله د. محمد بن خليفة التميمي في معتقد أهل السنة في أسماء الله الحسنى ص١٧٩ من الأسماء المقيدة لا المطلقة، معللًا أنه لم يصح وروده مطلقًا، ولم يعده من الأسماء الشيخ ابن عثيمين في القواعد المثلى، ولا الشيخ محمد الحمود في النهج الأسمى.
وعده اسمًا الخطابي وابن منده والحليمي والبيهقي وابن العربي والقرطبي وابن الأثير

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «العدل» هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم، وهو في الأصل مصدرٌ سمي به فوضع موضع العادل، وهو أبلغ منه؛ لأنه جعل المسمى نفسه عدلًا»[(١)].

وكذلك من أوصافه تعالى: العدل[(٢)]، فهو سبحانه على صراط مستقيم، في كل ما يقضيه ويقدره؛ فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه؛ فإنه على صراط مستقيم، ماضٍ في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك، وله الحمد، لا يخرج تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا.

قال ابن القيم: «التوحيد والعدل هما جماع[(٣)] صفات الكمال، وصفات العدل والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم ونحوها أخص باسم الملك»[(٤)].

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾[النمل (٣٤)]: «أهانوا شرفاءها؛ لتستقيم لهم الأمور، فصدق الله قولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل (٣٤)].

قال ابن الأنباري: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ هذا وقف تام، فقال الله عز وجل تحقيقًا لقولها: ﴿وَكَذَلِكَ

وابن القيم والسعدي والشرباصي ونور الحسن خان، ودليلهم: ما ورد في طريق الوليد بن مسلم عند الترمذي والطبراني وابن حبان وابن خزيمة والبيهقي وابن منده وغيرهم، ولكنه حديث ضعيف عند نقاد الحديث.

وعده صفةً الشيخ علوي السقاف في صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة ص٢٤٧ وقال: قد عد بعضهم [العدل] من أسماء الله تعالى، وليس معهم في ذلك دليل، والصواب أنه ليس اسمًا له، بل هو صفة.

(١) النهاية، ابن الأثير ٣/ ١٩٠.
وقال ابن الأثير ٤/ ٩٣: في أسماء الله تعالى المقسط هو العادل، يقال: أقسط يقسط فهو مقسط إذا عدل.
وقال الحليمي [كما في فتح الباري ١٣/ ٥٣٩]: هو المعطي عباده القسط، وهو العدل من نفسه، وانظر لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٨٣٩.

(٢) قال الدكتور صلاح الدين المنجد في المجتمع الإسلامي في ظل العدالة ص ١٥: لا نجد هذه الصفة لله في مفهوم اليهود ولا النصارى، فهو جل وعز في المفهوم الإسلامي العادل المطلق.

(٣) الجماع بضم الجيم وتشديد الميم: مجتمع أصل كل شيء.

(٤) مدارج السالكين ١/ ٣٣- ٤٣ باختصار وتصرف.
وانظر أيضًا: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ص ٨٩ حيث ذكر تحت عنوان أنواع التوحيد التي دعت إليها الرسل نوعين: هما توحيد الإثبات والمعرفة، والآخر توحيد الطلب والقصد، ولخص كلام ابن القيم هنا.

﴿يَفْعَلُونَ﴾[1].

وقال الشيخ ابن غازي: «فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ من تصديق الله تعالى لقول ملكة سبأ وهي كافرة، وهذا غاية العدل والإنصاف»[2].

وقال أبو حامد الغزالي: «من أراد أن يفهم وصف الله عز وجل بالعدل ينبغي له أن يحيط علمًا بأفعال الله تعالى من ملكوت السموات إلى منتهى الثرى.

حتى إذا لم ير في خلق الرحمن من تفاوت، ثم رجع إليه بصره فما رأى من فطور، ثم رجع مرة أخرى فانقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، وقد بهره جمال ما رأى، وحيره اعتداله وانتظامه، فعند ذلك يعبق بفمه شيء من معاني عدله تعالى وتقدس.

وقد خلق الله أقسام الموجودات، جسمانيها وروحانيها، كاملها وناقصها، وأعطى كل شيء خلقه، وهو بذلك جواد، ورتبها في مواضعها اللائقة بها، وهو بذلك عدل، ولينظر الإنسان إلى بدنه؛ فإنه مركب من أعضاء مختلفة، فقد ركبه من العظم واللحم والجلد، وجعل العظم عمادًا مستبطنًا، واللحم صوانًا له مكتنفًا إياه، وكذلك جعل الجلد صوانًا للحم، فلو عكس هذا الترتيب وأظهر ما أبطن لبطل النظام، واختل العدل، وعلى هذا ينبغي أن تعلم أنه لم يـخلق شيء في موضع إلا لأنه متعين له، ولو تيامن عنه أو تياسر أو تسفل أو تعلى؛ لكان ناقصًا أو باطلًا، أو قبيحًا، أو خارجًا عن المتناسب، كريهًا في المنظر، ألم تر أنه مثلًا لو خلق الأنف على غير وسط الوجه أو لو خلق على الجبهة أو على الخد لتطرق النقص إليه، ثم إن الإنسان لو ترقى ونظر في ملكوت السماوات والأرض وعجائبها؛ لرأى ما يستحقر فيه عجائب بدنه، وكيف لا؟ وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

هذا هو الطريق لمعرفة هذا الاسم؛ لأن معرفة الأسامي المشتقة من الأفعال لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال، وأنت تعلم أن كل ما في الوجود من أفعال الله، فإذا كان الأمر كذلك فإن الواجب على العبد بعد إيمانه بأن الله عدل أنه لا يعترض عليه في تدبيره وحكمه وسائر أفعاله -وافق مراده أم لم يوافق-؛ لأن كل ذلك عدل، وتيقنه أنه لو لم يفعل سبحانه وتعالى ما فعله؛ لحصل في الوجود أمر آخر هو أعظم ضررًا مما حصل، كما أن المريض لو لم يحتجم؛ لتضرر ضررًا يزيد على ألم الحجامة»[3].

وهناك آيات كثيرة يتجلى فيها وصف الله

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٩٥.

(٢) الإنصاف، أبو الحسن بن غازي ص ١٨ [كما في نضرة النعيم ٣/ ٥٩٥]..

(٣) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص٩٨- ١٠١ بتصرف شديد.

تعالى بالعدل، ومنها:

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل[١].

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ فإنه بمعنى: أنه الذي يلي العدل بين خلقه.

والقسط هو العدل، من قولهم: «هو مقسط»، و«قد أقسط»، إذا عدل، ونصب ﴿قَائِمًا﴾ على القطع»[٢].

وقال الراغب الأصفهاني: «وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: هو تعالى مراعٍ للعدالة بكل حال؛ وذلك حال مؤكدة»[٣].

وقال البيضاوي: «﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيمًا للعدل في قسمه وحكمه، وانتصابه على الحال من الله، وإنما جاز إفراده بها، ولم يجز: جاء زيد وعمرو راكبًا؛ لعدم اللبس؛ كقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[الأنبياء: ٧٢].

أو من هو والعامل فيها معنى الجملة، أي: تفرد قائمًا، أو أحقه؛ لأنها حال مؤكدة، أو على المدح، أو الصفة للمنفي، وفيه ضعف للفصل، وهو مندرج في المشهود به إذا جعلته صفة، أو حالًا من الضمير.

وقرىء (القائم بالقسط) على البدل عن ﴿هُوَ﴾، أو الخبر لمحذوف»[٤].

وقال ابن القيم: «وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ القسط هو العدل، فشهد سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله، والتوحيد والعدل: هما جماع صفات الكمال؛ فإن التوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه، والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة.

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ هو كقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]»[٥].

وقال محمد رشيد رضا: «أما قوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ فمعناه: أنه تعالى شهد هذه الشهادة قائمًا بالقسط، وهو العدل في الدين والشريعة، وفي الكون والطبيعة.

فمن الأول: تقرير العدل في الاعتقاد، كالتوحيد الذي هو وسطٌ بين التعطيل

(١) غريب القرآن، ابن قتيبة ١/ ١٠٣، معاني القرآن، النحاس ١/ ٣٧١.

(٢) جامع البيان ٦/ ٢٧٠.
والقطع هو الحال، إذ بينه الفراء في كلامه في معاني القرآن ١/ ٢٠٠ إذ قال: منصوب على القطع، لأنه نكرة نعت به معرفة، والزجاج في كلامه في معاني القرآن ١/ ٣٨٧ إذ قال: حال مؤكدة، لأن الحال المؤكدة تقع مع الأسماء.

(٣) تفسير الراغب ٢/ ٤٦٥.

(٤) أنوار التنزيل ٢/ ٩.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٣٣- ٤٣ باختصار وتصرف.

والشرك، ومن الثاني: جعل سنن الخليقة في الأكوان والإنسان الدالة على حقية الاعتقاد قائمةً على أساس العدل، فمن نظر في هذه السنن ونظامها الدقيق يتجلى له عدل الله العام، فالقيام بالقسط على هذا من قبيل التنبيه إلى البرهان على صدق شهادته تعالى في الأنفس والآفاق؛ لأن وحدة النظام في هذا العدل تدل على وحدة واضعه.

وهذا مما يفند تفسير بعضهم للشهادة بأنها عبارةٌ عن خلق ما يدل على الوحدانية من الآيات الكونية والنفسية، كذلك كانت أحكامه تعالى في العبادات والآداب والأعمال مبينةً على أساس العدل بين القوى الروحية والبدنية وبين الناس بعضهم مع بعضٍ؛ فقد أمر بذكره وشكره في الصلاة وغير الصلاة؛ لترقية الروح وتزكيته، وأباح الطيبات والزينة؛ لحفظ البدن وتربيته، ونهى عن الغلو في الدين والإسراف في الدنيا وذلك عين العدل، فهذا هو القسط في العبادات والأعمال الدنيوية.

وأما القسط في الآداب والأخلاق فهو صريحٌ في القرآن كصراحة الأمر بالعدل في الأحكام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وإذ قد تجلى لك صدق الشهادة؛ فعليك أن تقر بها قائلًا: لا إله إلا هو العزيز الحكيم، تفرد بالألوهية، وكمال العزة والحكمة، فلا يغلبه أحدٌ على ما قام به من سنن القسط، ولا يخرج شيءٌ منها عن مقتضى الحكمة البالغة»[1].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

قال الشوكاني: «بالحق: هو العدل»[2].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

عن سعيد بن جبير: «﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في الآخرة ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ حسابهم العدل لا يظلمهم ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني: العدل المبين»[3].

(١) تفسير المنار ٣/ ٢١١.
(٢) فتح القدير ١/ ٤٢٤.
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/ ١٥٥-٢٣٧ بإسناد فيه ابن لهيعة، وابن أبي حاتم في التفسير

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وغير ذلك من عموم الآيات التي فيها وصف الله عز وجل، أو خلق السموات والأرض، أو إنزال الكتاب بالحق، الذي معناه العدل.

ومما نفاه الله عن نفسه مما يقتضي نقصًا في حقه -تبارك وتعالى- الظلم المنافي لكمال عدله، وذلك في آيات عديدة، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وغير ذلك كثير جدًا من الآيات الكريمات التي ينفي الله فيه صفة من أنقص الصفات وأشنعها، ألا وهي الظلم الذي هو: «وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه»[1].

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾ العدل وهو القسط، وجعل القسط -وهو موحد- من نعت الموازين، وهو جمع؛ لأنه في مذهب عدل ورضا ونظر.

وقوله: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ يقول: فلا يظلم الله نفسًا ممن ورد عليه منهم شيئًا؛ بأن يعاقبه بذنب لم يعمله، أو يبخسه ثواب عمل عمله، وطاعة أطاعه بها، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، ولا يعاقب مسيئًا إلا بإساءته»[2].

وقال الزجاج: «﴿ٱلۡقِسۡطَ﴾ العدل،

...٨/ ٢٥٦٠، رقم ١٤٣٠٧.

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٥٣٧، النفي في باب صفات الله عز وجل، أرزقي سعيداني ص ٣٣١-٣٣٢، الجامع الصحيح في الأسماء والصفات، أبو عزيز المروعي ص ٢٦٥.

(٢) جامع البيان ١٨/ ٤٥١.

المعنى: ونضع الموازين ذوات القسط، وقسط مثل عدل، مصدر يوصف به، تقول: ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط»[1].

وقال الفراء: «وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ القسط من صفة الموازين، وإن كان موحدًا، وهو بمنزلة قولك للقوم: أنتم رضًا وعدلٌ، وكذلك الحق إذا كان من صفة واحدٍ أو اثنين أو أكثر من ذلك كان واحدًا»[2].

وقال البغوي: «﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: ذوات القسط، والقسط: العدل ليوم القيامة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقص من ثواب حسناتها، ولا يزاد على سيئاتها»[3].

وقال ابن عطية: «لما توعدهم بنفحة من عذاب الدنيا؛ عقب ذلك بتوعده بوضع الموازين، وإنما جمعها -وهو ميزان واحد- من حيث لكل أحد وزن يخصه، ووحد القسط وهو جاء بلفظ الموازين مجموعًا، من حيث القسط مصدر وصف به، كما تقول: قوم عدل ورضا»[4].

وقال القرطبي: «﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ جمع ميزانٍ، فقيل: إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلفٍ ميزانًا توزن به أعماله؛ فتوضع الحسنات في كفةٍ، والسيئات في كفةٍ، وقيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد، يوزن بكل ميزانٍ منها صنفٌ من أعماله، كما قال[5]:

ملكٌ تقوم الحادثات لعدله

فلكل حادثةٍ لها ميزان

ويمكن أن يكون ميزانًا واحدًا عبر عنه بلفظ الجمع.

و﴿ٱلْقِسْطَ﴾ العدل، أي: ليس فيها بخسٌ ولا ظلمٌ، كما يكون في وزن الدنيا.

و﴿ٱلْقِسْطَ﴾ صفة الموازين، ووحد لأنه مصدرٌ، يقال: ميزان قسطٍ، وميزانان قسطٌ، وموازين قسطٌ، مثل رجالٌ عدلٌ ورضًا»[6].

وقال البيضاوي: «﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ العدل، توزن بها صحائف الأعمال، وقيل: وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل، وإفراد القسط لأنه مصدر وصف به

---

(1) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٩٤.
وانظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٩٢، وفتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٥.
(2) معاني القرآن ٢/ ٢٠٥.
(3) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٩٠.
(4) المحرر الوجيز ٤/ ٨٥.
(5) البيت لم نجده في كتب اللغة والأدب، ولم نعثر له على قائل، وإنما ذكره، دون نسبة، القرطبي في التفسير ١١/ ٢٩٣، والقسطلاني في إرشاد الساري شرح صحيح البخاري ١٠/ ٤٨٠، والقرطبي في التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٧٣٥، والشنقيطي في أضواء البيان ٤/ ١٥٩ وبعده:
تتصرف الأشياء في ملكوته
ولكل شيء مدة وأوان
(6) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٩٣.

للمبالغة»[1].

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يبين فيها مثاقيل الذر الذي توزن بها الحسنات والسيئات»[2].

وقال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة، فتوزن أعمالهم وزنًا في غاية العدالة والإنصاف، فلا يظلم الله أحدًا شيئًا، وأن عمله من الخير والشر -وإن كان في غاية القلة والدقة كمثقال حبةٍ من خردلٍ-؛ فإن الله يأتي به؛ لأنه لا يخفى عليه شيءٌ، وكفى به -جل وعلا- حاسبًا؛ لإحاطة علمه بكل شيءٍ.

وقوله في هذه الآية: ﴿ٱلۡقِسۡطَ﴾ أي: العدل، وهو مصدرٌ وصف به؛ ولذا لزم إفراده، كما قال في الخلاصة[3]:

ونعتوا بمصدرٍ كثيرًا
فالتزموا الإفراد والتذكيرا

كما قدمناه مرارًا، ومعلومٌ أن النعت بالمصدر، يقول فيه بعض العلماء: إنه المبالغة، وبعضهم يقول: هو بنية المضاف المحذوف، فعلى الأول كأنه بالغ في عدالة الموازين حتى سماها القسط الذي هو العدل، وعلى الثاني فالمعنى: الموازين ذوات القسط»[4].

وترك الأخذ على يدي الظالم آذنٌ بعقوبة الجميع، فعن أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه قال: (أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾[المائدة: ١٠٥].

وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب)[5].

ولما كان كثير من الظلمة لا يباشر الظلم بنفسه، بل يتخذ أعوانًا يعينونه ويسهلونه عليه، ولا يعلمون أنهم في الإثم سواء، نهانا سبحانه عن مساعدة الظالم، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

(١) أنوار التنزيل ٤/ ٥٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٥٢٤.
(٣) البيت من ألفية ابن مالك في النحو (الخلاصة) ص ٤٥.
(٤) أضواء البيان ٤/ ١٥٨.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٢، رقم ٤٣٣٨، واللفظ له، والترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، ٤/ ٣٧، رقم ٢١٦٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٢/ ١٣٢٧، رقم ٤٠٠٥، وأحمد في مسنده، ١/ ٢٠٨، رقم ٣٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٩٨، رقم ١٩٧٣

رابعًا: الثناء على أهل العدل:

جاء في غير موطن من الكتاب العزيز إعلان الحب الإلهي بكل وضوح للمقسطين، أهل العدل والإنصاف، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢ - الحجرات: ٩ - الممتحنة: ٨].

وأثنى سبحانه على أهل العدل، فقال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ يقول: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يقول: يهتدون بالحق، أي: يستقيمون عليه ويعملون ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: وبالحق يعطون ويأخذون، وينصفون من أنفسهم فلا يجورون»[١].

وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ومن الخلق الذين خلقنا ﴿أُمَّةٌ﴾ يعني: جماعة ﴿يَهْدُونَ﴾ يقول: يهتدون بالحق، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يقول: وبالحق يقضون، وينصفون الناس»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «الأصل السابع[٣]: هداية الناس بالحق والعدل به، وقد وصف الله تعالى بذلك خيار قوم موسى عليه السلام في آية (١٥٩) وخيار أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم في الآية (١٨١) فهذا من أصول دين الله العامة في جميع شرائعه، والحق هو الأمر الثابت المتحقق في الشرع إن كان شرعيًا، وفي الواقع ونفس الأمر إن كان أمرًا وجوديًا، والعدل ما تحري به الحق من غير ميلٍ إلى طرفٍ من الطرفين أو الأطراف المتنازعة فيه أو المتعلقة به، ويدخل في هذا الأصل الدعوة إلى الحق والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتضحية العامة والخاصة، والإصلاح بين الناس»[٤].

ووصف المولى سبحانه وتعالى من يمتنع عن الظلم والبغي بالإيمان والعمل الصالح، وأن إيمانهم هو الذي يمنعهم من هذا السلوك المستشري بين معظم الشركاء، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

قال نظام الدين النيسابوري: «إن أكثر

(١) جامع البيان ١٣/ ١٧٢.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٨٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٩١.
(٢) جامع البيان ١٣/ ٢٨٥.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٥٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥١٦.
(٣) من أصول التشريع في سورة الأعراف.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٤٧٧.

الخلطاء موسوم بسمة الظلم إلا المؤمنين، وإنهم لقليل. و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ مزيدة للإبهام، وفيه تعجيب من قلتهم»[1].

وقال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهو يعني الشركاء يدل على أن العادة في أكثر الشركاء الظلم والبغي، ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾»[2].

وقال الألوسي: «إن كثيرًا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات إشارة إلى أن النفوس مجبولة على الظلم وسائر الصفات الذميمة، وإلى أن الذين تزكت أنفسهم قليل جدًا بالنسبة إلى الآخرين»[3].

وقال السعدي: «هذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من الظلم، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]»[4].

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥/ ٥٨٩.
(٢) أحكام القرآن ٥/ ٢٥٥.
(٣) روح المعاني ١٢/ ٢٢١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٧١٢.

خامسًا: بيان عاقبة أهل العدل:

ما أجمل العاقبة الحميدة لأهل العدل! إذ بين المولى إكرامهم وإعزازهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا لهم التمكين وميراث الكتاب، فقال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

هذه الآية نص على توريث واصطفاء من فيه نوع ظلم، فمن باب أولى أهل العدل والإحسان، وكما هو مفهوم من جزأي الآية الآخرين.

قال الكرجي القصاب: «بشارة كبيرة لهذه الأمة؛ إذ قد وعدوا على اختلاف أحوالهم من الظلم والقصد والمسابقة معًا بالجنة»[5].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فالوسط: العدل[6].

قال سيد قطب: «إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعًا، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم تصوراتها وقيمها وموازينها، وهي

(٥) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام ٣/ ٧٠٥.
(٦) الرياض الأنيقة، السيوطي ص ١٨٣.

شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم»[1].

وقال ابن عاشور: «الله تعالى جعل هذه الأمة وسطًا، وعلمنا أن الوسط هو الخيار العدل الخارج من بين طرفيه إفراط وتفريط، علمنا أن الله تعالى أكمل عقول هذه الأمة بما تنشأ عليه العقول من الاعتقاد بالعقائد الصحيحة، ومجانبة الأوهام السخيفة التي ساخت فيها عقول الأمة»[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال محمد رشيد رضا: «لا يخفى أن الأمن في الآية مقصورٌ على الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ، فإذا حمل العموم فيها على إطلاقه وعدم مراعاة موضوع الإيمان يكون المعنى: الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بظلمٍ ما لأنفسهم -لا في إيمانهم ولا في أعمالهم البدنية والنفسية من دينيةٍ ودنيويةٍ، ولا بغيرهم من المخلوقات من العقلاء والعجماوات- أولئك لهم الأمن من عقاب الله تعالى الديني على ارتكاب المعاصي والمنكرات، وعقابه الدنيوي على عدم مراعاة سننه في ربط الأسباب بالمسببات، كالفقر والأسقام والأمراض، دون غيرهم ممن ظلموا أنفسهم أو غيرهم، فإن الظالمين لا أمان لهم، بل كل ظالم عرضةٌ للعقاب، وإن كان الله تعالى لسعةَ رحمته لا يعاقب كل ظالمٍ على كل ظلمٍ، بل يعفو عن كثيرٍ من ذنوبِ الدنيا، ويعذبُ من يشاء، ويغفر لمن يشاء في الآخرة ما دون الشرك به.

وهذا المعنى في تفسير الآية صحيحٌ في نفسه، ويترتب عليه أن الأمن المطلق من الخوف من عقاب الله الديني والدنيوي أو الشرعي والقدري جميعًا لا يصح لأحدٍ من المكلفين، دع خوف الهيبة والإجلال الذي يمتاز به أهل الكمال، وقد صح إسناد الخوف إلى الملائكة والأنبياء»[3].

وحصر المولى عز وجل الفلاح لأهل العدل المقسطين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

قال محمد رشيد رضا: «قد تقدم شرح هذا المعنى في تفسير: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

من هذه السورة، وإذا كان فلاح الظالمين لأنفسهم وللناس بالأولى منتفيًا بشرع الله وسنته العادلة؛ انحصر الفلاح والفوز في أهل الحق والعدل الذين يقومون بحقوق الله وحقوق أنفسهم، ومن يرتبط معهم في

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٣١٠ - ١٣١.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ١٩.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٨٤.

شئون الحياة، وهذا لا يكمل إلا لرسل الله وجندهم من المؤمنين الصالحين، ألم تر كيف نصر الله رسوله على الظالمين من قومه أولًا كأكابر مجرمي مكة المستهزئين به؟

ثم على سائر مشركي العرب، ثم نصر أصحابه على أعظم أمم الأرض وأقواها جندًا، وأعظمها ملكًا، وأرقاها نظامًا، كالروم ان والفرس؟ ثم نصر من بعدهم من المسلمين من كل أمةٍ وشعبٍ على من ناوأهم وقاتلهم من أهل الشرق والغرب في الحروب الصليبية والفتوح العثمانية وغيرها بقدر حظهم من اتباع ما جاء به من الحق والعدل، فلما ظلموا أنفسهم، وظلموا الناس، وصار حظهم من هداية دينهم نحوًا مما كان من حظ أهل الكتاب قبلهم من هداية رسلهم أو أقل، ولم يعد لهم مزيةٌ ثابتةٌ في هذا السبب المعنوي للنصر والفلاح.

بل انحصر الفوز في الأسباب المادية والفنية، وسائر الأسباب المعنوية، كالصبر والثبات، والعدل والنظام ونرى كثيرًا من الجاهلين بالإسلام يقولون: ما بال المسلمين قد أضاعوا ملكهم إذا كان الله قد وعد بنصرهم؟

وجوابه: أن الله تعالى لم يعد قط بنصر من يسمون مسلمين -كيفما كانت حالهم-، وإنما وعد بنصر من ينصره، ويقيم ما شرعه من الحق والعدل، وبإهلاك الظالمين مهما تكن أسماؤهم وألقابهم، إذا نازعهم البقاء من هم أقرب إلى الحق والعدل أو النظام منهم»[1].

وغير هذه الآيات كثير جدًا، مما توضح الفلاح لأهل العدل، وحسن عاقبتهم في الدنيا والآخرة، سواء كانت صريحة أم ضمنية، كقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٨٣-٤٨٤، ٨/ ١٠٥.

مجالات العدل

يدخل العدل في مجالات كثيرة في الحياة، ومن ذلك:

أولًا: مجال الأحكام:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكل عمل يؤمر به فلابد فيه من العدل، فالعدل مأمور به في جميع الأعمال، والظلم منهي عنه نهيًا مطلقًا؛ ولهذا جاءت أفضل الشرائع والمناهج بتحقيق هذا كله وتكميله، فأوجب الله العدل لكل أحد على كل أحد في كل حال»[(١)].

ومن صور اهتمام الإسلام بالجانب العملي والميدان التطبيقي للعدل المأمور به في حياة الأفراد والجماعات البشرية المنتشرة على وجه البسيطة ما يلي:

اشتراط العدل «العدالة» في الشهادة والشهود[(٢)]:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: وليكتب كتاب الدين إلى الأجل المسمى بين الدائن والمدين ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعني: بالحق والإنصاف في كتابه الذي يكتبه بينهما، بما لا يتحيف ذا الحق حقه، ولا يبخسه، ولا يوجب له حجة على من عليه دينه فيه بباطل، ولا يلزمه ما ليس عليه»[(٣)].

وقال الماوردي: «وعدل الكاتب ألا يزيد فيه إضرارًا بمن هو عليه، ولا ينقص منه إضرارًا بمن هو له»[(٤)].

وقال الزجاج: «ومعنى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: الذي يقوم بأمره؛ لأن الله أمر ألا نؤتي السفهاء الأموال، وأمر أن يقام لهم بها، فقال: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥]. فوليه الذي يقوم مقامه في ماله لو كان مميزًا»[(٥)].

---

(١) الرد على المنطقيين ١/ ٤٢٥.

(٢) قال بعض العلماء: العدالة صفة توجب مراعاتها الاحتراز عما يخل بالمروءة عادة ظاهرًا، فالمرة الواحدة من صغائر الهفوات، وتحريف الكلام لا تخل بالمروءة ظاهرًا، لاحتمال الغلط والنسيان والتأويل، بخلاف ما إذا عرف منه ذلك وتكرر، فيكون الظاهر الإخلال، ويعتبر عرف كل شخص وما يعتاده من لبسه، وتعاطيه للبيع، والشراء وحمل الأمتعة، وغير ذلك، فإذا فعل ما لا يليق به لغير ضرورة، قدح وإلا فلا. انظر المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٤- ٤٥، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٨٣٨- ٢٨٣٩.

(٣) جامع البيان ٦/ ٥١.

(٤) النكت والعيون ١/ ٣٥٥.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٦٣.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

هذه الآية الكريمة تبين أن إنصاف المرء أخاه في النسب أو الدين قد يكون أمرًا معقولًا تقره الطبائع السليمة، والفطر النقية، أما إنصاف العدو، وتبرئة ساحته مع مخالفته لنا في الدين فهذا ما لا يستطيعه إلا من تربى على مائدة الإسلام، وتشبع بروح العدل والإنصاف التي جاء بها القرآن، فهذه الآية تعلمنا أن الميل في العدل بسبب الغضب أو عاطفة القرابة، أو بسبب الخشية من إنسان ما، أو التودد إلى ضعيف يجب أن يبعد تمامًا من دائرة العدل عند مباشرته.

وصمام الأمان في إبعاده تذكر الله، واستحضار جلاله في القوامة على الناس، والحكم فيما بينهم.

قال ابن كثير: «أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل؛ فإن العدل واجب على كل أحد في كل حال. وقد قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه»[(١)].

وقال أبو عبيدة والفراء: «أي: لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الظلم»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: يحكم بذلك الجزاء الذي هو مثل المقتول من الصيد من النعم عدلان منكم، يعني: فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل»[(٣)].

وقال الزجاج: «أي: من أهل ملتكم، فعلى قاتل الصيد أن يسأل فقيهين عدلين عن جزاء ما قتل»[(٤)].

وقال الشعراوي: «هم الذين لا يميلون عن الحق، ويقيمون الميزان، ويأمرنا الحق أن نحكم بالإنصاف؛ لنكون من ذوي العدل، أي: أن الإنسان حين يواجه خصمين، فهو يعطي نصفه لخصم، ونصفه الآخر للخصم الثاني، فلا يميل بالهوى ناحية أحدهما، ولا يدير الإنسان وجهه إلى الخصم أكثر مما يديره للآخر.

وإن سأل أحد: كيف نأتي بذوي العدل؟ ونقول: انظر إلى عدالتهما في نفسيهما، ولنر تصرفات الإنسان، هل هي مستقيمة أو لا؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء في الطعام

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٥.

(٣) جامع البيان ١٠/ ٢٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٢٠٧.

أو الغضب أو في أي لون من ألوان السلوك؟ ومن كان مأمونًا على نفسه فهو مأمون على غيره»[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٦].

قال الطبري: «﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ يقول: ذوا رشد وعقل وحجًى من المسلمين»[2].

وقال ابن قتيبة: «رجلان عدلان من المسلمين تشهدونهما على الوصية»[3].

وقال تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: ٢].

قال الطبري: «هما اللذان يرضى دينهما وأمانتهما»[4].

وقال ابن عطية: «العدل حقيقة الذي لا يخاف إلا الله»[5].

ثانيًا: الحياة الأسرية والاجتماعية:

خص المولى عز وجل هذا الجانب باهتمام بالغ؛ فذكر آيات كثيرة في غاية الوضوح تؤسس الأسرة على أسس العدل والحق؛ لأن الأسرة نواة المجتمع، فإذا صلحت، صلح المجتمع، وإذا فسدت فلا سبيل لصلاح المجتمع، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣].

قال ابن قتيبة: «أي: فإن علمتم أنكم لا تعدلون بين اليتامى يقال: أقسط الرجل: إذا عدل ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(المقسطون في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة)**[6].

ويقال: قسط الرجل: إذا جار بغير ألف، ومنه قول الله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥]»[7].

وقال الطبري: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وإن خفتم يا معشر أولياء اليتامى أن لا تقسطوا في صداقهن فتعدلوا فيه، وتبلغوا بصداقهن صدقات أمثالهن؛ فلا تنكحوهن، ولكن انكحوا غيرهن من الغرائب اللواتي أحلهن

(١) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٤٠٠.
(٢) جامع البيان ١١/ ١٥٤.
(٣) تأويل مشكل القرآن ص٢١٩.
(٤) جامع البيان ٢٣/ ٤٤٤.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٤.

(٦) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده، ١١/ ٤٩٩، رقم ٦٨٩٧.
وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٨، رقم ١٨٢٧ بلفظ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، وما ولوا).
(٧) غريب القرآن ١/ ١١٩.

الله لكم وطيبهن، من واحدة إلى أربع، وإن خفتم أن تجوروا -إذا نكحتم من الغرائب أكثر من واحدة- فلا تعدلوا فانكحوا منهن واحدة، أو ما ملكت أيمانكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: النهي عن نكاح ما فوق الأربع حذارًا على أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم؛ وذلك أن قريشًا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدمًا؛ مال على مال يتيمه الذي في حجره فأنفقه، أو تزوج به، فنهوا عن ذلك، وقيل لهم: إن أنتم خفتم على أموال أيتامكم أن تنفقوها؛ فلا تعدلوا فيها من أجل حاجتكم إليها لما يلزمكم من مؤن نسائكم، فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربع، وإن خفتم أيضًا من الأربع أن لا تعدلوا في أموالهم؛ فاقتصروا على الواحدة، أو على ما ملكت أيمانكم [(١)].

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن القوم كانوا يتحوبون في أموال اليتامى أن لا يعدلوا فيها، ولا يتحوبون في النساء أن لا يعدلوا فيهن، فقيل لهم: كما خفتم أن لا تعدلوا في اليتامى؛ فكذلك فخافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهن، ولا تنكحوا منهن إلا من واحدة إلى الأربع، ولا تزيدوا على ذلك،

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ٧/ ٢، رقم ٥٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، ٤/ ٢٣١٣، رقم ٣٠١٨ عن عروة أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]. قالت: يا ابن أختي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها، يريد أن يتزوجها بأدنى من سنة صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فيكملوا الصداق، وأمروا بنكاح من سواهن من النساء.

قال سيد قطب في ظلال القرآن ١/ ٥٧٧- ٥٧٨: «وحديث عائشة رضي الله عنها يصور جانبًا من التصورات والتقاليد التي كانت سائدة في الجاهلية، ثم بقيت في المجتمع المسلم، حتى جاء القرآن ينهى عنها ويمحوها، بهذه التوجيهات الرفيعة، ويكل الأمر إلى الضمائر، وهو يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فهي مسألة تحرج وتقوى وخوف من الله إذا توقع الولي ألا يعدل مع اليتيمة في حجره، ونص الآية مطلق لا يحدد مواضع العدل، فالمطلوب هو العدل في كل صوره وبكل معانيه في هذه الحالة، سواء فيما يختص بالصداق، أو فيما يتعلق بأي اعتبار آخر، كأن ينكحها رغبة في مالها، لا لأن لها في قلبه مودة، ولا لأنه يرغب رغبة نفسية في عشرتها لذاتها، وكأن ينكحها وهناك فارق كبير من السن لا تستقيم معه الحياة، دون مراعاة لرغبتها هي في إبرام هذا النكاح، هذه الرغبة التي قد لا تفصح عنها حياء أو خوفًا من ضياع مالها إذا هي خالفت عن إرادته...، إلى آخر تلك الملابسات التي يخشى ألا يتحقق فيها العدل...، والقرآن يقيم الضمير حارسًا، والتقوى رقيبًا، وقد أسلف في الآية السابقة التي رتب عليها هذه التوجيهات كلها قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. فعندما لا يكون الأولياء واثقين من قدرتهم على القسط مع اليتيمات اللواتي في حجورهم، فهناك النساء غيرهن، وفي المجال متسع للبعد عن الشبهة والمظنة».

وإن خفتم أن لا تعدلوا أيضًا في الزيادة على الواحدة؛ فلا تنكحوا إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيهن من واحدة، أو ما ملكت أيمانكم.

وقال آخرون: معنى ذلك: فكما خفتم في اليتامى؛ فكذلك فتخوفوا في النساء أن تزنوا بهن، ولكن انكحوا ما طاب لكم من النساء.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، اللاتي أنتم ولاتهنفلا تنكحوهن، وانكحوا أنتم ما حل لكم منهن.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بتأويل الآية قول من قال: تأويلها: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فكذلك فخافوا في النساء فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن، من واحدة إلى الأربع، فإن خفتم الجور في الواحدة أيضًا فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم؛ فإنه أحرى أن لا تجوروا عليهن.

وإنما قلنا: إن ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الله جل ثناؤه افتتح الآية التي قبلها بالنهي عن أكل أموال اليتامى بغير حقها وخلطها بغيرها من الأموال، فقال تعالى ذكره: ﴿وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

ثم أعلمهم أنهم إن اتقوا الله في ذلك فتحرجوا فيه، فالواجب عليهم من اتقاء الله، والتحرج في أمر النساء مثل الذي عليهم من التحرج في أمر اليتامى، وأعلمهم كيف التخلص لهم من الجور فيهن، كما عرفهم المخلص من الجور في أموال اليتامى، فقال: انكحوا إن أمنتم الجور في النساء على أنفسكم ما أبحت لكم منهن وحللته، مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم أيضًا الجور على أنفسكم في أمر الواحدة، بأن لا تقدروا على إنصافها فلا تنكحوها، ولكن تسروا من المماليك؛ فإنكم أحرى أن لا تجوروا عليهن؛ لأنهن أملاككم وأموالكم، ولا يلزمكم لهن من الحقوق كالذي يلزمكم للحرائر، فيكون ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثم والجور.

ففي الكلام -إذ كان المعنى ما قلنا- متروك، استغنى بدلالة ما ظهر من الكلام عن ذكره؛ وذلك أن معنى الكلام: وإن خفتم أن لا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها، فكذلك فخافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء التي أوجبها الله عليكم، فلا تتزوجوا منهن إلا ما أمنتم معه الجور مثنى وثلاث ورباع، وإن خفتم أيضًا في ذلك فواحدة، وإن خفتم في الواحدة فما ملكت أيمانكم، فترك ذكر قوله: فكذلك فخافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء بدلالة ما ظهر

من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

في هذه الآية الكريمة نهي عن مظلمة تقع على المرأة حين يؤكل صداقها من أقاربها، ولا تعطى إياه، وهو حق لها خالص لا سبيل لوالد ولا لأخ عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

قال البغوي: «﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ أي: حرامًا بغير حق ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أخبر عن مآله، أي: عاقبته تكون كذلك»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

قال محمد رشيد رضا: «معنى: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ لا تطلبوا طريقًا للوصول إلى إيذائهن بالقول أو الفعل، فالبغي بمعنى الطلب، ويجوز أن يكون بمعنى تجاوز الحد في الاعتداء، أي: فلا تظلموهن بطريقٍ ما، فمتى استقام لكم الظاهر فلا تبحثوا عن مطاوي السرائر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فإن سلطانه عليكم فوق سلطانكم على نسائكم، فإذا بغيتم عليهن عاقبكم، وإذا تجاوزتم عن هفواتهن كرمًا وشممًا تجاوز عنكم.

قال الأستاذ[3]: أتى بهذا بعد النهي عن البغي؛ لأن الرجل إنما يبغي على المرأة بما يحسه في نفسه من الاستعلاء عليها، وكونه أكبر منها وأقدر، فذكره تعالى بعلوه وكبريائه وقدرته عليه؛ ليتعظ ويخشع، ويتقي الله فيها، واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادةً في بيوتهم إنما يلدون عبيدًا لغيرهم، يعني: أن أولادهم يتربون على ذل الظلم، فيكونون كالعبيد الأذلاء لمن يحتاجون إلى المعيشة معهم»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ

(١) جامع البيان ٧/ ٥٣١- ٥٣٩.
وفي الآية أحكام أخرى، انظر: الجامع في أحكام القرآن القرطبي وتفاسير الأحكام.

(٢) معالم التنزيل ١/ ٥٧٣.
وانظر: الوسيط ٢/ ١٦، والوجيز ص٢٥٤ كلاهما الواحدي.

(٣) أراد به أستاذه محمد عبده فقد تأثر به، ونقل عنه كثيرًا في تفسيره بقوله: قال الأستاذ، أو قال الإمام، حتى قال محمد عبده عنه: «صاحب المنار ترجمان أفكاري».

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٦٣.

عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٧].

عن عائشة رضي الله عنها في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قالت: «هذا في اليتيمة التي تكون عند الرجل لعلها أن تكون شريكته في ماله وهو أولى بها، فيرغب عنها أن ينكحها فيعضلها لمالها ولا ينكحها غيره؛ كراهية أن يشركه أحد في مالها»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء ١٢٩].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ الآية [النساء: ٣].

هذه الآية الكريمة تدل على أن العدل بين الزوجات ممكنٌ، وقد جاء في آيةٍ أخرى ما يدل على أنه غير ممكنٍ، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

والجواب عن هذا: أن العدل بينهن الذي ذكر الله أنه ممكنٌ هو العدل في توفية الحقوق الشرعية، والعدل الذي ذكر أنه غير ممكنٍ هو المساواة في المحبة والميل الطبيعي؛ لأن هذا انفعالٌ لا فعلٌ، فليس تحت قدرة البشر، والمقصود أن من كان أميل بالطبع إلى إحدى الزوجات فليتق الله وليعدل في الحقوق الشرعية، كما يدل عليه قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]. ﴿أَقْسَطُ﴾ أي: أعدل[(٣)].

قال الطبري: «دعاؤكم إياهم لآبائهم هو أعدل عند الله، وأصدق وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم ونسبتكموهم إلى من تبناهم، وادعاهم وليسوا له بنين»[(٤)].

وقال سيد قطب: «وإنه لقسط وعدل أن يدعى الولد لأبيه، عدلٌ للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية، وعدلٌ للولد الذي يحمل اسم أبيه، ويرثه ويورثه، ويتعاون معه، ويكون امتدادًا له بوراثاته الكامنة، وتمثيله لخصائصه، وخصائص

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي، ٧/ ١٦، رقم ٥١٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير ٤/ ٢٣١٥، رقم ٣٠١٨.

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص ٥٥.

(٣) معاني القرآن، النحاس ٥/ ٣٢٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢١٥.

(٤) جامع البيان ٢٠/ ٢٠٧.

آبائه وأجداده، وعدلٌ للحق في ذاته الذي يضع كل شيء في مكانه، ويقيم كل علاقة على أصلها الفطري، ولا يضيع مزية على والد ولا ولد، كما أنه لا يحمل غير الوالد الحقيقي تبعة البنوة، ولا يعطيه مزاياها، ولا يحمل غير الولد الحقيقي تبعة البنوة ولا يحابيه بخيراتها! وهذا هو النظام الذي يجعل التبعات في الأسرة متوازنة، ويقيم الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع، وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحق ومن مطابقة الواقع الفطري العميق.

وكل نظام يتجاهل حقيقة الأسرة الطبيعية هو نظام فاشل ضعيف، مزور الأسس، لا يمكن أن يعيش! ونظرًا للفوضى في علاقات الأسرة في الجاهلية، والفوضى الجنسية كذلك التي تخلف عنها أن تختلط الأنساب، وأن يجهل الآباء في بعض الأحيان، فقد يسر الإسلام الأمر -وهو بصدد إعادة تنظيم الأسرة، وإقامة النظام الاجتماعي على أساسها-؛ فقرر في حالة عدم الاهتداء إلى معرفة الآباء الحقيقيين مكانًا للأدعياء في الجماعة الإسلامية، قائمًا على الأخوة في الدين، والموالاة فيه»[(١)].

وقال الطاهر بن عاشور: «وضمير ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عائدٌ إلى المصدر المفهوم من فعل ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ أي: الدعاء للآباء، وجملة: ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأن سائلًا قال: لماذا لا ندعوهم للذين تبنوهم؟ فأجيب ببيان أن ذلك القسط، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة، أي: هو قسطٌ كاملٌ، وغيره جورٌ على الآباء الحق والأدعياء؛ لأن فيه إضاعة أنسابهم الحق.

والغرض من هذا الاستئناف تقرير ما دل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]؛ لتعلم عناية الله تعالى بإبطال أحكام الجاهلية في التبني، ولتطمئن نفوس المسلمين من المتبنين والأدعياء ومن يتعلق بهم بقبول هذا التشريع الذي يشق عليهم إذ ينزع منهم إلفًا ألفوه»[(٢)].

وقال الشعراوي: «المعنى: إن كنتم جعلتم من العدل والمحبة أن تكفلوا هؤلاء الأولاد، وأن تنسبوهم إليكم، فهذا عدل بشريٌّ، لكن حكم الله أعدل وأقسط، وشرفٌ لرسول الله أن يرد الله حكمه إلى حكم ربه، وشرفٌ لرسول الله أن يكون له الأصل في المسألة، وأنه يحكم، فيرد الله حكمه إلى حكمه، فهذا تكريم لرسول الله.

فقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن فعل محمد كان قسطًا وعدلًا

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٢٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٦١.

بقانون البشر، وقد جاء محمد ليغير قوانين البشر بقوانين رب البشر، وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المأزق»[(١)].

ثالثًا: العقوبات والقصاص:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩].

قال ابن كثير: «يقول الله تعالى: كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حركم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم، وغيروا حكم الله فيهم.

فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرًا وبغيًا»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

قال السعدي: «النهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار ونحوها لغير مصلحة تعود للمسلمين»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ أي: متساوية[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ [المائدة: ٤٥].

قال القاسمي: «حكم الله سبحانه وتعالى في دماء المسلمين أنها كلها سواء، خلاف ما عليه أهل الجاهلية»[(٥)].

رابعًا: العدل بين الجنسين:

جعل الإسلام المرأة عضوًا في المجتمع الإسلامي مساويًا للرجل، ففي آيات كثيرة نجد النساء يذكرن إلى جانب الرجال، ويخاطبن كما يخاطبون.

وقد حل الإسلام بهذه المساواة مشكلة الطبقات في المجتمع الإنساني التي قامت على أسس توجب لظلم.

(١) تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢٠٣٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢١٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٩.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٦٠.
(٥) المصدر السابق.



قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

قال محمد رشيد رضا: «المقصد التاسع من فقه القرآن: إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

كان النساء قبل الإسلام مظلوماتٍ ممتهناتٍ مستعبداتٍ عند جميع الأمم وفي جميع شرائعها وقوانينها، حتى عند أهل

الكتاب، حتى جاء الإسلام، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمدٍ عليه أفضل الصلاة والسلام، فأعطى الله النساء بكتابه الذي أنزله عليه، وبسنته التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل، جميع الحقوق التي أعطاها للرجال، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الأحكام، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها.

قد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك، أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن، واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنيةً، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك.

ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره من الأعمال، وأن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدةٌ بإرادة زوجها في جميع التصرفات المالية، والعقود القضائية.

وجملة القول: أنه ما وجد دينٌ ولا شرعٌ ولا قانونٌ في أمةٍ من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم لمحمدٍ النبي الأمي المبعوث في الأميين؟ بلى، وأنا عن ذلك من الشاهدين المبرهنين، والحمد لله رب العالمين»[1].

خامسًا: العدل بين المؤمنين والكافرين:

قال ابن القيم: «فصل: النوع الثاني عشر[2]: إنكاره سبحانه أن يسوى بين المختلفين، أو يفرق بين المتماثلين، وأن حكمته وعدله يأبى ذلك، أما الأول فكقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥- ٣٦].

فأخبر أن هذا حكم باطل جائر يستحيل نسبته إليه، كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه، ومنكرو الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه، بل يقولون بوقوعه؟

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٢٣٢- ٢٣٦.

(٢) من أنواع الأصل الخامس: أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمه.

[الجاثية: ٢١].

فجعل سبحانه ذلك حكمًا سيئًا يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «تدل آياتٌ على الحساب والجزاء العام بالقسط على حسب تأثير الأعمال في النفوس، فمن دسى نفسه وأبسلها، لا يمكن أن يكون عند الله كمن زكى نفسه وأسلمها، ولا يمكن أن يقول عاقلٌ: إن نفوس من لم تبلغهم الدعوة الصحيحة تكون سواءً مهما اختلفت عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، فإن هذا مخالفٌ لحكم العقل وإدراك الحس، إذ لم توجد ولا توجد أمةٌ إلا وفيها الصالحون والطالحون، والأبرار والفجار، والذين يؤثرون ما يرونه من الهدى على داعية الشهوة والهوى والعكس، فهل يكون الفريقان عند الحكم العدل سواءً؟ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]»[2].

وقال كذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] أي: ذلك العذاب إنما يصيبكم بعملكم، ويكونه تعالى عادلًا في حكمه وفعله لا يجور ولا يظلم، فيعاقب غير المستحق للعقاب، ولا يجعل المجرمين كالمتقين، والكافرين كالمؤمنين، فلو كان سبحانه ظلامًا لجاز ألا يذوقوا ذلك العذاب على كفرهم به، واستهزائهم بآياته، وقتلهم لأنبيائه بأن يجعلوا مع المقربين في جنات النعيم؛ وإذًا لكان الدين عبثًا ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

فالاستفهام الإنكاري في هذه الآيات يدل على أن ترك تعذيب أولئك الكفرة الفجرة هو من المساواة بين المحسن والمسيء، ووضع الشيء في غير موضعه، وناهيك به ظلمًا كبيرًا»[3].

وقال الشنقيطي: «نفى الله سبحانه عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم، فقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

وأخبر أن هذا حكمٌ باطلٌ في الفطر

(١) شفاء العليل ص١٩٩.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٦٢.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢١٨.

والعقول، لا تليق نسبته إليه سبحانه، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

أفلا تراه كيف ذكر العقول، ونبه الفطر بما أودع فيها من إعطاء النظير حكم نظيره، وعدم التسوية بين الشيء ومخالفه في الحكم»[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩- ٢٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ومثل هذه الآيات كثير، كما هو معلوم، ومذكور في كتب الوجوه والنظائر[٢].

(١) أضواء البيان ٤/ ١٨٤.
(٢) انظر أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي ص ٤١٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ١٢١- ١٥٣، البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٤٢٨- ٤٢٩.

سادسًا: عدل بين المؤمنين وتفاضلهم في الدرجات:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

أي: لا يكونون سواء.

قال ابن العربي: «من سبق أكرم عند الله مرتبةً، وأوفى أجرًا، ولو لم يكن للسابق من الفضل إلا اقتداء التالي به، واهتداؤه بهديه، فيكون له ثواب عمله في نفسه، ومثل ثواب من اتبعه مقتديًا به؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من سن سنةً حسنةً في الإسلام كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا)»[٣].

وقال كذلك: «نفى الله سبحانه المساواة بين من أنفق من قبل فتح مكة وبين من أنفق بعد ذلك؛ لأن حاجة الناس كانت قبل الفتح أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنافقين أشق، والأجر على قدر النصب، إذا ثبت انتفاء المساواة بين الخلق وقع التفضيل بين الناس بالحكمة والحكم؛ فإن التقدم والتأخر يكون في الدين، ويكون في أحكام الدنيا»[٤].

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ٤/ ٢٠٦٠، رقم ٢٦٧٤.
(٤) أحكام القرآن ٢/ ٥٧٣، ٤/ ١٧٨.

وقال ابن عثيمين: «﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ دين الإسلام دين العدل في العمل والجزاء، وانتبه دين العدل في العمل والجزاء، وليس كما يقول المحدثون: «إنه دين المساواة» هذا غلط عظيم، لكن يتوصل به أهل الآراء والأفكار الفاسدة إلى مقاصد ذميمة، حتى يقول: المرأة والرجل، والمؤمن والكافر سواء، ولا فرق، وسبحان الله! إنك لن تجد في القرآن كلمة المساواة بين الناس، بل لابد من فرق، بل أكثر ما في القرآن نفي المساواة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وآيات كثيرة».

وقال أيضًا: «﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ وذلك لأن الأولين أنفقوا وقاتلوا وسبقوا إلى الإسلام، وكان الإسلام في حاجة لهم ولإنفاقهم؛ فكانوا أفضل ممن أنفق من بعد وقاتل، والله سبحانه وتعالى يجزي بالعدل بين عباده، ولكن لما كان تفضيل السابقين قد يفهم منه أن لا فضل للاحقين قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: كلٌّ من الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وعدهم الله الحسنى يعني: الجنة»[(١)].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤].

سابعًا: العدل في عدم تحمل أحد وزر غيره:

قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. هو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤٠].

وفيه الدلالة على أن كل واحد من المكلفين فأحكام أفعاله متعلقةٌ به دون غيره، وأن أحدًا لا يجوز تصرفه على غيره، ولا يؤاخذ بجريرة سواه، فهذا هو العدل الذي لا يجوز في العقول غيره»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

(١) تفسير سورة الحديد ص٣٨١-٣٨٤.

(٢) أحكام القرآن ٢/ ٢٧٩.

قال ابن العربي: «المعنى لا تحمل نفسٌ مذنبةٌ عقوبة الأخرى؛ وإنما تؤخذ كل نفسٍ منهم بجريرتها التي اكتسبتها، كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]»[1].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

تكررت هذه الآية الكريمة في موطنين من كتاب الله؛ ولهذا التكرار سر جمال، يوضحه لنا محمد رشيد رضا، فيقول: «﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وإنما تسئلون عن أعمالكم، وتجازون عليها، فلا ينفعكم ولا يضركم سواها، وهذه قاعدةٌ يثبتها كل دينٍ قويم، وكل عقلٍ سليم، ولكن قاعدة الوثنية القاضية باعتماد الناس في طلب سعادة الأخرة، وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين تغلب مع الجهل كل دينٍ وكل عقلٍ، ومع الجهل التقليد المانع من النظر في الأدلة العقلية والدينية جميعًا، اللهم إلا مكابرة الحس والعقل، وتأويل نصوص الشرع، تطبيقًا لهما على ما يقول المقلَدون المتبَعون.

وقد أول المؤولون نصوص أديانهم تقريرًا لاتباع رؤسائهم والاعتماد على جاههم في الآخرة؛ لذلك جاء القرآن يبالغ في تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها، ونفي الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يتأس بهم في العمل الصالح؛ ولذلك أعاد هذه الآية بنصها في مقام محاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الأنبياء العظام، المعتمدين على شفاعتهم وجاههم، وإن قصروا عن غيرهم في الأعمال.

وفائدة الإعادة تأكيد تقرير قاعدة بناء السعادة على العمل دون الآباء والشفعاء، بحيث لا يطمع في تأويل القول طامعٌ، والإشعار بمعنًى يعطيه السياق هنا وهو: أن أعمال هؤلاء المجادلين المشاغبين من أهل الكتاب مخالفةٌ لأعمال سلفهم من الأنبياء، فهم في الحقيقة على غير دينهم»[2].

وقال كذلك: «القاعدة الحادية والثلاثون[3]: أن عمل كل إنسانٍ له أو عليه لا يجزى إلا به، ولا يجزى به سواه، فلا ينفعه عمل غيره ولا يضره؛ وذلك قوله تعالى في خاتمة هذه السورة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]»[4].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٠٠.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٤٠٣-٤٠٤.

(٣) من الأصول والقواعد الشرعية العامة في سورة البقرة.

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ١٠١.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ولا تتعارض هذه الآيات وأمثالها مع قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

فجواب ذلك: أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عنه؛ فكلهم عاصٍ، هذا بفعله، وهذا برضاه به.

وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانتظم الذنب بالعقوبة، ولم يتعد موضعه[(١)].

ثامنًا: العدل في القول:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

في هذه الآية يحذر المولى عز وجل النفوس الضعيفة التي تطبق ميزان العدل، وتشهد بالحق على الآخرين، وإذا كانت القضية تمسهم أو تمس أقاربهم؛ فسرعان ما يميلون عن العدل، ويزيغون عن الحق.

قال ابن كثير: «يأمر الله تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]»[(٢)].

تاسعًا: العدل مع الخصوم:

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

قال الراغب الأصفهاني: «قد يوجد في الاعتداء ما ليس بفساد، وهو مقابلة المعتدي بفعله، نحو: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا الاعتداء ليس بإفساد، بل هو بالإضافة إلى ما قوبل به عدل، فلولا كونه جزاءً لكان إفسادًا»[(٣)].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين»[(٤)].

وقال سيد قطب: «ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانًا، من باب المشاكلة اللفظية، وإلا فهو العدل والقسط، ودفع العدوان عن المظلومين»[(٥)].

وقال الشعراوي: «ولكسر حدة الغل أباح

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٣٩١- ٣٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٩٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٩٠.

(٣) تفسير الراغب ١/ ٢٠٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٢٧.

(٥) في ظلال القرآن ١/ ١٩١.

لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدي على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل في حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك.

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل، فيقول عز وجل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾»[1].

وقال كذلك: «ويثور سؤال: من القادر على تحقيق المثلية بعدالة؟ ونجد على سبيل المثال إنسانًا ضرب إنسانًا آخر صفعة على الوجه، فبأية قوة دفع قد ضرب؟ وفي أي مكان ضرب؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتساوية أمر صعب، وما دام المأمور به: أن أعتدي بمثل ما اعتدي به علي؛ ولن أستطيع تحقيق المثلية، ولربما زاد الأمر على المثلية؛ وبعد أن كنت المعتدى عليه صرت المعتدي؛ بذلك يكون العفو أقرب وأسلم»[2].

وقال الكرماني: «سمى الثانية اعتداءً للمزاوجة ولها نظائرها، منها: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل[4].

وقال البيضاوي: «أي بالعدل الذي أمر الله به ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فيحفظهم، ويعظم شأنهم»[5].

وقال ابن كثير: «أي: بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل»[6].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

قال البيضاوي: «لما أمره بالدعوة وبين له طرقها، أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة، ومراعاة العدل مع من يناصبهم؛ فإن الدعوة لا تنفك عنه، من حيث إنها تتضمن رفض العادات، وترك الشهوات،

(١) تفسير الشعراوي ١٠/٦٣٥٨.
(٢) المصدر السابق ٥/٢٧٦١.

(٣) غرائب التفسير وعجائب التأويل ١/ ٢٠٤. وانظر: إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٢٧١، النكت في القرآن الكريم، الماوردي ص ١٧٩، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د.عبد العظيم المطعني ٢/ ٤٣٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٣٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/١٧٧، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٥٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٩٥، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٩.
(٥) أنوار التنزيل ٢/ ١٢٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١٧.

والقدح في دين الأسلاف، والحكم عليهم بالكفر والضلال»[1].

وقال أبو السعود: «أي: بمثل ما فعل بكم، وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب، نحو: كما تدين تدان، أو على نهج المشاكلة، والمقصود إيجاب مراعاة العدل مع من يناصبهم من غير تجاوزٍ»[2].

وقال الطاهر بن عاشور: «والأمر في قوله: ﴿فَعَاقِبُوا﴾ للوجوب باعتبار متعلقه، وهو قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ فإن عدم التجاوز في العقوبة واجبٌ.

وفي هذه الآية إيماءٌ إلى أن الله يظهر المسلمين على المشركين، ويجعلهم في قبضتهم، فلعل بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحنق على الإفراط في العقاب، فهي ناظرةٌ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ [النحل: ١١٠]»[3].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة»[4].

وقال الزجاج: «سمي الأول عقوبةً، وإنما العقوبة الثاني؛ لازدواج الكلام؛ لأن الجنسين في الفعل معنى واحد، ومثله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ فالثاني ليس بسيئةٍ، ولكنه سمي به؛ ليتفق اللفظ»[5].

ومن أوضح الآيات في الأمر بالعدل مع غير المسلمين:

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ من أهل مكة ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ يقول: وتعدلوا فيهم بإحسانكم إليهم، وبركم بهم.

واختلف أهل التأويل في الذين عنوا بهذه الآية، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله عز وجل عم بقوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص

(١) أنوار التنزيل ٣/ ٢٤٥.
(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٥٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٣٦.
(٤) جامع البيان ١٧/ ٣٢٢.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٢٣، ٤٣٥.

به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ؛ لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح»(1).

وقال سيد قطب: «إن الإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين، وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله، فأما إذا سالموهم؛ فليس الإسلام براغب في الخصومة، ولا متطوع بها كذلك! وهو حتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك، وعدالة المعاملة؛ انتظارًا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع، ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم»(2).

عاشرًا: عدل في جزاء السيئة بمثلها:

قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال الطبري: «معلومٌ أن الأولى من صاحبها سيئة؛ إذ كانت منه لله تبارك وتعالى معصية، وأن الأخرى عدلٌ؛ لأنها من الله جزاء»(3).

وقال ابن كثير: «قال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثةً: ظالمٌ لنفسه، ومقتصدٌ، وسابقٌ بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية، فذكر المقتصد، وهو الذي يفيض بقدر حقه؛ لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم»(4).

وقال النخعي: «كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم؛ فيجترئ عليهم السفهاء، ولكن هذا الانتصار مشروطٌ بالاقتصار على ما جعله الله له، وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة، وظاهر هذا العموم»(5).

وقال السيوطي: «فيه وجوب العدل في الجزاء، وعدم الاعتداء فيه، قال ابن أبي

(1) جامع البيان ٢٣/ ٣٢١- ٣٢٣
(2) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤٤.
(3) جامع البيان ١/ ٣٠٢.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤١٩.
(4) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢١٢.
(5) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٢٠.

نجيح والحسن: لو قال: أخزاه الله، فيقول له: أخزاه الله، وقال السدي: إذا شتمك تشتمه من غير أن تتعدى»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

هذا غيض من فيض صريح مجالات إقامة العدل، فكما أن الشرع كله حكمة وخير، فكذلك كله عدل، فيستدل بما ذكر على ما وراءه، فمحال حصر معاني العدل الصريحة في الشريعة، فضلًا عن المستنبطة.

وقال تعالى بعد ذكره جملة من الأحكام: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠].

أي: ومن يفعل ما حرمته عليه من نكاح من حرمت نكاحه، وتعدى حدوده، وأكل أموال الأيتام ظلمًا، وقتل النفس المحرم قتلها ظلمًا بغير حق، ومن يأكل مال أخيه المسلم ظلمًا بغير طيب نفس منه فسوف نصليه نارًا.

قال ابن كثير: «ينهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل، أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديًا فيه، ظالمًا في تعاطيه، أي: عالمًا بتحريمه، متجاسرًا على انتهاكه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ الآية، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب، ممن ألقى السمع وهو شهيد»[(٢)].

حادي عشر: الإصلاح بين الناس:

قال البخاري: «باب فضل الإصلاح بين الناس، والعدل بينهم»[(٣)].

وقال ابن القيم: «الصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضا الله سبحانه، ورضا الخصمين، فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل، فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم»[(٤)].

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٠- ٤٩٢.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلح.٣/ ١٨٧.
(٤) أعلام الموقعين ١/ ١٠٩- ١١٠.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

قال الألوسي: «إصلاحٍ بين الناس الذي هو من باب العدل»[1].

وقال الجصاص: «قوله عز وجل: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء: ١١٤].

هو نظير قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

وقوله: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[النساء: ٣٥]»[2].

وما ينطبق على الأفراد فيما يتعلق بالتناصر والإصلاح ينطبق أيضًا على الدول التي تدين بالإسلام، فإذا ظلمت دولة وجدت من الدول كافة ما يقدم لها العون والمساعدة؛ حتى يتحقق لها النصر على البغاة والظالمين، وإذا كان الباغي مسلمًا فعليه أن يتيقن أن ردعه عن ظلمه ما هو إلا نصرة له، وقيام بتنفيذ أمر الله؛ حتى يفيء إلى الحق والعدل.

فالتناصر صفة المسلمين -أفرادًا وجماعات ودولًا-، أما أن ينكفئ كل فرد، أو كل دولة على شأنه الخاص؛ فإن ذلك كفيل بتعرض الجميع للضياع، ولن يفيد في هذه الحالة أن يتصف هذا أو ذاك بالإسلام؛ لأن الإسلام الحقيقي يقتضي تنفيذ ما أمر الله به؛ ومن ذلك تحقيق التناصر والإصلاح فيما بين المسلمين بعضهم وبعض من ناحية، وفيما بينهم وبين ربهم من ناحية أخرى.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فهذه الآية الكريمة تبين أن الأخذ بيد المظلوم، والضرب على يد الظالم يؤدي إلى نجاة المجتمع بأسره، ووصوله إلى بر الأمان.

قال العلماء: «لا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا أو لا، فإن كان

(١) روح المعاني ٣/ ١٥٢.
(٢) أحكام القرآن ٣/ ٢٧٦.

الأول؛ فالواجب في ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين، ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم يتحاجزا، ولم يصطلحا، وأقامتا على البغي؛ صير إلى مقاتلتهما، وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل، فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما، وكلتاهما عند أنفسهما محقة؛ فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة، والبراهين القاطعة على مراشد الحق، فإن ركبتا متن اللجاج، ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه، ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين»[1].

ثاني عشر: العدل في القضاء:

إن دور الأمة الإسلامية أن تكون الوصية على البشرية تقيم العدل في الأرض غير متأثرة بمودة أو شنآن، وغير ناظرة في إقامة العدل إلى ما أصابها أو يصيبها من الناس، فهذه هي تكاليف القوامة والوصاية والهيمنة، وغير متأثرة كذلك بانحرافات الآخرين وأهوائهم وشهواتهم، فلا تنحرف فيه شعرة عن منهجها وشريعتها وطريقها القويم لاسترضاء أحد، أو لتأليف قلب، وغير ناظرة إلا إلى الله وتقواه[2].

ومن الآيات التي تبين هذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾[المائدة: ٢].

قال الطبري: «معنى الكلام: ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، ولكن ليعن بعضكم بعضًا بالأمر بالانتهاء إلى ما حده الله لكم في القوم الذين صدوكم عن المسجد الحرام وفي غيرهم، والانتهاء عما نهاكم الله أن تأتوا فيهم وفي غيرهم، وفي سائر ما نهاكم عنه، ولا يعن بعضكم بعضًا على خلاف ذلك»[3].

وقال الأخفش: «لا يُحِقَّنَّ لكم شنآن قوم أن تعتدوا، أي: لا يحملنكم ذلك على العدوان»[4].

وقال ابن كثير: «معناها ظاهرٌ أي: لا يحملنكم بغض قومٍ قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام؛ وذلك عام الحديبية، على أن تعتدوا في حكم الله فيكم، فتقتصوا منهم ظلمًا وعدوانًا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كل أحدٍ.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٨.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٩.

(٣) جامع البيان ٩/ ٤٩١.

(٤) معاني القرآن ١/ ٢٧٢.

وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٥.

وهذه الآية كما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجبٌ على كل أحدٍ، في كل أحدٍ، في كل حالٍ.

وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض»[1].

وقال أبو عبيدة والفراء: «معنى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم بغض قومٍ أن تعتدوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الجور والجريمة»[2].

وقال السعدي: «أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم؛ طلبًا للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جني عليه، أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه»[3].

وقال الشنقيطي: «نهى الله المسلمين في هذه الآية الكريمة أن يحملهم بغض الكفار؛ لأجل أن صدوهم عن المسجد الحرام في عمرة الحديبية، أن يعتدوا على المشركين بما لا يحل لهم شرعًا»[4].

وقال الجصاص: «وقد تضمن ذلك الأمر بالعدل على المحق والمبطل، وحكم بأن كفر الكافرين وظلمهم لا يمنع من العدل عليهم، وأن لا يتجاوز في قتالهم وقتلهم ما يستحقون، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والأمر والاسترقاق دون المثلة بهم، وتعذيبهم وقتل أولادهم ونسائهم؛ قصدًا لإيصال الغم والألم إليهم»[5].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل إنسان، صديقًا كان أو عدوًا.

قال الطبري: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ أيها المؤمنون على كل أحد من الناس، وليًا لكم كان أو عدوًا، فاحملوهم على ما أمرتكم أن تحملوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحد منهم عنه.

وأما قوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فإنه يعني بقوله: ﴿هُوَ﴾ العدل عليهم أقرب

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٢١٩.
(٤) أضواء البيان ١/ ٣٢٨.
(٥) أحكام القرآن ٤/ ٣٩.

لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، يعني: إلى أن تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهل التقوى، وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئًا من معاصيه.

وإنما وصف جل ثناؤه «العدل» بما وصفه به من أنه ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من الجور؛ لأن من كان عادلًا كان لله بعدله مطيعًا، ومن كان لله مطيعًا كان لا شك من أهل التقوى، ومن كان جائرًا كان لله عاصيًا، ومن كان لله عاصيًا كان بعيدًا من تقواه»[(١)].

وقال الراغب الأصفهاني: «إن قيل: كيف قال: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وأفعل إنما يقال في شيئين أشركا في معنى واحد لأحدهما مزية، وقد علمنا أن لا شيء من التقوى ومن فعل الخير إلا هو من جملة العدالة فما معنى قوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؟

قيل: إن «أفعل» -وإن كان كما ذكرت- فقد يستعمل على تقدير بناء الكلام على اعتقاد المخاطب في الشيء، لا على ما عليه من حقيقة الشيء في نفسه، قطعًا لكلامه، وإظهار التبكية، فيقال لمن اعتقد مثلًا في زيد فضلًا -وإن لم يكن فيه فضل-، ولكن لا يمكنه أن ينكر أن عمرًا أفضل منه، فقال: أخدم عمرًا؛ فهو أفضل من زيد، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

وقد علم أن لا خير فيما يشركون بوجه، والآية نزلت في يهود احتالوا النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل: في قريش لما صدوا المسلمين؛ فأمر الله تعالى المسلمين ألا يتركوا معهم مع ذلك استعمال العدالة.

إن قيل: كيف تصور الظلم وقد أبيح للمسلمين أن يقتلوهم ويسبوهم ويسلبوهم؟ وقيل: كل ذلك أبيح لهم على وجه دون وجه، متى أخل لمراعاة الحكم المسنون في شيء من ذلك فهو ظلم، بل من فعل الإنسان بالكافر، مع ما أمر أن يفعل به قصدًا إلى التشفي منه تحريًا لأمر الله، ففي ذلك تعديًا؛ فأوجب الله تعالى تحري العدالة مع كل محق ومبطل، وإقامة الشهادة بالحق في كل أمر، وبين الله أنه تعالى عالم بما يتحرونه، ولا يخفى عليه خافية»[(٢)].

وقال القرطبي: «والمعنى: أتمم عليكم نعمتي فكونوا قوامين لله، أي: لأجل ثواب الله فقوموا بحقه، واشهدوا بالحق من غير ميلٍ إلى أقاربكم، وحيفٍ على أعدائكم، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ترك العدل، وإيثار العدوان على الحق.

وفي هذا دليلٌ على نفوذ حكم العدو على

(١) جامع البيان ١٠/ ٩٦.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٢٩٤.
واعتبره الألوسي تكلفًا، انظر: روح المعاني ٣/ ٢٥٥.

عدوه في الله تعالى ونفوذ شهادته عليه؛ لأنه أمر بالعدل -وإن أبغضه-، ولو كان حكمه عليه وشهادته لا تجوز فيه -مع البغض له-؛ لما كان لأمره بالعدل فيه وجهٌ، ودلت الآية أيضًا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزةٍ -وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك-، فليس لنا أن نقتلهم بمثلةٍ؛ قصدًا لإيصال الغم والحزن إليهم»[1].

وقال ابن كثير: «أي: لا يحملنكم بغض قومٍ على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحدٍ-صديقًا كان أو عدوًا- ولهذا قال: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه، ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ﴾ [النور: ٢٨].

وقوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيءٌ، كما في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وكقول بعض الصحابيات لعمر: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم»[2].

وقال الشعراوي: «أي: لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم، وبغض المؤمن إذا حمله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو؛ لأن الله سيعاقب المؤمن -لو أدخل الهوى والبغض في إقامة الميزان العادل-، فتحكيم البغض والعداء والهوى يكون لصالح الخصوم؛ لذلك لا يحملنكم أيها المؤمنون شنآن -أي بغض- قوم على ألا تعدلوا.

ويضيف الحق: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ والعدالة حين تطلب مع الخصم هي تقريع لذلك الخصم؛ لأنه خالف الإيمان، ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه: إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أن يقول الحق، ولابد أن عقيدته تجعل منه إنسانًا قويًا، وأن دينه الذي أمره بذلك هو نعم الدين.

إذن ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تقرعه؛ لأنه ليس مؤمنًا، لكن لو رأى خصمك أنك قد جرت ولم تذهب إلى الحق فأنت بذلك تشجعه على أن يبقى كافرًا؛ لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى، أما إذا رآك وأنت تقف موقفًا يرضي الله مع أنه خصم لك، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التي آمنت بها هي الحق، وأنك تقيم

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٢.

الحق حتى في أعدائك.

وهكذا يقرع الخصم العقدي نفسه، وقد يلفته ذلك إلى الإيمان.

﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أقرب إلى أي تقوى؟ ألأقرب إلى تقوى المؤمن؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيمًا للعدل والحق، فلعله يرتدع ويعاود نفسه ويقول: إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البغض، وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أنني عدو له؟، فالمعنى النفسي الذي يصيب خصمك، أو من يبغضك أو من بينك وبينه شنآن، حين يراك آثرت الحق على بغضك له يجعله يلتفت إلى الإيمان، الذي جعل الحق يعلو الهوى، ويغلبه ويقهره، ويصير أقرب للتقوى، و أيضًا من يشهد بالقسط؛ هو أقرب للتقوى»[1].

ثمرات اقامة العدل

لإقامة العدل بين الناس ثمرات كثيرة، منها:

أولًا: الأمن في المجتمع:

إن آثار العدل ومباشرته في الحكم، على نحو صورة العدل المطلوب في سياسة الإسلام حسبما جاء في كتاب الله، توفر حتمًا: صيانة الأعراض من الاعتداء عليها، وصيانة النفوس من الاضطهاد والتعذيب، ومن تتبع الخصوصيات لها ومراقبتها، وعدم التفرقة في فرص المعيشة، وتولي الوظائف العامة.

فبالعدل يتحقق الاستقرار والطمأنينة في المجتمع المسلم؛ لما يشعر به كل فرد من أنه ليس أقل من غيره، وأنه سيحصل على حقه في التعليم والوظائف العامة ونحوها.

والقضاء على الفتن الطائفية؛ نظرًا لشعور الذميين بأن لهم حق المواطنة على قدم العدل مع المسلمين.

ولا أدل على معنى الأمن في المجتمع من إقامة العدل بالقصاص من المعتدي؛ ليكف عدوانه عن المجتمع، فيظل المجتمع مستقرًا هادئًا.

وهذا الاستقرار والهدوء عبر عنه المولى بـ«الحياة» فقال: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:

(١) تفسير الشعراوي ٥/ ٢٩٧٦.

179].

فالقصاص فيه ضمان لبقاء المجتمع وحياته[1].

ومن مقتضى رحمته وحكمته سبحانه وتعالى أن يكون التحاكم بين العباد بشرعه ووحيه؛ لأنه المنزه عما يصيب البشر من الضعف والهوى والعجز والجهل، فهو سبحانه الحكيم العليم اللطيف الخبير، يعلم أحوال عباده وما يصلحهم، وما يصلح لهم في حاضرهم ومستقبلهم، ومن تمام رحمته أن تولى الفصل بينهم في المنازعات والخصومات وشئون الحياة؛ ليتحقق لهم العدل والخير والسعادة، بل والرضا والاطمئنان النفسي، والراحة القلبية.

ذلك أن العبد إذا علم أن الحكم الصادر في القضية التي يخاصم فيها هو حكم الله الخالق العليم الخبير، قبل ورضي وسلم -حتى ولو كان الحكم خلاف ما يهوى ويريد-، بخلاف ما إذا علم أن الحكم صادر من أناس بشر مثله، لهم أهواؤهم وشهواتهم؛ فإنه لا يرضى ويستمر في المطالبة والمخاصمة؛ ولذلك لا ينقطع النزاع ويدوم الخلاف، وأن الله سبحانه وتعالى إذ يوجب على العباد التحاكم إلى وحيه رحمة بهم، وإحسانًا إليهم؛ فإنه سبحانه بين الطريق العام لذلك أتم بيان وأوضحه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 58-59].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ويروى: الله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة»[2].

وقال ابن القيم: «الإنسان خلق في الأصل ظلومًا جهولًا، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده، فمن أراد به خيرًا؛ علمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه، فخرج به عن الظلم، ومن لم يرد به خيرًا؛ أبقاه على أصل الخلقة، فأصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم، وقد جعل الله سبحانه للعدل المأمور به حدًا، فمن تجاوزه كان ظالمًا معتديًا، وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه»[3].

(1) المجتمع الإسلامي في ظل العدالة، صلاح الدين المنجد ص 37.

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية 28/ 62- 63.

(3) إغاثة اللهفان 2/ 136-137 بتصرف.

وقال أيضًا: «إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد:

أحدها: مشهد التوحيد، وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: مشهد العدل، وأنه ماضٍ فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه» [1].

ثانيًا: سعة الرزق:

ذكر المولى سبحانه وتعالى في آيات كثيرة أن رغد العيش، وسعة الرزق في إقامة أوامر الله وشرعه، الذي من أولياتها ومقاصدها العدل، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

قال القطان: «أوحى الله إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنه لو استقام الإنس والجن على الحق والعمل بشريعة العدل، ولم يحيدوا عنها لأسقيناهم ماءً غزيرًا، ولرزقناهم سعة في الرزق، ورخاءً في العيش» [2].

وقال محمد بن إسماعيل المقدم: «﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي: على طريقة الحق والعدل. ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: لوسعنا عليهم الرزق، وإنما عبر بالماء الغدق -وهو الكثير- عن سعة الرزق؛ لأن الماء الكثير هو أصل المعاش، وسعة الرزق، ولعزة وجوده بين العرب، فهم يعظمون الماء أكثر من غيرهم؛ فمن ثم وعد الله هؤلاء بقوله: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾» [3].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: «قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفساد القحط، وقلة النبات، وذهاب البركة، قال أبو العالية: من

---

(١) الفوائد ص ٤٨.

(٢) تيسير التفسير، القطان ٣/ ٣٧٦.

(٣) تفسير القرآن الكريم، المقدم ١٨٣/ ٤.

عصى الله في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

قال: البركات: المطر والنبات، وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير: ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني: المطر والنبات، وقال هود لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

ذكر المفسرون: أن قوم هود حبس الله عنهم المطر بسبب ذنوبهم ثلاث سنين، فقال لهم هود: إن آمنتم أحيا الله بلادكم، وزادكم عزًّا على عزكم. وقال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

قال قتادة: علم نبي الله أنهم أهل حرص على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله؛ فإن في طاعة الله سعادة الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

ومعنى الآية: لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، وعدلوا إليها، واستمروا عليها؛ لأسقيناهم ماءً غدقًا، يعني: سعة الرزق، وضرب الماء الغدق مثلًا؛ لأن الخير والرزق كله من المطر، هذه الآيات تدل على أن المعاصي سبب لحبس المطر، وذهاب البركة، وأن طاعة الله سبب للمطر والبركات.

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي مخدع أنه قال: وجد رجل في زمان زياد أو ابن زياد صرة فيها حب يعني: من بر أمثال النوى، مكتوب فيها: هذا نبت في زمان كان يعمل فيه العدل، وجاءت في هذا المعنى أحاديث»[1].

وفي المقابل ذكر الله تعالى أن البغي والظلم هو سبب الحرمان من خيراته ورزقه فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ٣/ ١٣٣- ١٣٤.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

وبمفهوم المخالفة من هذه الآيات فإن العدل هو سبب إغداق الله على عبيده بكل أصناف النعيم.

ثالثًا: الثقة بين الحاكم والرعية:

العدل هو أول واجبات ولاة الأمور، وهو وضع الأشياء في مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه، والمساواة في الإنصاف بميزان القوانين، وبتحقيقه تكون الثقة بين الحاكم والرعية أقوى من الجبال الرواسي.

سأل الإسكندر حكماء أهل بابل: هل الشجاعة عندكم أبلغ أو العدل؟ فقالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة، فإلى العدل انتهت الرياسة الكاملة، والمملكة الفاضلة[(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

قال الطبري: «أولى الأقوال بالصواب في معنى الآية قول من قال: هو خطاب من الله إلى ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره في فيئهم وحقوقهم، أو ما ائتمنوا عليه من أمورهم بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية»[(٢)].

وقال القرطبي: «فالله سبحانه وتعالى يأمر الحكام بإقامة العدل بين الناس في أحكامهم؛ حتى لا تضيع الحقوق، وتنتفي الأمانة».

وقال أيضًا: «الأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس، فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال، ورد الظلمات، والعدل في الحكومات، وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع، والتحري في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه»[(٣)].

وقال البيضاوي: «هو خطاب يعم المكلفين؛ ولأن الحكم وظيفة الولاة -قيل الخطاب لهم-، أي: وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم، أو يرضى بحكمكم»[(٤)].

(١) العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، د.عزت القرني ص ٧٦.

(٢) جامع البيان ٧/ ١٧١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٥٦.

(٤) أنوار التنزيل ٢/ ٨٠.

وقال الرازي: «أجمعوا على أن من كان حاكمًا وجب عليه أن يحكم بالعدل، وقد أوجب الله العدل على جميع الخلق -حتى الأنبياء-، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]»[١].

وقال الشوكاني: «والعدل هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله، ولا في سنة رسوله؛ فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلًا عن أن يحكم بها بين عباد الله»[٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال الطاهر بن عاشور: «وإنما أمر بذلك بعد الأمر بالعدل، وأداء الأمانة؛ لأن هذين الأمرين قوام نظام الأمة، وهو تناصح الأمراء والرعية، وانبثاث الثقة بينهم»[٣].

فهذه النصوص -وإن كانت تمتلئ بالتفخيم في أمر الحاكم-؛ فلأنه القائم بأمر الله في أرضه، فهي كذلك تحذره في نفس الوقت؛ لأنه ليس مالكًا للعباد، فطاعته ما قادهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[٤].

فعلى الحاكم الاجتهاد في إقامة العدل والاستقامة، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم، فيكون حكمه وشهادته لوجه الله، دون تحيز أو محاباة، ولو كان في ذلك الحكم وتلك الشهادة مسٌّ به شخصيًا، أو إلحاق أذى أو مضرة بوالديه أو بأقاربه وأنسبائه؛ ذلك أن صلة البر لا تكون بكتمان الحق، ولا بإعانة هؤلاء على ما ليس لهم بحق، فالحق أحق بالإتباع، وهو الحاكم على كل إنسان.

«فالعدل الذي يجب أن يتحلى به الحاكم لا يميل ميزانه الحب والبغض، ولا تغير قواعده المودة والشنآن، العدل الذي لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد، ولا بالتباغض بين الأقوام، فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعًا، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب، ولا مال ولا جاه، كما تتمتع به الأقوام الأخرى،

(١) مفاتيح الغيب ١٠/ ١١٠.
(٢) فتح القدير ١/ ٥٧١.
(٣) التحرير والتنوير ٥/ ٩٨.
(٤) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم ٤/ ١٧٦.

ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن، وتلك قمة العدل لا يبلغها أي قانون دولي إلى هذه اللحظة، ولا أي قانون داخلي كذلك»[1].

موضوعات ذات صلة

الإنصاف، التمكين، الحساب، الحكم، السياسة، الظلم، الوسطية

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب ص١٠٥.



عناصر الموضوع

مفهوم العذاب

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس في مادة «عذب»: «العين والذال والباء أصل صحيح، لكن كلماته لا تكاد تقاس، ولا يمكن جمعها إلى شيء واحد، العذاب: يقال منه: عذب تعذيبًا، وناس يقولون: أصل العذاب الضرب، واحتجوا بقول زهير:

وخلفها سائق يحدو إذا خشيت   نه العذاب تمد الصلب والعنقا

قال: ثم استعير ذلك في كل شدة»(١).

وقال ابن منظور: «والعذاب: النكال والعقوبة، يقال: عذبته تعذيبًا وعذابًا، وكسره الزجاج على أعذبة، فقال في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠]؛ قال أبو عبيدة: تعذب ثلاثة أعذبة؛ قال ابن سيده: فلا أدري، أهذا نص قول أبي عبيدة، أم الزجاج استعمله، وقد عذبه تعذيبًا، ولم يستعمل غير مزيد»(٢).

وقال الفيروز آبادي: «والعذاب: النكال، أعذبة وقد عذبه تعذيبًا، وأصابه عذاب عذبين، كبلغين، أي: لا يرفع عنه العذاب»(٣).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

العذاب: «هو ألمٌ جسديٌ أو نفسيٌ شديد»(٤).

وقيل: «كل ما شق على النفس احتماله وآلمها»(٥).

وقيل: «كل مؤلم للنفس إذا كان جزاء على سوء»(٦).

بعد سرد أقوال علماء اللغة في معنى العذاب، نجد أن معنى العذاب في الاصطلاح لا يبتعد كثيرًا عن المعنى اللغوي، حيث يأتي العذاب بمعنى العقاب والنكال، وكل ما شق على النفس.

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٢٦٠.
(٢) لسان العرب ١/ ٥٨٥.
(٣) القاموس المحيط ص ١١٣
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار، ٢/ ١٤٧٤.
(٥) معجم لغة الفقهاء، قلعجي ١/ ٣٠٧.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٩.
وانظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٩

العذاب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عذب) الدالة على «العذاب» في القرآن الكريم (٣٧١) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة:٢٦]
الفعل المضارع	٣٧	﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١]
اسم الفاعل	٤	﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝﴾ [الإسراء:١٥]
اسم المفعول	٤	﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ۝﴾ [الشعراء:٢١٣]
الاسم	٣٢٢	﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]

ذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن (العذاب) في القرآن على تسعة أوجه[٢]، وأوصلها بعضهم إلى عشرة أوجه[٣]، ولكن بتدبر هذه الأوجه والرجوع إلى كتب التفسير نجد أن العذاب لم يخرج عن معناه اللغوي: وهو النكال والعقوبة[٤]، أو اسمٌ لما استمر ألمه[٥].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

أي: «ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا وسخطنا، وضيقنا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادهم، وقتلنا سراتهم بالسيف»[٦].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.
(٢) الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٤٣-٣٤٤.
(٣) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٤٨- ٤٥١.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٨٣.
(٥) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٤٨.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٩٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الألم:

الألم لغة:

أصل مادة (ألم) تدل على الوجع، يقال: وجع أليم[١].

الألم اصطلاحًا:

هو الوجع الذي يلحق بالجسد، وينتج عن عقاب، أو مرض وما شابه[٢].

الصلة بين العذاب والألم:

«أن العذاب أخص من الألم، وذلك أن العذاب هو الألم المستمر، والألم يكون مستمرًا وغير مستمر، ألا ترى أن قرصة البعوض ألم وليس بعذاب، فإن استمر ذلك قلت عذبني البعوض الليلة، فكل عذاب ألم وليس كل ألم عذابًا[٣]».

٢ العقاب:

العقاب لغة:

مادة (عقب) لها أصلان صحيحان: أحدهما: يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والآخر: يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة[٤].

العقاب اصطلاحًا:

العقاب: جزاء الشر[٥]، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذنب من المحنة[٦].

الصلة بين العذاب والعقاب:

«أن العقاب ينبئ عن استحقاق، وسمي بذلك؛ لأن الفاعل يستحقه عقيب فعله، ويجوز أن يكون العذاب مستحقًا وغير متسحق[٧]».

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٢٦.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٠.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٩.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٧٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص٦٥٤.
(٦) كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١١٩٢ .بتصرف
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٠.

٣ التنكيل:

التنكيل لغة:

قال ابن منظور: «نكل به تنكيلًا إذا جعله نكالًا وعبرة لغيره، ويقال: نكلت بفلان إذا عاقبته في جرم أجرمه عقوبة تنكل غيره عن ارتكاب مثله، وأنكلت الرجل عن حاجته إنكالًا إذا دفعته عنها»[(١)]

التنكيل اصطلاحًا:

هو العقاب بما يروع ويردع ويجعله عبرةً ودرسًا لغيره[(٢)].

الصلة بين العذاب والتنكيل:

التنكيل هو جزء من العذاب، بل هو ناتج عن العذاب نفسه.

٤ الجزاء:

الجزاء لغة:

المكافأة على الشيء[(٣)].

الجزاء اصطلاحًا:

هو الغناء والكفاية والمكافأة بالشيء وما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣][(٤)].

الصلة بين الجزاء والعذاب:

الجزاء هو ما يناله الإنسان على عمله الشر من عذاب، فالعذاب ناتج عن الجزاء.

(١) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٧٧.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٣/ ٢٢٨٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٤٣، الكليات، الكفوي ص ٣٥٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٥١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص ١٩٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٨٠.

أنواع العذاب

يمكن تقسيم العذاب إلى نوعين رئيسين:

أولًا: عذاب حسي:

ذكر القرآن الكريم صورًا من العذاب الحسي الذي لحق وسيلحق بالكفار والعصاة، ومن تلك الصور:

١ . الغرق والطوفان.

الذين عذبوا بالغرق والطوفان كثر، أذكر بعضًا منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١ . قوم نوح.

فقوم نوح عليه السلام هم أول قوم من الأقوام ينزل بهم هذا النوع من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

لقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، ولكنهم كذبوه، فأخذهم الطوفان، والحال أنهم كانوا مستمرين على الظلم والكفر، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره، والطوفان: هو ما يطلق على كثرة وشدة السيل والريح والظلام، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء[١].

وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح:٢٥].

قال ابن كثير: «من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم أغرقوا فأدخلوا نارًا»[٢].

٢ . فرعون وجنوده.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

أي: فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذًا سريعًا حاسمًا، فأغرقناه هو وجنوده في البحر فكانت عاقبتهم الإغراق الذي أزهق أرواحهم واستأصل باطلهم[٣].

٣ . مملكة سبأ.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٦-١٧].

والمعنى: فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا، فكانت نتيجة ذلك، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف، الذي اجتاح أراضيهم، فأفسد مزارعهم، وأجلاهم عن ديارهم، ومزقهم شر ممزق وبدلناهم بالجنان اليانعة التي كانوا يعيشون فيها،

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٣٦.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٦٤.

بساتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل، وتناثرت في أماكنهم الأشجار التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بدلا من تلك الأشجار التي كانت تحمل لهم ما لذ وطاب، وعظم نفعه[1].

٢. الريح.

وهذا النوع من العذاب لحق بقوم عاد لما كفروا بربهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

أي: فأرسلنا على قوم عاد ريحًا شديدة الهبوب والصوت، وشديدة البرودة أو الحرارة في أيام نحسات أو مشؤومات نكدات عليهم بسبب إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب المخزي لهم في الحياة الدنيا[2].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤].

وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم إذا رأى ريحًا كرهه وظهر ذلك في وجهه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعًا ضاحكًا، حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا، عرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله أرى الناس، إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤][3].

٣. الحاصب[4].

الذين عذبوا بهذا النوع من العذاب:

١. قوم لوط.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت:٤٠].

أي: فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه، بأن أرسلنا عليه ريحًا شديدة رمته بالحصباء

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٨٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح، رقم ٨٩٩، ٢/ ٦١٦.

(٤) الحاصب: الريح الشديدة تحمل التراب والحصباء.

انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٧٧.

فأهلكته[1].

قال القرطبي: «قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني: قوم لوط، والحاصب ريح يأتي بالحصباء، وهي الحصى الصغار، وتستعمل في كل عذاب»[2].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

٢. أصحاب الفيل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ١-٥].

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: من طين متحجر محرق، وعن عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة، فإذا أصاب أحدهم حجر منها، خرج به الجدري، وكان ذلك أول يوم رئي فيه الجدري بأرض العرب[3].

وهو الذي حذر الله المشركين منه، قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧].

أي: بل أأمنتم - أيها الناس - من السماء، وهو الله عز وجل بسلطانه وقدرته، أن يرسل عليكم حاصبًا أي: ريحًا شديدة مصحوبة بالحصى والحجارة التي تهلك، فحينئذ ستعلمون عند معاينتكم للعذاب، كيف كان إنذاري لكم متحققًا وواقعًا وحقًا[4]، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء: ٦٨].

٤. الجوع والعطش وضيق الأرزاق.

وهو ما عذب به قوم سبأ، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

أي: وجعل الله قرية موصوفة بهذه الصفات مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم بهذه النعم، فكان موقف أهل هذه القرية من تلك النعم الجليلة، أنهم جحدوا هذه النعم، ولم يقابلوها بالشكر، وإنما قابلوها بالإشراك بالله تعالى مسدي هذه النعم، فأذاق سبحانه أهلها لباس الجوع والخوف، بسبب ما كانوا يصنعون من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله[5].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ٢٤٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٣٤.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٢٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٠٩.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

قال ابن كثير: «بان النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي ليذيقهم بعض الذي عملوا»، وقال: «يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارًا منه على صنيعهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي»[١].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم)[٢].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٢٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه، رقم ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٢، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٤٠.
قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ولم يتعقبه الذهبي.

٥. الخسف[٣].

وهو العذاب الذي لحق بقارون لما بغى وأفسد في الأرض، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا﴾ من الخسف وهو النزول في الأرض، يقال: خسف المكان خسفا- من باب ضرب- إذا غار في الأرض[٤].

قال ابن كثير: «لما ذكر الله تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم أن أباه حدثه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجلٌ يجر إزاره من الخيلاء، خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)[٥]»[٦].

(٣) الخسف: هو الذاهب بالشيء، ومنه خسفت الأرض، أي: غارت بما عليها واختفى بداخلها.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٣٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٨٥، ٤/ ١٧٧.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٥٥.

وهو أحد أنواع العذاب التي تكون في آخر الزمان كما في حديث عمران بن حصين حيث سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (في هذه الأمة خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ)، فقال رجلٌ من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذاك؟ قال: (إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور)[1].

وقد حذر الله العصاة من هذا العذاب، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ:٩].

ومن صور الخسف الزلازل التي تميد بالأرض فتخرب المدن بعد عمارها، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم أن الزلازل تكثر بين يدي الساعة، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل... وتكثر الزلازل)[2].

قال ابن حجر: «وقد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها»[3].

٦. المسخ.

المسخ: هو تحويل صورة إلى ما هو أقبح منها[4]، أو هو كما قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: «تشويه الخلق والخلق، وتحويلهما من صورة إلى صورة، قال بعض الحكماء: المسخ ضربان: مسخ خاص يحصل في الفينة بعد الفينة وهو مسخ الخَلْق، ومسخ قد يحصل في كل زمان ومكان، وهو مسخ الخُلُق؛ وذلك بأن يصير الإنسان متخلقًا بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات، نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفي الشره كالخنزير»[5].

وقد عذب الله عز وجل بني إسرائيل بهذا النوع من العذاب عندما اعتدوا في السبت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥].

يرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أي: إنهم مسخوا مسخًا نفسيًا فصاروا كالقردة في شرورها

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخسف، رقم ٢٢١٢، ٤/ ٤٩٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب خروج النار، رقم ٧١٢١، ٩/ ٥٩.

(٣) فتح الباري، ١٣/ ٨٧.

(٤) التعريفات، الجرجاني، ص ٢٢٥.

(٥) المفردات، ص ٤٦٨

وإفسادها لما تصل إليه أيديها، و لكن جمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير [(١)]

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحذر أهل الكتاب - إذا كذبوه وخالفوا أمره - أن يحل بهم ما حل بأسلافهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وهذا النوع من العذاب الذي أحله الله بالسابقين؛ توعد الله به اللاحقين المخالفين من هذه الأمة، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري، قال حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري- والله ما كذبني- سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ليكونن من أمتي أقوامٌ، يستحلون الحر [(٢)] والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوامٌ إلى جنب علمٍ، يروح عليهم بسارحةٍ لهم، يأتيهم - يعني: الفقير - لحاجةٍ فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة) [(٣)].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا العذاب يكون في هذه الأمة، ووصف ذنب أولئك الممسوخين والذي بسببه يمسخهم الله، فقال صلى الله عليه وسلم: (سيكون في أمتي خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ) [(٤)].

٧. الصيحة [(٥)].

وهي عذاب الله الذي عذب به قوم صالح، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

والصيحة هي كما قال القرطبي في تفسيرها: «صيح بهم فماتوا، وقيل: صاح بهم جبريل، وقيل: غيره، وقال أيضًا: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم» [(٦)].

والمعنى: وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح عليه السلام عن طريق الصيحة

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ١٧٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٦٠.

(٢) الحر بكسر الحاء هو الفرج، جاء في الحديث كناية عن الزنا.
انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٦/ ٥١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر.رقم ٥٥٩٠، ٧/ ١٠٦.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخسف، رقم ٢١٥٢، ٤/ ٤٥٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٩٣.

(٥) الصياح: الصوت، وهو صوت كل شيء إذا اشتد، والصيحة هي العذاب، كعذاب قوم صالح.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٢١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٢٤٢، ٩/ ٦١.

الشديدة التي صيحت بهم بأمر الله عز وجل فأصبحوا بسببها في ديارهم جاثمين أي: هلكى صرعى، ساقطين على وجوههم، بدون حركة[1]، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾[القمر:٣١].

وجاء في السنة ما يوضح ذلك، فعن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (**لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني: الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فأخذتهم الصيحة فأهمد الله من تحت السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله، قيل من هو؟ قال: أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**)[2].

٨. القتل والصلب وتقطيع الأعضاء والنفي من الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣].

والمعنى: إنما جزاء أي: عقاب الذين يحاربون الله ورسوله أي: يخالفونهما ويعصون أمرهما، ويعتدون على أوليائهما ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ أي: يعملون بسرعة ونشاط في الأرض لا من أجل الإصلاح وإنما من أجل الإفساد فيها عن طريق تهديد أمن الناس، والاعتداء على أموالهم وأنفسهم، جزاء هؤلاء ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ والتقتيل هو القتل، إلا أنه ذكر بصيغة التضعيف لإفادة الشدة في القتل وعدم التهاون في إيقاعه عليهم، لكونه حق الشرع وللإشارة إلى الاستمرار في قتلهم ما داموا مستمرين في الجريمة فكلما كان منهم قتل قتلوا.

﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ والتصليب: وضع الجاني الذي يراد قتله مشدودًا على مكان مرتفع بحيث يرى بعد القتل ليكون عبرة لغيره، وردعًا له عن ارتكاب المعاصي والجرائم، قالوا: ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام وقيل: لمدة يوم واحد. وجيء هنا أيضًا بصيغة التضعيف لإفادة التشديد في تنفيذ هذه العقوبة وإثبات أنه لا هوادة فيها.

﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ أي: تقطع مختلفة، فلا تكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد بل

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٢٤٨، ٢/ ٣٥١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

تكونان من جانبين مختلفين.

﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: يطردوا من الأرض التي اتفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى ليتشتت شملهم، ويتفرق جمعهم، مع مراقبتهم والتضييق عليهم. وفسر بعضهم النفي بالحبس في السجون، لأن فيه إبعادا لهم وتفريقا لجمعهم[1].

ثانيًا: العذاب المعنوي:

وقد ذكر القرآن الكريم صورًا من العذاب المعنوي، والتي منها:

١ . الخزي والصغار.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

يبين الله عز وجل العقاب الذي سيلحق بالذين يفرقون بين أحكام الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى القتل والإخراج من الديار، اللذين نقضوا بهما عهد الله بغيًا وكفرًا والخزي في الدنيا هو الهوان والمقت والعقوبة ومن مظاهره: ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلة بإجلاء بنى قينقاع والنضير عن ديارهم، وقتل بنى قريظة وفتح خيبر، وما لحقهم بعد ذلك من هوان وصغار، وتلك سنة الله في كل أمة لا تتمسك بدينها ولا تربط شئونها بأحكام شريعتها وآدابها[2].

وهو العقاب الذي سيلحق بمن منع الذكر والصلاة في مساجد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤].

قال ابن كثير: «عندما حج النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع لم يجترئ أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام، وهذا هو الخزي في الدنيا لهم، المشار إليه بقوله تعالى: لهم في الدنيا خزيٌ لأن الجزاء من جنس العمل»[3].

وهو العقاب الذي سيلحق بالمتكبر المغرور بنفسه، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١٤٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٨٧.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌ﴾ [الحج:٩]. أي: هوان وذلة وصغار[١].

وهو ما سيلحق الكفار يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]

قال سيد طنطاوي في تفسير الآية: «وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ في مقام التعليل لضراعتهم بأن يبعدهم عن النار، أي: أبعدنا يا ربنا عن عذاب النار، فإنك من تدخله النار تكون قد أخزيته أي أهنته وفضحته على رؤوس الأشهاد، والخزي: مصدر خزي يخزى بمعنى ذل وهان بمرأى من الناس، وفي هذا التعليل مبالغة في تعظيم أمر العقاب بالنار»[٢].

٢. الفضيحة.

من أسماء سورة التوبة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين وبينت نواياهم الخبيثة، وهذه بعض الآيات من السورة تفضحهم.

قال تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٦].

قال صاحب المنار: «هذه الآيات في بيان شأن آخر من شئون المنافقين التي كشفت سوأتهم فيها غزوة تبوك، أخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ﴾ قال: كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون: عسى أن لا يفشي علينا هذا، وعن قتادة قال: كانت هذه السورة تسمى الفاضحة، فاضحة المنافقين، وكان يقال لها المنبئة، أنبأت بمثالبهم وعوراتهم»[٣].

الآيات التي فضحت المنافقين في القرآن الكريم كثيرة، أذكر بعضًا منها:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦٢٨.
(٢) التفسير الوسيط، ٢/ ٣٧٤.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٥٣.

﴿ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ٨-١٦]

قال الزمخشري: «وصف الله عز وجل حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وفضحهم، وسفههم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل طغيانهم، ودعاهم صما بكمًا عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة»[١].

فالآيات السابقة فضحت المنافقين بشكل واضح وصريح على رؤوس الأشهاد، وأظهرتهم على حقيقتهم.

وفي موطن آخر يفضح الله المنافقين ويكذبهم، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون:١-٣].

أي: إذا حضر المنافقون إلى مجلسك يا محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا لك على سبيل الكذب والمخادعة والمداهنة، نشهد أنك رسول من عند الله تعالى، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك، فيفضحهم الله ويكذبهم ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ والله تعالى يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم: نشهد إنك لرسول الله، لأن قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذي جئت به[٢].

٣. الإهانة.

جاء في مادة (هون): «الهون: الخزي، والهون، بالضم: الهوان، والهون والهوان: نقيض العز»[٣]، ورجل فيه مهانة أي ذلٌّ وضعف[٤].

وأذكر بعض الآيات التي تحدثت عن هذا النوع من العذاب:

قال تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧].

المهين؛ هو العذاب الذي يقترن به الخزي والذل، وهو أنكى وأشد على المعذب[٥].

وقال تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٩].

يعني: أنه يبقى في العذاب والهوان

---

(١) الكشاف، ١/ ٥٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٤٣٨.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٣٦/ ٢٩٠.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢.

صاغرًا حقيرًا إلى ما لا نهاية[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

أي: عذاب يوقعهم في الذل والمهانة والصغار في الدنيا والآخرة[2].

٤ . الذل.

وهو العقاب الذي سيلحق بمن اتخذ آلهة أخرى غير الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

والمعنى: إن الذين اتخذوا العجل معبودًا، واستمروا على ضلالتهم سيصيبهم ذل وهوان وصغار في الحياة الدنيا، وبمثل هذا الجزاء في الآخرة أيضًا[3].

وهو العقاب الذي لحق ببني إسرائيل؛ لأنهم كفروا بآيات الله عز وجل، وقتلوا أنبيائهم فكان الذل والهوان جزاؤهم، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

[البقرة: ٦١].

[انظر: الإهلاك: وسائل الإهلاك]

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٤٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٤٧.

(٣) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٥/ ٤٧٠.

الأسباب الموجبة للعذاب

الأسباب التي توجب العذاب على المعذب كثيرة، سنتعرض لأهمها في هذا المبحث.

أولًا: الشرك والكفر:

مما يوقفنا على عظم جريمة الشرك والكفر قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾

[مريم:٨٨-٩١].

وقال تعالى محذرًا من الشرك الذي أحل العقوبة بالأمم السابقة: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩].

قال ابن كثير: «الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم، وكذلك أنتم أيها المشركون: احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر»[4].

لقد جعل الله العقوبة للأمم الكافرة سنة له في خلقه، فقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٦٩.

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا سنة الله بهم في عاجل الدنيا على كفرهم به أليم العقاب، يقول: فهل ينتظر هؤلاء إلا أن أحل بهم من نقمتي على شركهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللت بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم»[1].

وقد جاءت الآيات تتوعد الأمم الكافرة بسنة الله الماضية في أهل الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:٥٨].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم عذابًا شديدًا إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق:٨-٩]»[2].

وقال القرطبي: «أجرى الله العذاب على الكفار، وجعل ذلك سنة فيهم، فهو يعذب بمثله من استحقه لا يقدر أحد أن يبدل ذلك ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره»[3].

ثانيًا: الطغيان والظلم:

ذكر القرآن الكريم أن سبب مصرع كثير من الأمم، الظلم والطغيان، كقوم عاد وثمود وفرعون، فقال تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:٩-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء:١١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٥٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة؟ فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضًا واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره»[4].

والظلم من المعاصي التي يعجل الله

---

(١) جامع البيان، ٢٠/ ٤٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٣٦٠.
(٤) جامع البيان، ١٦/ ٣٨٢.

عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)(١).

وقد تتأخر عقوبة الظلم إلى حين وأجل يعلمه الله، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) قال ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢](٢).

ثالثًا: كثرة المعاصي والمنكرات وقلة الأمر بالمعروف:

من الأسباب التي تحل العذاب العاجل في الأمم فشو المنكرات وشيوعها، وذلك عندما تقصر الأمة بواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

والمراد بالفتنة هنا العذاب الدنيوي، كالأمراض، والقحط، واضطراب الأحوال، وتسلط الظلمة، وعدم الأمان وغير ذلك من المحن والمصائب والآلام التي تنزل بالناس بسبب غشيانهم الذنوب، وإقرارهم للمنكرات، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٣).

عن زينب بنت جحشٍ رضي الله عنها: (أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحشٍ فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)(٤).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)(٥).

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٠٣٧٥، ٣٤/١٠، والترمذي في سننه، رقم ٢٥١١، ٤/٦٦٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/٥٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك)، رقم ٤٦٨٦، ٦/٧٤.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٨/٤٦٥٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣٣٤٦، ٤/١٣٨.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٠١٩، ٢/١٣٣٢، والحاكم في المستدرك، ٤/٥٤٠.



رابعًا: كفران النعم:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

قال الإمام الطبري: «ولئن كفرتم أيها القوم نعمة الله فجحدتموها بترك شكره عليها وخلافه في أمره ونهيه وركوبكم معاصيه إن عذابي لشديد، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي»[(١)].

وقد ذكر القرآن الكريم مصارع الأمم التي كفرت بنعم الله عز وجل فقال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

قال المناوي: «ما زال شيء عن قوم أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم، وفي الحكم: من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها، وقال الغزالي: والشكر قيد النعم، به تدوم وتبقى، وبتركه تتحول»[(٢)].

خامسًا: ترك الصلاة:

من تهاون بالصلاة وضيعها فهو متوعد بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

والصلاة من أعظم الذكر.

وقد جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم تتحدث عن العذاب الذي أعده الله لتاركي الصلاة، فقال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩].

وقال أيضًا: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون:٤-٥].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بالعذاب الذي يلقاه في قبره المتهاون بالصلاة، ففي الصحيح عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص. وإنه قال ذات غداة: إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر

قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ولم يتعقبه الذهبي.

(١) جامع البيان، ١٣/ ١٨٦.

(٢) فيض القدير ٣/ ٤١٨.

فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، قال: قلت لهما سبحان الله! ما هذان؟ قال قالا لي: انطلق انطلق إلى أن قال: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر؛ فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة)[1]، ومعنى يثلغ رأسه: أي يشقه، ويتدهده: يتدحرج.

سادسًا: منع الزكاة:

قاتل الصديق رضي الله عنه من فرق بين الصلاة والزكاة، وأقره على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، وما ذاك إلا لعظيم مكانتها في هذا الدين.

فإذا كانت الزكاة بهذه المكانة فلا عجب أن رتب الشارع العقوبات العظيمة على من منعها، ومن تأمل العذاب المترتب على منع الزكاة أدرك تمام الحكمة الإلهية في المناسبة بين الذنب وبين العقوبة، فإذا كان من معاني الزكاة البركة والنماء، فإن من عقوبة منعها منع المطر الذي تنمو به الخيرات، وتخرج الأرض بركتها، ومن عقوبتها أيضًا أن يبتلى الناس بالسنين وهي الجدب والقحط، فلما منعوا فضول أموالهم؛ شدد الله عليهم في أرزاقهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم ٧٠٤٧، ٩/ ٤٤.

قال ابن القيم رحمه الله: «وتأمل حكمة الله في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين؛ كيف جوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحق فمنعتم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم»[2].

أما العذاب الذي سيلحق مانعي الزكاة في الآخرة يتضح من خلال قول الحق تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

سابعًا: ترك الجهاد في سبيل الله:

بين النبي صلى الله عليه وسلم مكانة الجهاد في سبيل الله بأنه ذروة سنام هذا الإسلام؛ وبين أيضًا العاقبة المترتبة على تركه، وهذا على سبيل المقابلة، فلما كان الجهاد سبيل العز والسؤدد؛ كان تركه سبيل الذلة والمسكنة.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا

(٢) مفتاح دار السعادة، ١/ ٣١٥.

تبايعتم بالعينة[1]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[2].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة: ٣٩].

قال نجدة بن نفيع رضي الله عنه: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيًا من أحياء العرب فتثاقلوا؛ فأمسك عنهم المطر، وكان عذابهم[3].

[انظر: الإهلاك: أسباب الإهلاك]

(١) العينة: أن يبيع سلعة بثمن لأجل ثم يشتريها منه بأقل منه.
انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، ٣/ ٢٧٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ١٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٢٥٠٤، ٢/ ١١٤.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

استعجال العذاب

أخبر تعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم أن المشركين استعجلوا العذاب في الدنيا من باب الاستهزاء والسخرية فنزل بهم العذاب سريعًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

قال الزمخشري: «وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعنى: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر، ومرادهم نفي كونه حقًا، وإذا انتفى كونه حقًا لم يستوجب منكره عذابًا، فكان تعليق العذاب بكونه حقًا، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقًا فأمطر علينا حجارة من السماء، فإن قلت: ما فائدة قوله: من السماء والأمطار لا تكون إلا منها؟، قلت: كأنهم يريدون أن يقولوا: فأمطر علينا السجيل وهي الحجارة المسومة للعذاب، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل»[4].

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

(٤) الكشاف، ٢/ ٢١٦.

قال الألوسي: «قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ أي: دعا داع به، فالسؤال بمعنى الدعاء، والمراد: استدعاء العذاب وطلبه، والسائل هو النضر بن الحارث- كما روى النسائي وجماعة وصححه الحاكم- حيث قال إنكارًا واستهزاءً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وقيل السائل: أبو جهل، حيث قال: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾»[1].

قال طنطاوي: «وعلى أية حال فسؤالهم عن العذاب، يتضمن معنى الإنكار والتهكم، كما يتضمن معنى الاستعجال، كما حكته بعض الآيات الكريمة، ومن بلاغة القرآن، تعدية هذا الفعل هنا بالباء، ليصلح لمعنى الاستفهام الإنكاري، ولمعنى الدعاء والاستعجال»[2].

ولما توعد الله عز وجل الكفار بالعذاب في الآخرة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٨].

استعجلوا ذلك العذاب، وقالوا: متى يحصل ذلك كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [يونس: ٥٠-٥١].

والمعنى: أخبروني أيها الجاهلون الحمقى: أي دافع جعلكم تستعجلون نزول العذاب؟ سواء أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه، ولا يمكن أن يتعجله عاقل، لأنه كما قال الزمخشري: «أن العذاب كله مكروه، مر المذاق، موجب للنفار منه، فكيف ساغ لكم أن تستعجلوا نزول شيء فيه هلاككم ومضرتكم؟!!»[3].

فالآية الكريمة توبيخ لهم على استعجالهم وقوع شيء من شأن العقلاء أنهم يرجون عدم وقوعه، ولذا قال القرطبي: «قوله: «ماذا يستعجل منه المجرمون» استفهام معناه التهويل والتعظيم، أي: ما أعظم ما يستعجلون به، كما يقال لمن يطلب أمرا تستوخم عاقبته: ماذا تجنى على نفسك؟!»[4].

وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ [الرعد: ٦].

أي: أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الحال في الطغيان، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعقاب الله إذا ما استمروا في كفرهم، سخروا منه، وتهكموا

(١) روح المعاني، ١٥/ ٦٢.
(٢) التفسير الوسيط، ١٥/ ٩٢.
(٣) الكشاف، ٢/ ٣٥١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٥٠.

به وقالوا له على سبيل الاستهزاء: ائتنا بما تعدنا به من عذاب إن كنت من الصادقين[1].

قال طنطاوي: «والجملة الكريمة تحكي لونا عجيبا من ألوان توغلهم في الجحود والضلال، حيث طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم تعجيل العقوبة التي توعدهم بها، بدل أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلامة والأمان والخير والعافية»[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤].

يخبر الله تعالى عن جهل المشركين وحماقتهم في استعجالهم إيقاع عذاب الله بهم، ولولا كون العذاب محددا بوقت معلوم، ولولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة؛ لجاءهم العذاب قريبًا سريعا كما استعجلوه، وسوف يأتيهم بالتأكيد فجأة، وهم لا يحسون بمجيئه، بل يكونون في غفلة عنه، ثم أكد تعالى طلبهم نزول العذاب بقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: يطلبون منك حدوث العذاب، وهو واقع بهم لا محالة، وإن جهنم ستحيط بهم من كل جانب[3].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٣.
(٢) التفسير الوسيط، ٧/ ٤٤٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ .

موانع العذاب

يستطيع المرء أن يدفع العذاب عن نفسه من خلال أمور كثيرة، منها:

أولًا: التوبة:

التوبة مانع شامل يمنع من إنفاذ وعيد جميع الذنوب، الكفر فما دونه من المعاصي، فليس شيء يغفر الله به جميع الذنوب إلا التوبة النصوح.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال الإمام الشوكاني: «واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولا: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فيا لها من بشارة ترتاح لها النفوس، وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾»[4].

(٤) فتح القدير، ٤/ ٥٣٨.

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

أي: فمن تاب إلى الله عز وجل توبة صادقة من بعد ظلمه لنفسه بسبب إيقاعها في المعاصي التي من أكبرها السرقة وأصلح عمله بالطاعات التي تمحو السيئات فإن الله يتوب عليه أي: يقبل توبته، ويغسل حوبته، إن الله واسع المغفرة والرحمة ومن مظاهر ذلك أنه سبحانه فتح لعباده باب التوبة والإنابة، فالآية الكريمة ترغب العصاة من السراق وغيرهم في التوبة إلى الله، وفي الرجوع إلى طاعته حتى ينالوا مغفرته ورحمته[(١)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله عز وجل يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)[(٢)].

ثانيًا: الاستغفار:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

أي: ومن يعمل عملًا سيئًا يؤذي به غيره، أو يظلم نفسه بارتكاب الفواحش، التي يعود معظم ضررها على نفسه كشرب الخمر، وترك فرائض الله التي فرضها على عباده ثم بعد كل ذلك يستغفر الله، فيتوب إليه توبة صادقة نصوحًا يجد الله بفضله وكرمه غفورًا رحيمًا[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[(٤)].

والاستغفار لا يمكن أن يمنع العذاب لمن مات على الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصي لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة، فمن مات من المسلمين بدون توبة من الذنوب التي اقترفها فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة[(٥)].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ١٣٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة، رقم ٢٧٥٩، ٤/ ٢١١٣.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ١٩٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، رقم٢٧٤٩، ٤/ ٢١٠٦.
(٥) انظر: الوسيط، الزحيلي، ١/ ٣٢٨.

ثالثًا: دعاء المؤمنين:

يسن للمؤمن الدعاء لإخوانه المؤمنين بالمغفرة والرحمة، وهذا يدل قطعًا على انتفاع المدعو له بدعاء إخوانه المؤمنين، واستغفارهم له.

قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد: ١٩].

قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: واستغفر أيها الرسول الكريم لذنوب أتباعك وأمتك، بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم، وهذا فيه تعليم للصحابة وللمؤمنين أن يدعوا لإخوانهم المؤمنين[1]، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أي: يا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان فهم أسبق منا إلى الخير والفضل[2].

وعن عوف بن مالكٍ رضي الله عنه قال: **(صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازةٍ، فحفظت من دعائه وهو يقول: (اللهم اغفر له وارحمه وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر) قال: (حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت)**[3].

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ما من ميتٍ تصلي عليه أمةٌ من المسلمين يبلغون مائةً، كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه)**[4]

والدعاء بالمغفرة والرحمة لا يجوز لمن لقي الله كافرًا، ولا يمنع إنفاذ وعيد الله فيه.

قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

قال طنطاوي: «أي: إن هؤلاء الراسخين في الكفر والنفاق، قد استوى عندهم استغفارك لهم وعدم استغفارك، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق والباطل، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٨/ ٥١٠.
(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة، رقم٩٦٣، ٢/ ٦٦٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من صلوا عليه مائة شفعوا فيه، رقم٩٤٧، ٢/ ٦٥٤.

ولذلك فلن يغفر الله تعالى لهم مهما حرصت على هدايتهم وصلاحهم»[1].

وبهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

رابعًا: وجود النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

سبب نزول الآية: عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال أبو جهلٍ: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ، فنزلت الآية[2].

والمعنى: وما كان الله مريدًا لتعذيب هؤلاء الذين دعوا بهذا الدعاء الغريب تعذيب استئصال وإهلاك، وأنت مقيم فيهم- يا محمد- بمكة، فقد جرت سنته سبحانه ألا يهلك قرية مكذبة وفيها نبيها والمؤمنون به حتى يخرجهم منها ثم يعذب الكافرين، واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ لتأكيد النفي، وللدلالة على أن تعذيبهم والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة[3].

والشفاعة التي تمنع أو تخفف من العذاب وخصوصًا في الآخرة، وهي على ثلاثة أنواع:

١. **الشفاعة العظمى.**

وهي شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف ليفصل الله بينهم، وهي المقام المحمود له، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة، وفيه أن بعض الناس يقول: (ائتوا النبي صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه)[4].

٢. **الشفاعة في أهل الجنة.**

وهي ثلاثة أنواع:

- شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الجنة ليدخلوها.
- شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات أهل الجنة.

---

(١) التفسير الوسيط، ١٤/ ٤٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله تعالى: (وما كان الله معذبهم)، رقم٢٧٩٦، ٤/ ٢١٥٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٥٢١. وانظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣٠٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (إنا أرسلنا نوحًا)، رقم ٣٣٤٠، ٤/ ١٣٤.

- شفاعته صلى الله عليه وسلم في بعض المؤمنين ليدخلوا الجنة بلا حساب ولا عذاب.

٣. الشفاعة لأهل الكبائر.

وهي نوعان:

- شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن استحق النار من أهل الكبائر أن لا يدخلها.
- شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن دخل النار من أهل الكبائر أن يخرج منها.

فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (لكل نبي دعوةٌ دعاها لأمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة)[١].

إذن فالشفاعة خاصة بأهل التوحيد ولا تكون للكفار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: (لقد ظننت، يا أبا هريرة، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قبل نفسه)[٢].

الحكمة من العذاب

لا يخلو شيء في الوجود من حكمة لله عز وجل منه، وكذلك العذاب له حكم جليلة، منها:

أولًا: الفتنة والامتحان للمؤمنين والمحق للكافرين:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

والمعنى: أظن الناس أن يتركوا بدون امتحان، واختبار، وابتلاء، وبدون نزول المصائب بهم؛ لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان؟ إن ظنهم هذا ظن باطل، ووهم فاسد؛ لأن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فقط، بل هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من ألوان الابتلاء والاختبار، عن طريق التعرض لفقد الأموال والأنفس والثمرات، حتى يتميز قوي الإيمان من ضعيفه[٣].

قال القرطبي: «والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والوليد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٠٠، ١/ ١٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، رقم ٩٩، ١/ ٣١.

(٣) انظر: تفسير السرقندي، ٢/ ٦٢٤.

بن الوليد فكانت صدورهم تضيق بذلك، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين. قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده، اختبارًا للمؤمنين وفتنة[1].

قال ابن عطية: «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، موجود حكمها بقية الدهر»[2].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

«أظننتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد في الأنفس والأموال، ومن مخاوف أزعجتهم وأفزعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم في أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام: متى نصر الله؟!!»[3]

ويأتي هذا الامتحان في شدته على قدر الإيمان، فعن سعد رضي الله عنه قال: **(قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاءً: قال: (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)**[4].

وكما أن العقاب يكون امتحان للمؤمنين، يكون في المقابل محق للكافرين قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

قوله: ﴿وَيَمْحَقَ﴾ من المحق وهو محو الشيء والذهاب به، والمعنى: ولقد فعل سبحانه ما فعل في غزوة أحد، لكي يطهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم، ولكي يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم وبطرهم[5].

ثانيًا: تكفير الذنوب ورفع الدرجات للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

الابتلاء عندما ينزل يكون للكفار محق

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٢٣.

(٢) المحرر الوجيز، ٤/ ٣٠٥.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/ ٤٦٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٠٧، ٣/ ١٥٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٣٠، رقم ٩٩٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٠.

وعذاب، وللمؤمنين الصابرين المحتسبين تكفير لذنوبهم ورفعة لدرجاتهم، والمعنى: ولنصيبنكم بشيء من الخوف وبشيء من الجوع، وبشيء من النقص في الأنفس والأموال والثمرات، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون، فنرتب الثواب ورفع الدرجات على الصبر والثبات على الطاعة، ونرتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمر الله عز وجل، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه)[١].

وقد تصيب المؤمن المصيبة فترفع درجته في الآخرة إذا صبر واحتسب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل لتكون له المنزلة عند الله تبارك وتعالى فما يبلغها بعملٍ، فلا يزال يبتليه حتى يبلغه ذلك)[٢].

ومن هذا الباب، المرض فقد يكفر الله ذنوب عبد بمرض يصيبه فعن جابر بن عبدالله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال: «ما لك؟ يا أم السائب أو يا أم المسيب تزفزفين؟» قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: (لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد)[٣].

إذًا فتعجيل العقوبة في الدنيا للعبد الصالح إنما هو خيرٌ له، فعليه ألا يقنط أو ينحرف عن الطريق لأن عذاب الآخرة أشد وأبقى بينما عذاب الدنيا مهما كانت شدته فإنه يزول بعد فترة أو تعقبه السعادة الأبدية بإذن الله تعالى، بشرط أن يكون صاحبه مؤمنًا صالحًا، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عليه ذنوبه حتى يوافيه يوم القيامة)[٤].

ثالثًا: التحذير من التمادي في المعصية:

فتأتي مصائب الدنيا بمثابة إشارات وتنبيهات من الله تعالى للعبد أنه غارق في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم ٥٦٤١، ٧/ ١١٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الآداب، رقم ٧٣٥، ١/ ٢٩٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٣٥، رقم ١٦٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ٤/ ١٩٩٣، رقم ٢٥٧٥.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٦، ٤/ ٦٠١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١١٨، رقم ٣٠٨.

معصيته ويجب الرجوع قبل فوات الأوان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

أي: ولنذيقنهم من العذاب الأدنى الأهون والأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا، عن طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة، دون العذاب الأكبر أي: الأشد والأعظم والأبقى، وهو عذاب الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم فيه من شرك وكفر وفسوق وعصيان[١].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

يؤكد الله تعالى الحض على التضرع فقال: فهلا تضرعوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءهم بأسنا وظهرت بوادر العذاب، ولكن لم يفعلوا وقست قلوبهم، أي: ما رقت ولا خشعت، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فلم يعتبروا، وزين لهم الشيطان أفعالهم من الشرك والفجور والمعاندة والمعاصي، ووسوس لهم بأن يبقوا على ما كان عليه آباؤهم[٢].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الذنوب أجدر بوقوع عذاب الدنيا فقال: (ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)[٣].

رابعًا: العبرة والعظة:

قد يأتي العذاب عقوبة لصاحب المعصية أو لأهلها ليكونوا عبرة وعظة لمن بعدهم كما فعل الله بالأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

أي: أن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها، وعصيانهم لأمرنا، ليست هي القرية الوحيدة التي نزل بها عذابنا، بل إننا قد أهلكنا كثيرا من القرى من بعد زمن نوح عليه السلام كقوم عاد وثمود وغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الكفر على الإيمان والغي على الرشد.

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فهذه الآية الكريمة بجانب أنها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فهي أيضًا تهديد للمشركين، وإنذار لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم، ومعاداتهم للحق، وتطاولهم

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٣٣.
(٢) انظر: الوسيط، الزحيلي، ١/ ٥٤٨.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البغي، رقم ٤٢١١، ٢/ ١٤٠٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٩٤، رقم ٥٧٠٤.

على من جاء به وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فسيكونون محلًا لغضب الله تعالى وسخطه، ولنزول عذابه الذي أهلك به أمثالهم في الشرك والكفر والجحود[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]

أي: جلسوا في مساكنهم فلم يسيروا في جنبات الأرض، فيشاهدوا كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم عاد وثمود ولوط وغيرهم، فكان الجواب: دمر الله تعالى عليهم مساكنهم وأموالهم، وقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وعيد وتهديد لهؤلاء الكافرين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم أي: هكذا كانت عاقبة المجرمين السابقين، وللكافرين المعاصرين لك -أيها الرسول الكريم- السائرين على درب سابقيهم في الكفر والضلال والطغيان، أمثال تلك العاقبة السيئة[2].

[انظر: الإهلاك: حكم الإهلاك]

موضوعات ذات صلة

الإهلاك، الجزاء، الجنة، النار، اليوم الآخر

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٠٦.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣١٣.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٥.



عناصر الموضوع

مفهوم العزة

أولاً: المعنى اللغوي:

العين والزاي أصلٌ واحد يدل على الشدة والقوة وما ضاهاهما من غلبةٍ وقهر، وعز يعز عزًّا وعزَّةً وعزازةً، ورجلٌ عزيزٌ من قومٍ أعزة وأعزاء وعزازٍ، واعتز بي وتعزز: تشرف، وعز علي يعز عزًّا وعزَّةً وعزازةً: كرم، وأعززته: أكرمته وأحببته، ويقال: عز الرجل بعد ضعفٍ، أي: صار عزيزًا بعد ذلة، وأعززته: جعلته عزيزًا، وعز الشيء: إذا قل، ومنه ناقةٌ عزوزٌ: إذا كانت ضيقة الإحليل لا تدر إلا بجهد، ويقال: استعز على المريض، إذا اشتد مرضه. واستعز عليه الشيطان: أي غلب عليه وعلى عقله، واستعز عليه الأمر: إذا لج فيه، والعز من المطر: الكثير الشديد، وأرض معزوزة: إذا أصابها ذلك[1].

إذن فالعزة تدور حول معاني الغلبة والقهر والشدة والقوة ونفاسة الشيء وعلو قدره.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «العزة: حالةٌ مانعة للإنسان من أن يغلب»[2].

وقيل: «العزة: التأبي عن حمل المذلة، وقيل: الترفع عما تلحقه غضاضة»[3].

وقيل: العزة صفة تفيد حصول الفوقية والغلبة لله سبحانه وتعالى وعباده الصالحين على أعدائهم[4].

وعرفها الدكتور محمد بن عبد الله الهبدان بأنها: «ارتباط بالله تعالى، وارتفاع بالنفس عن مواضع المهانة، والتحرر من رق الأهواء ومن ذل الطمع، وعن السير إلا وفق ما شرع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم»[5].

وخلاصة القول: إن المتدبر في المعنيين يجد اتصالًا بينهما، حيث إن المعنى الاصطلاحي يعني أن العزة حالة تعتري الإنسان تمنعه من غلبة غيره عليه، وهذا مرتبط بمعنى العزة في اللغة التي هي الشدة والقوة والغلبة والقهر

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤١، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٧٤.
(٢) المفردات ص٥٦٣.
(٣) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص٢٠٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٩.
(٥) العزة مصادرها، أسبابها، مواقف وأحداث ص٥.

العزة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عزز) في القرآن الكريم (١٢٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:١٤]
الفعل المضارع	١	﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾[آل عمران:٢٦]
المصدر	١٢	﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٩]
الصفة المشبهة	٩٩	﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾[البقرة:٢٠٩]
أفعل التفضيل	٤	﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾[هود:٩٢]
اسم	٢	﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة:٥٤]

وجاءت العزة في الاستعمال القرآني على ستة أوجه[٢]:

الأول: المنعة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨] يعني: منيعًا.

الثاني: العظمة: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ يعني: فبعظمتك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢].

الثالث: الحمية: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ﴾ [ص:٢] يعني: في حمية.

الرابع: الغلظة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤] يعني: غلظاء عليهم.

الخامس: الشدة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٧] يعني: بشديد.

السادس: القوة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:١٤] يعني: فقويناهما بثالث.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الظاء، ص٧٦٢-٧٦٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٣٣-٣٣٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٣٤-٤٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ القوة:

القوة لغةً:

قوي الرجل والضعيف يقوى قوة فهو قويٌّ وقويته تقويةً وقاويته فقويته أي غلبته[١].

القوة اصطلاحًا:

ذكر الراغب أن أكثر استعمال القوة في القدرة[٢]، وقال السيوطي: «القوة: مبتدأ كل فعل في البدن»[٣].

الصلة بين القوة والعزة:

يتضح أن العزة دليل على القوة، فلا يعقل أن يكون الإنسان عزيزًا دون أن يكون قويًّا، سواء كانت القوة معنوية أم مادية.

٢ الشدة:

الشدة لغةً:

قال ابن فارس: «الشين والدال أصلٌ واحدٌ يدل على قوةٍ في الشيء، وفروعه ترجع إليه. من ذلك شددت العقد شدًّا أشده»[٤].

الشدة اصطلاحًا:

قال المناوي: «الشد: العقد القوي»[٥].

الصلة بين الشدة والعزة:

يظهر أن العزة دليل على الشدة التي تطلق في الأصل على المبالغة في وصف الشيء في صلابة[٦]، فالإنسان لا يكون عزيزًا إلا إذا كانت فيه صلابة على الحق.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٠٧.
(٢) المفردات ص٦٩٣.
(٣) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم ص ١٧٦.
(٤) مقاييس اللغة ٣/ ١٧٩.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٠٢.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٩٧.

٣ الغلبة:

الغلبة لغةً:

من غلب يغلب غلبةً، وهو القهر[(١)].

الغلبة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قال الراغب: «الغلبة: القهر»[(٢)]. والمقصود هو قهر العدو.

الصلة بين الغلبة والعزة:

يتبين أن الغلبة مظهر من مظاهر العزة.

٤ الرفعة:

الرفعة لغةً:

فلان رفعة ورفاعة، ارتفع قدره وشرف، يقال: رفع في حسبه ونسبه فهو رفيع وهي رفيعة[(٣)].

الرفعة اصطلاحًا:

ذكر المناوي أن «الرفع: يقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها، وتارة في البناء إذا طولته، وتارة في الذكر إذا نوهته، وتارة في المنزلة إذا شرفتها»[(٤)].

الصلة بين الرفعة والعزة:

لا شك أن الرفعة هي العزة، فهما كلمتان مترادفتان.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٨.
(٢) المفردات ص٦١١.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٣٦٠.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ١٧٩.

الأساليب القرآنية في عرض العزة

لقد عرض القرآن الكريم موضوع العزة بأسلوب مميز، تطرق فيه إلى نواحٍ مختلفة، منها:

أولًا: وصف الله سبحانه بالعزة:

إن اسم الله تعالى (العزيز) ورد ضمن مجموعة من أسمائه الحسنى الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣].

ويكمن معنى هذا الاسم الجليل -كما ذكر الزجاج- في أن الله تعالى هو الغالب لكل شيء، فهو سبحانه العزيز الذي ذل كل عزيز لعزته جل جلاله [(١)].

وقال الغزالي: «العزيز: هو الخطير الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز» [(٢)].

وبين السعدي أن العزة لها معانٍ ثلاثة متمثلة في عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فالله جل جلاله يمتنع عن أن يناله أحد من المخلوقات، وأنه سبحانه قهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة كلها، وخضعت لعظمته وجبروته، ثم قال: «فمعاني العزة الثلاث كلها كاملة لله العظيم، عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت، وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه، بل هو الضار النافع المعطي المانع، وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها مقصورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به» [(٣)].

هذا وقد وصف الله تعالى نفسه بالعزة في آيات عديدة من القرآن الكريم، منها -على سبيل المثال لا الحصر- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس: ٦٥].

فالله سبحانه وتعالى ينهى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الحزن من قول المشركين في الله عز وجل ما يقولون من كلام باطل، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام في العبادة، فإن الله سبحانه وتعالى هو

(١) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى ص٣٤.
(٢) المقصد الأسنى ص٧٣.
(٣) تفسير أسماء الله الحسنى ص٢١٤.

المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا يشاركه فيها أحد، كما أنه هو المنتقم من هؤلاء المشركين، فلن ينصرهم أحد عند انتقام الله تعالى منهم؛ لأنه لا يُعَازُّهُ شيء، فهو تعالى لهم بالمرصاد، يسمع ما يفترون عليه، ويعلم ما يضمرونه في أنفسهم، وما يعلنونه من شرك وعداء للإسلام والمسلمين[1].

منها قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

والمعنى: أن من يطلب القوة والمنعة والرفعة فإنها تكون بعبادة الله تعالى وطاعته، فبالله عز وجل يكون عز الدنيا والآخرة لا بالأصنام التي عبدها المشركون من دونه سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن المشركين كانوا يعبدون هذه الأصنام طلبًا للعز، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١﴾ [مريم: ٨١].

وطلبًا للمنعة والقوة أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤﴾ [يس: ٧٤][2].

وعليه فإن العزة لا تكون إلا لله تعالى وحده، فهو صاحبها ومالكها، كما بين ذلك عن نفسه حين قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات: ١٨٠].

فهو سبحانه نزه ذاته العلية عما وصفه به المشركون مما لا يليق بجلاله وكماله، ثم أضاف الرب إلى العزة؛ ليفيد اختصاصه بها، كأنه قال: ذو العزة[3].

هذا وقد اقترن اسمه «العزيز» بالأسماء والصفات الآتية:

أولًا: ذو انتقام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

أي: إن الذين كفروا بآيات الله تعالى الناطقة بالحق، وبوجوب توحيده وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، فإن لهم عذابًا شديدًا، لا يقادر قدره بسبب كفرهم، فالله تعالى عزيز لا يغالب، ويفعل ما يشاء، وذو انتقام عظيم[4].

ثانيًا: الحكيم.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾ [النحل: ٦٠].

فالله تعالى يخبر أن الذين ينكرون البعث ولا يؤمنون بالآخرة لهم صفة السوء؛ وذلك لجهلهم وظلمهم أنفسهم؛ أنهم لم ينقذوا أنفسهم بالإيمان وعمل الخير، أما الله سبحانه وتعالى فله الصفة الحسنى، وهو أنه لا إله إلا هو منزه عن كل نقص، ورب كل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٤٢.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٤٧٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٩.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٥.

شيء ومليكه، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا شريك له، ولا ند له ولا ولد، ثم أثنى الله تعالى على نفسه بأعظم وصف وهو العزة والقهر والغلبة لكل شيء، والحكمة العليا في تدبيره لهذا الكون، وتصريفه لشؤون خلقه، وفي حكمه وقضائه[1].

ثالثًا: الرحيم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء:٧-٩].

فالله تعالى ينكر على المشركين عدم تدبرهم في آيات الله تعالى الدالة على استحقاقه وحده للربوبية والعبادة والخضوع، ثم يخاطب الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم مسليًا إياه بأنه تعالى هو العزيز القاهر الذي لا يعجزه شيء، والرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فالآية تقرر أن الله تعالى قادر على سحق الكفار والقضاء عليهم غير أن رحمته تعالى اقتضت عدم التعجيل بذلك لعلهم يرعوون[2].

رابعًا: الحميد.

قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ:٦].

أي: إن أهل العلم يعلمون أن القرآن الذي أنزل من عند الله تعالى هو الحق، وأنه يرشد إلى الطريق المستقيم، طريق الله العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع؛ بل إنه سبحانه حميد محمود في أقواله وأفعاله وشرعه[3].

خامسًا: العليم.

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس:٣٨].

أي: إن الشمس من آيات الله عز وجل الدالة على نفوذ مشيئته سبحانه، وعلى كمال قدرته، فهي دائمًا تجري لمستقر قدره الله تعالى لها، لا تحيد عنه ولا تتعداه، فهي لا تتصرف في نفسها، ولا تعصي الله تعالى، فسبحان الذي دبر هذه المخلوقات بعزته العظيمة بأكمل تدبير، وأحسن نظام، كما دبرها بعلمه حيث جعلها مصالح لعباده، ومنافع لهم في الدنيا والآخرة[4].

سادسًا: الوهاب.

قال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩﴾ [ص:٩].

فالله تعالى يوبخ المشركين وينكر

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٣/ ١٢٩.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٣/ ٢٤٣.

(٣) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٢٨.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٥.

عليهم اعتراضهم على نزول النبوة على محمد صلى الله عليه وسلم دون غيره منهم، فليست خزائن الله تعالى عندهم فيعترضوا ويتصدوا لحرمان من يشاؤون، فإن المواهب من الله تعالى يصيب بها من يشاء، فيختار للنبوة من يصطفيه، وليس لهم الاختيار في ذلك، فهو العزيز الوهاب[1].

سابعًا: الغفار.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص:٦٥-٦٦].

والمعنى: أن الله عز وجل يأمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخبر المشركين -إن طلبوا منه ما ليس بيده- أن الأمر لله تعالى قائلًا: ليس لي إلا أن آمركم وأحثكم على الخير، وأنهاكم عن الشر، فما من أحد يعبد حق العبادة إلا الله تعالى الواحد القهار الذي قهر كل شيء، كما أنه خالق السماوات والأرض وما بينهما، ومدبرهما بجميع أنواع التدابير، العزيز الذي له القوة التي بها خلق جميع المخلوقات العظيمة، والغفار لجميع الذنوب الصغيرة والكبيرة لمن تاب إليه سبحانه وتعالى[2].

ثامنًا: الغفور.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

فلما أخبر الله تعالى عن اختلاف الألوان والأصباغ في ثمار النبات، والجمادات والحيوانات، وكذلك الإنسان؛ لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله تعالى وبديع صنعه، أخبر تعالى عن العلماء الذين يعرفون جمال ذلك الاختلاف ودقائقه، فهؤلاء العالمون به يخافون الله عز وجل بالغيب، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة والتي منها قدرته العظيمة على صنع ما يشاء ويفعله، فمن كان أعلم بالله تعالى كان أخشاهم له، وسبب هذه الخشية من العلماء لله تعالى هو أن الله عز وجل قوي في انتقامه من الكافرين، وغفور لذنوب المؤمنين به التائبين إليه، وهذا يوجب الخوف والرجاء، فكون الله تعالى عزيزًا ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكذلك كونه تعالى غفورًا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ، وهذا ما يدركه العلماء المتخصصون[3].

تاسعًا: القوي.

قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج:٧٤].

فقد بين الله عز وجل أن المشركين الذين عبدوا الآلهة العاجزة عن فعل شيء، لم يعرفوا الله تعالى حق المعرفة، ولم

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢١٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧١٦.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٢٦٠ بتصرف.

يعظموه حق التعظيم إذ جعلوا هذه الأصنام والأوثان شركاء له مع هذه الحالة من العجز والضعف، ثم بين الله تعالى أنه القوي على خلق كل شيء، وعزيز غالب لا يغالبه أحد بخلاف آلهة المشركين التي لا تعقل ولا تنفع ولا تضر ولا تقدر على فعل شيء لنفسها حتى تفعله لغيرها، فإنها جماد لا تعقل[1].

ثانيًا: العزة من أخلاق المؤمنين:

إن العزة خلق رفيع من أخلاق المؤمنين، فلا يعقل أن يكون المرء مؤمنًا حق الإيمان وفي ذات الوقت غير عزيز، فالعزة والإيمان صنوان لا يفترقان، وذلك أن المرء إذا آمن، وتغلغل الإيمان في قلبه واستقر فإنه في نفس الوقت يتشرب قلبه العزة، فتصدر عنه الأقوال والأفعال وهي متصفة بالفخر والاستعلاء بهذا الدين العظيم الذي أكرمه الله عز وجل به، فيتعامل مع المؤمنين أمثاله بكل تواضع ولين ورحمة، وفي المقابل يتعامل مع الكفار بكل عزة وفخر.

فيقول الله سبحانه وتعالى واصفًا المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

فقد توعد الله تعالى من يرتد عن دينه- وهو لن يضر الله شيئًا - بأنه سوف يأتي بدلًا منهم بأناسٍ من صفاتاهم أن الله جل جلاله يحبهم، وهم يحبونه كذلك، ومن صفاتهم أيضًا أنهم أذلة للمؤمنين من فرط محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورقتهم ورأفتهم بهم، وكذلك رحمتهم بهم، ومن صفاتهم أيضًا أنهم أعزة على الكافرين بالله تعالى ورسوله، وقد اجتمعت عزائمهم وهممهم على معاداتهم، وبذلوا كل جهد في كل سبب يحصلون به على الانتصار عليهم[2]، فهم لا يداهنون الخلق، ولا يستكينون للعدو، ولا يتنازلون عن شيء من دينهم مهما رغبوا أو رهبوا، وفي هذا المعنى قال الشنقيطي: «أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقومٍ من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين»[3].

وفي موضع آخر أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثناء العطر، كما شهد لرسوله صلى الله عليه وسلم بصدق الرسالة، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٥٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٥.

(٣) أضواء البيان ١/ ٤١٥.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:٢٩].

فوصف أصحابه الأبرار بأنهم غلاظٌ على الكفار، متراحمون فيما بينهم[١]، قال أبو السعود: «يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة»[٢].

ومن الآيات الدالة على أن العزة من أخلاق المؤمنين أيضًا قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون:٨].

ففي هذه الآية يبين الله عز وجل أن العزة لله تعالى بقهره لأعدائه، وكذلك لرسوله صلى الله عليه وسلم بإظهاره دينه على الأديان كلها، وكذلك للمؤمنين أيضًا بنصر الله تعالى لهم على أعدائهم، ولكن المنافقين لا يعلمون أن الله تعالى معزٌّ أولياءه، ومذلٌّ أعداءه، ولو علموا ذلك ما قالوا مقالتهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[٣]، وفي هذا قال الطبري: «فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم، هم الأذلاء الأقلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، فيعزهم ويمنعهم؟»[٤].

هذا وقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن الهوان والحزن، ووصفهم بأنهم هم الأعلون، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران:١٣٩].

ففي هذه الآية أدب قرآني عظيم حيث حث الله تعالى المؤمنين المجاهدين الصابرين على عدم الهوان والاستسلام الذي ينافي العزة ويقابلها، فقد أمرهم بالثبات على عزتهم؛ لتبقى العزة ملازمة لهم، لا تنفك عنهم حتى ولو في أحلك الظروف، كما أمرهم بحسن الظن بالله تعالى، والتوكل عليه والثقة بنصره، قال الرازي: «كأنه قال إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية علمتم أن أهل الباطل وإن اتفقت لهم الصولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضعف والفتور، وصارت دولة أهل الحق عالية، وصولة أهل الباطل مندرسة، فلا ينبغي أن تصير صولة الكفار عليكم يوم أحد سببًا لضعف قلبكم ولجبنكم وعجزكم؛ بل يجب أن يقوى قلبكم، فإن الاستعلاء سيحصل لكم والقوة

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢١١.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ١١٤.
(٣) انظر: مراح لبيد، محمد الجاوي ٢/ ٥٣١.
(٤) جامع البيان ٩/ ٣١٩.

والدولة راجعة إليكم»[1].

ومن خلال هذا يظهر أن العزة خلق من أخلاق المؤمنين، وقد عبر الله تعالى عنها في الآية الأخيرة بالجملة الاسمية ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الدالة على الثبات والاستقرار، وعليه فيجب على المؤمنين الثبات على ما هم عليه من العزة، وعدم التخلي عنها في أي ظرف من الظروف سواء في الحرب أو السلم، في الفرح أو الحزن، في السراء أو الضراء، فالله تعالى يربيهم على معاني العزة، ويغرسها في قلوبهم.

ثالثًا: حسن عاقبة من اعتز بالله ودينه:

يقول الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠].

وقد وردت أقوال عديدة في معنى الآية، وأولاها بالصواب وأرجحها -كما ذكر الطبري-[2] أن من كان يريد العزة ويبحث عنها ويطلبها، فليتعزز بالله عز وجل، فلله تعالى العزة جميعًا دون كل ما دونه من الأوثان والأصنام، وفيها تنبيهٌ لذوي الأقدار والهمم العالية من أين تنال العزة، ومن أي جهة تطلب؟[3].

ثم بين الله تعالى أن الكلام الطيب من ذكرٍ لله تعالى، أو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وتلاوة قرآن، وغير ذلك يصعد إلى الله عز وجل فيقبله، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ وذلك لأن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان، بالإضافة إلى أن العمل الصالح يرفع صاحبه الذي أراد العزة من الله تعالى[4].

قال القرطبي: «فمن طلب العزة من الله وصدقه في طلبها بافتقارٍ وذلٍ، وسكونٍ وخضوعٍ، وجدها عنده إن شاء الله غير ممنوعةٍ ولا محجوبةٍ عنه، قال صلى الله عليه وسلم: (من تواضع لله رفعه الله)[5] ومن اعتز بالله أعزه الله»[6].

ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن من اعتز بالله تعالى، واعتز برسوله صلى الله عليه وسلم، وبدين الإسلام، أعزه الله جل جلاله، ولهذا السبب حصر الله تعالى العزة الحقيقية في كونها لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

قال ابن عاشور: «والمعنى: إن كان الأعز

---

(١) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧١.
(٢) انظر: جامع البيان ٢٠/ ٤٤٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩١، بتصرف.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن أبي هريرة، ٨/ ٤٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦١٦٢، ٢/ ١٠٦١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٣٢٨.

يخرج الأذل فإن المؤمنين هم الفريق الأعز، وعزتهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وبتأييد الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأولياءه؛ لأن عزة الله هي العزة الحق المطلقة، وعزة غيره ناقصةٌ، فلا جرم أن أولياء الله هم الذين لا يقهرون إذا أراد الله نصرهم ووعدهم به. فإن كان إخراجٌ من المدينة فإنما يخرج منها أنتم يا أهل النفاق»[1].

ويخلص من هذا إلى أنه إذا كانت العزة لله تعالى وحده، فإنه سبحانه يهبها لعباده المؤمنين، وأوليائه الصادقين، وقد استمدوا هذه العزة من الله جل جلاله، فيعزهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، فيغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويرفع قدرهم وشأنهم، ويقبل أعمالهم الصالحة ويثيبهم عليها خير الثواب، وينزلهم الدرجات العلا من الجنة، وفي هذا المعنى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله أذلنا الله»[2].

رابعًا: بيان سوء عاقبة من أخذته العزة بغير الحق:

اقتضت حكمة الله جل جلاله أن من طلب العزة في غير جانب الله تعالى أذله الله تعالى؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن حقًّا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه)[3].

فمن اعتز بالكفار أذله الله تعالى، وأذاقه الذلة والصغار على أيديهم، وفي هذا المعنى قال الزمخشري: «المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين»[4].

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فسوف يصليه الله تعالى جهنم وساءت مصيرًا.

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة:٢٠٦].

فهذه الآية في ذكر وصف من أوصاف المنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن، فإذا نصحه إنسان فقال له: اتق الله، أخذته الحمية الجاهلية، والعزة الشيطانية على ارتكاب الإثم والحرام، فتمادى في غيه وضلاله؛ لأنه ينفر من الصلاح والمصلحين، فبين الله تعالى أن مثل هذا يكفيه عذاب جهنم، فهي مأواه ومهاده، ولبئس المهاد مهاده، بسبب سوء عمله في الدنيا، وسوء خداعه

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٤٩.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم ٢٠٧، ١/ ١٣٠.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٠١، عن أنس، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥.

(٤) الكشاف ٤/ ٥٤٣.

وحاله[1].

وتاريخ الأمم السابقة ومصارعها شاهد على أن من يغالب الله جل جلاله يغلب، وأن من اعتز بغير الله تعالى ذل وهان، فقد اعتزت تلك الأمم بقوتها التي منحها الله عز وجل إياها، فبدلًا من أن يشكروا الله تعالى على هذه النعم جحدوا مانحها، واعتزوا بهذه النعم بدلًا من المنعم.

وقد وضح الله عز وجل السبب في اتخاذ المشركين الأصنام والأوثان آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

أي: ليكونوا لهم أنصارًا وشفعاء ينقذونهم من عذاب الله تعالى في الآخرة، فزعمهم هذا ما هو إلا كذب وافتراء على الله عز وجل، ثم زجرهم الله تعالى رادعًا إياهم عن ذلك الظن الفاسد بأنه ليس الأمر كما زعموا؛ بل ستكون هذه المعبودات ضدًّا وأعوانًا عليكم في خصومتكم وتكذيبكم فيما زعمتم، ومن ثم التبرؤ منكم[2].

ولذلك أنكر الله سبحانه وتعالى عليهم اتخاذهم الأصنام لأجل العزة، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩].

ويوم القيامة يأمرهم بقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ: ٢٧].

وهكذا تظهر سوء عاقبة من اعتز بغير الله تعالى، وأنها عزة واهية باطلة لا حقيقة لها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٢٢٩.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٥٠٩.

أنواع العزة ومقوماتها

إن الحديث عن أنواع العزة ومقوماتها يظهر من خلال التعرف على العزة المحمودة ومقوماتها، وكذلك على العزة المذمومة ودوافعها، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

أولًا: العزة المحمودة ومقوماتها:

تظهر أنواع العزة المحمودة في القرآن الكريم من خلال النقاط الآتية:

١ . العزة لله عز وجل جميعًا.

ذكرنا سابقًا أن من معاني العزة القلة والندرة، فمقومات العزة لله جل جلاله قد تفرد بها دون غيره، وليست لأحد سواه، ومن الأمثلة على هذه المقومات التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز:

- تفرده بالخلق.

فالله عز وجل هو الخالق لكل شيء في هذا الكون، وهذه المخلوقات كلها التي تتجلى فيها قدرته عز وجل وعظمته قد أوجدها من عدم.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام:٩٥-٩٦].

فقد ذكر في هاتين الآيتين مجموعة من المخلوقات الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته، وعلى علمه وحكمته، فهو فالقٌ لما يزرعونه من حب الحصيد ونوى الثمر، وشقه بقدرته بربط الأسباب بمسبباتها كجعل الحب والنوى في التراب، وإرواء التراب بالماء، كما أنه يخرج الحي من الميت كالزرع يخرجه من التراب أو البذور، ويخرج الحيوان من البيضة أو النطفة، وهو أيضًا مخرج الميت من الحي إذ يخرج اليابس من النبات الحي النامي، كما أنه فلق ظلمة الليل وشقها بنور الصباح، وجعل الليل سكنًا يستراح فيه من التعب بالنهار، كما خلق الشمس والقمر يجريان بحساب وعدد لبلوغ أمرهما ونهاية آجالهما، وفيهما مصالح ومنافع للناس حيث يحتاجون إلى معرفة حساب الأوقات لعباداتهم ومعاملاتهم وتواريخهم، فذلك كله من تقدير العزيز المتفرد بالخلق، الغالب على أمره في تنظيم ملكه، والعليم بما اقتضاه، واسعٌ علمه[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠].

والآيات على ذلك كثيرة.

(١) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٩٧.

✿ **تفرده بالإحياء بعد الإماتة.**

فقد أنكر المشركون أمر البعث، فبين الله تعالى في كثير من الآيات أنه قادر على ذلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠].

فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى رؤية كيفية إحياء الموتى، وهو لم يشك قط في قدرة الله تعالى على ذلك، ولكن لأن النفس البشرية جبلت على رؤية ما أخبرت به بالعين المجردة؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس الخبر كالمعاينة)(١).

فأمره تعالى أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن ويجزئهن، ويضع على كل جبل منهم جزءًا، ثم يدعهن بأسمائهن فتأتيه هذه الطيور مسرعة، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك، وشاهد بأم عينيه قدرة الخالق العزيز الحكيم(٢).

وقد ذكر الله تعالى في أكثر من موضع أن الإحياء بعد الإماتة أهون عليه من الخلق، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم:٢٧].

فإذا كان المشركون يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق كما أخبر عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف:٩].

فلماذا ينكرون البعث؟!

✿ **تفرده بالتصوير في الأرحام.**

وهذا أمر قد تفرد الله تعالى به كما تفرد بالخلق والإحياء بعد الإماتة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران:٦].

فقد أخبر الله تعالى عن تصويره للبشر في أرحام أمهاتهم على الكيفية التي يشاؤها جل جلاله من حسن وقبح، وسواد وبياض، وطول وقصر، وسلامة وعاهة إلى غير ذلك من السعادة والشقاء، وهذا دليل على وحدانيته عز وجل، ولا يقدر على ذلك إلا العزيز الذي لا يغالب، والحكيم بخلقه وشؤونهم(٣).

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٨٤٢، ٣/ ٣٤٧.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٥٧٣٨، ٣/ ١٥٩٩.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١/ ٢٥٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٧.

❁ تفرده بالنصر.

وهذا واردٌ في قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

والمعنى: أن نصر المؤمنين لا يكون إلا من عند الله عز وجل على خلاف ما كان يعتقد المشركون من أن الآلهة هي التي تمدهم بالنصر في حروبهم ومعاركهم، وهذا واضحٌ من التركيب القرآني حيث استخدم «ما» النافية مع حرف الاستثناء «إلا»، وهو أسلوب حصر وقصر؛ لذلك ناسب أن يذكر اسمه «العزيز» لتفرده سبحانه بأمر النصر فهو العزيز الغالب القاهر.

❁ تفرده بتأليف القلوب.

وهذا ما أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:٦٣].

فالله تعالى له جميع صفات الكمال، فألف بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، وعلل سبحانه فعله ذلك؛ لأنه عزيز حكيم، فلولا عزته التي غلبت كل شيء، وحكمته التي أتقن بها كل ما يريد بحيث لا يستطيع أحد أن يغير مما أراد الله تعالى شيئًا لما تآلف المؤمنون فيما بينهم بعدما كانت تثور الإحن والفتن بينهم، فتغلي لها الصدور حتى يقتتلوا[١].

❁ تفرده بالهداية.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم:٤].

أي: إن من لطف الله تعالى أن أرسل الرسل بلسان الأقوام الذين بعثوا إليهم؛ ليتمكنوا من فهم ما يدعونهم إليه، وحينئذٍ يقيم عليهم الحجة، فيضل الله تعالى من لم يرد الهداية، ويهدي من يشاء ممن اختصه برحمته فيهديه؛ وذلك لأنه هو العزيز الذي من عزته أن انفرد بأمر الهداية والضلال، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا في المحل اللائق به[٢].

❁ تفرده بالقضاء.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل:٧٨].

أي: إن الله تعالى سوف يقضي بين بني إسرائيل وغيرهم بالحق الذي يحكم به أو بحكمته العلية، فهو العزيز الذي لا يرد حكمه وقضاؤه، ومن عزته تفرده بالقضاء، كما أنه عليمٌ بجميع الأشياء التي من جملتها

---

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣١٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢١.

ما يقضي به[1].

❁ تفرده بالرزق والعطاء.

فيقول الله عز وجل: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢].

فكل ما يفتحه الله تعالى للناس من خزائن رحمته لن يستطيع أحد منعه، وكذلك ما منعه الله تعالى من نعمه عن أحد، فلا يستطيع أحد إرساله إليه، فهو سبحانه المعطي المانع، لا معطي سواه، ولا منعم غيره[2]، فهو العزيز الذي من عزته يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، وليس لأحد فعل ذلك.

ويقول أيضًا: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى:١٩].

فالله تعالى كثير اللطف بهم، وبالغ الرأفة لهم، ويرزق من يشاء من أنواع الرزق، وإن كان يرزق كل نفس، لكنه فاوت بين المرزوقين في الرزق في القلة والكثرة لحكمة لا يعلمها إلا هو عز وجل[3].

فالله سبحانه هو القوي العظيم القوة، والباهر القدرة، والعزيز الذي من عزته انفرد بأمر الرزق والعطاء، ومن أجمع الآيات على مقومات عزة الله جل جلاله، قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة:٤-٩].

٢. العزة لكتاب الله.

لقد وصف الله عز وجل نفسه بأنه عزيز، وعليه فإن كل ما يصدر عنه جل جلاله يستمد العزة من عزته تعالى، فالقرآن الكريم هو كلام الله تعالى، ولذلك فهو يتصف بالعزة أيضًا.

يقول الله عز وجل: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر:١].

فهذا الكتاب العظيم هو منزل من الله تعالى العزيز في ملكه والحكيم في أمره[4].

وفي وصف القرآن ذاته يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٢٩.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٨٨.
(٣) انظر: فتح البيان، صديق خان ١٢/ ٢٩١.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٤٥٧.

[فصلت:٤١-٤٢].

فإن الكافرين جحدوا وكفروا بالقرآن الكريم، فبين الله تعالى أن هذا القرآن هو كتاب عزيز، قال الطبري: «وإن هذا الذكر لكتاب عزيز بإعزاز الله إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلًا أو تحريفًا، أو تغييرًا من إنسي أو جني وشيطان ومارد»[١].

كما وصفه الله عز وجل بأن من هو على الباطل لا يستطيع أن يغير شيئًا من القرآن بكيده، أو أن يبدل شيئًا من معانيه، ولا أن يلحق فيه مما ليس منه، فهو تنزيلٌ من عند ذي حكمة بتدبير عباده، ومن عند حميد محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم[٢].

٣. العزة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

بما أن الله جل جلاله قد وصف نفسه بأنه عزيز، فإن كل ما يصدر عنه من أفعال فهو يتصف بالعزة أيضًا، ومن جملة أفعاله عز وجل أنه بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين، وعليه فإن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم يتصف بالعزة، يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[المنافقون:٨].

وعزة الرسول صلى الله عليه وسلم متمثلةٌ في إظهار دينه على سائر الأديان الموجودة على الأرض[٣].

٤ . العزة للمؤمنين.

إن الله تعالى لما ذكر العزة الحقيقية حصرها فيه جل جلاله، وفي رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

[المنافقون:٨].

وعزة المؤمنين تتمثل في نصر الله تعالى إياهم على أعدائهم[٤]، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

أي: إن الله سبحانه وتعالى ينصر من ينصر دينه، ويدافع عن أوليائه، فالله تعالى لا يحتاج إلى نصرة أحد؛ بل كل الخلق مفتقرٌ إلى نصرته سبحانه[٥].

فهذه العزة المحمودة للمؤمنين تكون في اتباعهم لشرع الله تعالى، وتنفيذه في أمور حياتهم، والسير على منهج أهل السنة والجماعة، ونبذ كل ما يعكر صفو الإيمان من الأمور البدعية والفلسفية والكلامية التي لا جدوى من ورائها، فالإيمان الذي به عزة المسلمين هو الإيمان الذي يولد عملًا

(١) جامع البيان ٢١/ ٤٧٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢١/ ٤٨٠.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٠٠.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٣٣، زاد المسير، ابن القيم ٤/ ٢٨٩.
(٥) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص٤٠٦.

صالحًا من صلاة خاشعة أو صيام، وأداء للزكاة، وبعدًا عن كل ما حرم الله تعالى من الربا والزنا والغش والغيبة والنميمة وغير ذلك من المنكرات، فهذا هو الإيمان الحقيقي.

وهذا الإيمان هو الذي تكون به العزة والرفعة والكرامة والمكانة للمسلمين جميعًا، وبالإضافة إلى ذلك فهو إيمانٌ قائمٌ على إخلاص العبادة لله عز وجل الذي بيده ملكوت كل شيء، وبيده الأمر كله، فحياتنا وأرزاقنا وآجالنا كلها بيد الله عز وجل، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يتوجه العبد بالتوكل أو الخوف أو الرجاء أو المحبة لغير الله عز وجل، والإنسان المؤمن العزيز هو الذي يجد للإيمان طعمًا وحلاوةً في أمور حياته كلها، وهذا ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: (ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

ثانيًا: العزة المذمومة ودوافعها:

كما تكون العزة محمودة كذلك قد تكون مذمومة، ومن أهم أنواع هذه العزة المذمومة والبواعث عليها أو دوافعها كما يأتي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ١/ ١٢، رقم ١٦.

١ . عزة الكافر دوافعها الكبر والعناد.

يقول الله عز وجل: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ [ص:١-٢].

فالله تعالى حين أنزل هذا القرآن العظيم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أنزله ذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، فانتفع به المؤمنون، ولم ينتفع به الكافرون، والسبب في ذلك أنهم في عزة وحمية واستكبار عن قبول الحق والإيمان به، فهم دائمًا يخالفون الحق ويعاندونه[2] مع اعتقادهم في قرارة أنفسهم أن القرآن حق، وأن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم حق قد بعثه الله تعالى إليهم؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكن ما يمنعهم من الإيمان به إلا عزتهم وحميتهم الباطلة، وجحودهم وظلمهم لأنفسهم.

ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

هذا وقد بين الله تعالى أن هؤلاء الكفار يعتزون بالأصنام والأوثان التي يعبدونها من دونه سبحانه حيث قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم:٨١].

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥١.

ولا شك أنها عزة مذمومة.

٢. عزة المنافق، دوافعها الاغترار بالمواقف والمصالح.

إن المنافق هو شخص أخطر من الكافر على الإسلام والمسلمين، وذلك لأنه يظهر الإسلام والموالاة لأهله، في حين يبطن الكفر والعداء لهم، ويوالي الكفار، فخطره أشد وأعظم من الكافر نفسه، وكان هؤلاء المنافقون يبحثون عن مصالحهم، فيلهثون وراءهم سواءً كانت عند المسلمين أم عند الكافرين، وكانوا دائمًا يتحينون الفرص، وينتهزون المواقف ليثيروا الفتن.

ومنها ما أخبرنا به الله عز وجل في كتابه العزيز إذ قال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨].

وللوقوف على المعنى المراد من هذه الآية، لا بد من التعرف على سبب نزولها، فقد روى ابن هشام أن غلامًا لعمر بن الخطاب اسمه جهجاه بن سعيد الغفاري تنازع مع سنان بن وبر الجهني، وهما مع جمع عند ماء المريسيع أثناء مقام النبي صلى الله عليه وسلم هناك، وكادا يقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فسمع بالأمر عبد الله بن أبي بن سلول، فغضب وقال للرهط ممن معه: أو فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في دارنا والله ما أعدنا وجلابيب قريش -يقصد المسلمين من قريش- إلا كما قالوا: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وكان ممن سمع كلامه زيد بن أرقم، فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره الأمر، وكان عنده عمر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له صلى الله عليه وسلم: **(فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا. ولكن أَذِّنْ بالرحيل،** وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها، فارتحل الناس.

ومشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وهكذا إلى أن آذنتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا. وإنما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي، ونزلت سورة المنافقين تصديقًا لقول زيد بن أرقم[١].

فكما ظهر من هذه الحادثة أن عبد الله بن أبي بن سلول قد أخذته العزة بالإثم، وانتهز

(١) السيرة النبوية ٤/ ٢٥٣ بتلخيص.

هذا الحدث وهذا الموقف لأجل تحقيق مصلحة له ولأعوانه، وهي إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار مما قد يؤدي إلى خطر أعظم لولا حكمة تصرف النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة:٢٠٦].

أي: إذا قيل للمنافق: اتق الله تعالى، وخفه ولا تفسد في الأرض، ولا تسع فيها بما حرم الله تعالى عليك من معاصٍ، ولا تهلك حرث المسلمين ونسلهم، فإذا نصح بذلك استكبر ودخلته عزة وحمية بما حرم الله تعالى عليه، وتمادى في غيه وضلاله، فتوعده الله تعالى بأنه سوف يصليه نار جهنم، وبئس المهاد لصاليها[(١)].

٣. عزة القبيلة والرهط، دوافعها العجب بالنفر والحسب.

ويظهر هذا النوع من العزة المذمومة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود:٩١-٩٢].

فلما بعث الله تعالى شعيبًا عليه السلام إلى قومه، ودعاهم إلى التوحيد، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عما كانوا يفعلون من منكرات أهمها: التطفيف في الميزان، ولكنهم لم يستجيبوا، فحذرهم وخوفهم بما أصاب الأقوام السابقة حين عصت أمر ربها جل جلاله، فكانت هذه الآية هي رد القوم على نبيهم شعيب عليه السلام، ومعناها أن القوم قالوا: لا نفهم يا شعيب صحة ما تقول -وقد كان عليه السلام خطيب الأنبياء-، ولا قوة لك ولا عز لك بيننا، وإنك لا تقدر على الامتناع منا إن أردنا أن نلحق بك مكروهًا، ولولا عشيرتك ورهطك لقتلناك رجمًا، وحينئذٍ أنت لا تعز علينا حتى نكرمك من القتل، ونرفع عنك الرجم، وإنما يعز علينا رهطك؛ لأنهم من أهل ديننا وملتنا، فرهطك هم الأعزة علينا[(٢)].

ولذلك أنكر شعيب عليه السلام عليهم هذه العزة المذمومة التي كان دافعها العجب بالنسب والكثرة والنفر، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)[(٣)].

قال صاحب الظلال: «الجماعة من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٤٤.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، ٢/ ٦٤٤، رقم ٩٣٤.

البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس، وهم ضعاف، وهم عباد من عباد الله أهؤلاء أعز عليكم من الله؟ أهؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من الله؟ ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ وهي صورة حسية للترك والإعراض، تزيد في شناعة فعلتهم، وهم يتركون الله ويعرضون عنه، وهم من خلقه، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه. فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير»[(١)].

٤. عزة الغنى وزينة الحياة الدنيا، دوافعها الركون إلى الملذات.

يتمثل هذا النوع من العزة المذمومة في قصة أصحاب الجنتين، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

فهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتوضيح حال المؤمن والكافر ومآل أمرهما، وهما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وورثا عنه أموالًا طائلة فاقتسماها، فصرف المؤمن ماله في سبيل الله تعالى، وأنفق منها على الفقراء واليتامى والمساكين، في حين اشترى الكافر مزارع وبساتين، وكثر ماله إلى أن حان وقت الابتلاء، فكان له جنتان مملوءتان بجميع الخيرات، ولم ينقص من ثمرهما شيء، هذا بالإضافة إلى ما كان عنده من النقود والجواهر والعبيد وغير ذلك من أنواع النعيم، فقال الأخ الكافر على سبيل البطر والمباهاة لأخيه المؤمن: أنا أكثر منك مالًا؛ لأنه بالمال تنال جميع اللذات والشهوات، كما أنني أعز نفرًا وأبناء عشيرة وخدمًا.

قال ابن كثير: «أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا، قال قتادة: تلك-والله-أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر»[(٢)].

ومن شدة بطره وخيلائه دخل جنته وهو ظالمٌ لنفسه؛ لأنه لم يعترف بهذه النعمة أنها من عند الله سبحانه وتعالى، كما كان لديه طول أملٍ وحرصٍ وغرورٍ شديدين، هذا بالإضافة إلى غفلته فقال معتمدًا على هذه الثروة والجاه وكثرة الأعوان: ما أشك أن تهلك هذه الجنة وتعدم؛ بل هي ستظل هكذا من النضارة على الأبد، كما أنني ما أظن أن الساعة الموعودة التي أخبر بها جميع الأنبياء والرسل أنها آتية حتى تنعدم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٥٧.

هذه الجنة بانعدام العالم، وعلى فرض قيام الساعة وانتهاء الدنيا فإنني سأجد جنة أفضل من هذه في الآخرة، ثم ذكره أخوه المؤمن بالله عز وجل، وكيف خلقه وأنعم عليه، فمن الواجب أن يشكره على هذه النعم، وفي لحظة وجد الكافر جنته خاوية ساقطة على عروشها، وحين أفاق من سكر غروره وغفلته، تنبه إلى هذه الصدمة وقال متحسرًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢].

ومثله أيضًا عزة قارون بماله، حيث قال الله عز وجل فيه: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص:٧٦].

فقارون كان على شاكلة قوم موسى في الكفر والطغيان، فبغى عليهم بالكبر لما غلب عليه من الحرص على الدنيا، وذلك لما اتصف به من الغرور والتعزز برؤية زينة نفسه، وقد أعطاه الله تعالى من الأموال المدخرة ما يثقل على الجماعة الكثيرة من الرجال أصحاب القوة حمل مفاتيح صناديقها، فقام قومه بتوجيه النصح له بعدم الفرح بزخارف الدنيا، حيث إن هذا الفرح يشغله عن القيام بحق الله تعالى في هذه الأموال، فالله تعالى لا يحب الفرحين؛ لأن في حب المال إلى هذه الدرجة إيثار لها على الآخرة، وهذا أصل كل شر، ومنبع كل فساد[1].

قال سيد قطب: «وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة. «لا تفرح» فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ، لا تفرح فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال وينسي نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران، لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير له لبه، ويتطاول به على العباد، «إن الله لا يحب الفرحين» فهم يردونه بذلك إلى الله، الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال، المتباهين المتطاولين بسلطانه على الناس»[2].

ومثله أيضًا قوله تعالى في حق سحرة فرعون إذ قال: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء:٤٤].

فاستعان هؤلاء السحرة بعزة عبد عاجز ضعيف، ولكنه تجبر فأصبح في صورة ملك له جنود، كما أنه استخف قومه وأطاعوه، فغرتهم هذه الزينة وهذه الأبهة، ولم يعلموا حقيقة الأمر التي لم تصل بصائرهم إليها[3].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٥٣٦.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١١.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي

قال الشعراوي «رحمه الله» في تفسيره للآية: «هذا قسمهم، وما أخيبه من قسم؛ لأن فرعون لا يغلب ولا يقهر في نظرهم، والعزة تعني عدم القهر وعدم الغلبة، لكن عزة فرعون عزة كاذبة وأنفة وكبرياء بلا رصيد من حق، وعزة بالإثم كالتي قال الله عنها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦]»[١].

فكثرة الغنى والمال والجاه والركون إلى ألوان الملذات والشهوات مع عدم القيام بحق الله عز وجل في هذه النعم من الحمد والشكر عليها سببٌ لهلاك العبد، فهذه عزة مذمومة.

ويخلص من هذا إلى أن أنواع العزة المذمومة -كما جاءت في القرآن الكريم- هي أربع: عزة الكافر عنادًا واستكبارًا عن قبول الحق، وعزة المنافق اغترارًا بالمواقف، وعزة الرهط والعشيرة والقبيلة افتخارًا بالنسب والنفر، وعزة الغنى وزينة الحياة الدنيا ركونًا إلى الملذات والشهوات، فعلى المسلم تجنب هذه البواعث والدوافع على العزة المذمومة حتى لا يقع فيها من حيث لا يشعر.

(١) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٥٦٧. ص٥٩١.

علاج العزة المذمومة

قدمت النصوص القرآنية مجموعة من الآيات التي تحمل علاجًا لمن يتصفون بهذا الخلق المذموم، وهي متمثلة فيما يأتي:

أولًا: تقوية الإيمان بالله والتوكل عليه:

ذكرنا من أنواع العزة المذمومة عزة المنافق، والتي كان من أهم دوافعها تصيد الفرص واقتناصها لجعلها في غير صالح المؤمنين، فها هو الله عز وجل يقول عنهم: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال:٤٩].

فهؤلاء المنافقون يحتقرون المؤمنين ويستخفون بعقولهم عندما أقدموا على قتال المشركين في بدر، وكان عددهم يفوق عدد المشركين بثلاثة أضعاف تقريبًا، فقال المنافقون مستهزئين بالمؤمنين: إن هذا الدين الذي اعتنقه المؤمنون هو الذي أدى بهم إلى هذه الموارد التي سوف يكون فيها هلاكهم، ولم يعلموا أن إيمانهم بهذا الدين العظيم هو الذي يوجب عليهم الإقدام لنصرة دين الله عز وجل.

قال السعدي رحمه الله: «فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن

المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقًا بربه، مطمئن القلب لا فزعًا ولا جبانًا، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لا يغالب قوته قوة، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه»[1].

وبهذا تكون تقوية الإيمان بالله سبحانه وتعالى والتوكل عليه من أهم نقاط علاج العزة المذمومة لأصحاب النفوس الضعيفة، فإذا قوي إيمانهم وتوكلوا على الله تعالى حق التوكل، أمدهم الله تعالى بالعزة والغلبة، ولذلك إذا كان الله تعالى قد أمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالتوكل عليه حين قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء:٢١٧].

فمن باب أولى أن يتوكل عليه المؤمنون.

ثانيًا: بيان حقيقة الدنيا وزينتها وسرعة زوالها:

يقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال:٦٧].

فهذه الآية فيها عتابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم لما كان منه من فداء الأسرى يوم بدر، فاستشار أصحابه فيهم، فأشار أبو بكر رضي الله عنه عليه بفدائهم مقابل إطلاق سراحهم؛ لأن المهاجرين كانوا في ذلك الوقت فقراء، وكانوا حديثي عهد بترك ديارهم وأموالهم في مكة حين هاجروا إلى المدينة المنورة، ولعل الله تعالى يهديهم بعد فكاك أسرهم فيؤمنوا، في حين أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتل الأسرى جميعهم؛ لأنهم كانوا أئمة الكفر وصناديدهم، فيعلم المشركون حينئذٍ أن بأس المؤمنين شديد، وتظهر به قوة الإسلام والمسلمين، لكن النبي صلى الله عليه وسلم للينه ورقة قلبه ورحمته أخذ برأي أبي بكر[2]، فنزلت هذه الآية تعاتب النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، وتعرفه أن قتل المشركين كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم، فكان يجب على النبي صلى الله عليه وسلم المبالغة في قتل هؤلاء المشركين، وقهرهم غلبةً وقسرًا.

ثم وجه الله عز وجل الخطاب إلى المؤمنين من صحابة رسول الله صلى الله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٢.

(٢) انظر: فقه السيرة، البوطي ص١٨٥.



عليه وسلم، فقال: أيها المؤمنون إنكم تريدون عرض الدنيا من مال ومتاع حين أسرتم المشركين، ولكن الله تعالى يريد لكم زينة الآخرة، وما أعده سبحانه للمؤمنين وأهل ولايته في جنان النعيم بقتلكم هؤلاء المشركين وإثخانكم في الأرض، فافعلوا ما يريده الله تعالى منكم، وليس ما تدعوكم إليه أهواؤكم، من الرغبة في الدنيا، فإنه جل جلاله عزيز حكيم، عزيز إن فعلتم ما يريده منكم، فإنه لن يجعل عدوكم يغلبكم؛ بل ستكون الغلبة لكم؛ لأن الله تعالى عزيز لا يقهر ولا يغلب، كما أنه حكيم في تدبيره أمر خلقه[1].

فما أخذه المسلمون من مال مقابل إبقاء أسرى المشركين على قيد الحياة هو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم والقضاء عليهم.

قال السعدي رحمه الله: «يقول تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفعل، لكنه حكيم، يبتلي بعضكم ببعض»[2].

وبهذا تكون معرفة حقيقة الدنيا سببًا في علاج أصحاب النفوس المريضة الذين يلهثون وراء التمتع بزينتها.

ثالثًا: بيان ضعف الولاء لغير الله وانقطاعه:

يقول الله عز وجل في الذين تركوا الولاء لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وطلبوه عند المشركين، فاتخذوهم أولياء يتعززون بهم ويستنصرونهم: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

فالله تعالى يبشر هؤلاء المنافقين-على سبيل التهكم-وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، فيبشرهم بأقبح بشارة، وهي العذاب الأليم الموجع، وذلك بسبب اتخاذهم الكافرين أولياء عن طريق محبتهم ومعاونتهم ونصرتهم، في حين تركوا ولاية المؤمنين، فما الذي دفعهم إلى ذلك؟ هل يبتغون العزة ويطلبونها عندهم؟ فإن العزة الحقيقية لله جل جلاله، وفي موالاته تعالى وموالاة المؤمنين.

قال السعدي رحمه الله: «وهذا هو

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٦.

الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعًا، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين، وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، ويغض الكافرين وعداوتهم»[1].

فإذا علم هؤلاء أن ولاءهم لغير الله تعالى هو باطل وضعيف ومنقطع، ولا يجدي من ورائه نفعًا يوصلهم إلى الآخرة، وإلى مرضات الله سبحانه وتعالى، حينئذٍ يكون هذا علاجًا للعزة المزعومة المذمومة التي يلهث أصحابها وراءها، فهي عزة واهية باطلة، فالعزة الحقيقية المحمودة هي التي تكون في رضا الله جل جلاله.

ويخلص من هذا إلى أن القرآن الكريم وضع بعض الحلول أو العلاج لهذه العزة المذمومة، فإذا قوى المرء إيمانه بالله تعالى، وتوكل عليه حق توكله، وإذا لم يلهث وراء ملذات الدنيا وشهواتها ليحصل منها على عرض زائل، وأن هذه الحياة الدنيا كلها فانية وسريعة الزوال، ولا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة، وإذا علم حقيقة الولاء، وأنه لا يكون إلا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، حينئذٍ يتخلص هذا المرء من هذا الخلق المذموم، ويتحول عنده إلى خلق محمود.

(١) المصدر السابق ص٢٠٩.

آثار العزة وعواقبها

لاشك أن للعزة المحمودة آثارًا في الدنيا وفي الآخرة، وللعزة المذمومة عواقب وخيمة في الدنيا وفي الآخرة، ستتعرف على أهم الآثار وأهم العواقب لكلا النوعين في النقاط الآتية:

أولًا: آثار العزة المحمودة في الدنيا:

إن العزة المحمودة تظهر آثارها في الدنيا، وذلك من خلال النقاط الآتية:

١ . علو الهمة والثبات على الحق.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النمل:٧٨-٧٩].

فالله تعالى سوف يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بحكمه فيهم، فينتقم من المبطل منهم، كما سيجزي المحسن منهم بالثواب الحسن، فهو العزيز في انتقامه من المبطلين، لا يقدر أحد على منعه تعالى من الانتقام منهم ومن غيرهم الضالين عن طريق الهدى.

ثم يأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتفويض جميع أموره إليه، فإنه سبحانه وتعالى كافيه؛ لأنه على الحق المبين الواضح لمن تأمله وتدبره، فهذا من باب التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وكأنه تعالى يقول له: لا يحزنك تكذيب المكذبين لك، وخلافهم لما تأمرهم به، ولكن امض لأمر ربك الذي بعثك فيه[1].

فنبذ المؤمن لما يلاقيه من المكذبين والمشركين فيه إعلاءٌ للهمة، وثبات على الحق، وعدم الركون إلى ما يلاقيه منهم، فإذا لم يكن الأمر كذلك فستأتي نتيجة ذلك بالفشل، فيجب على المؤمن المضي في طريق الحق والثبات عليه، حتى يمده الله تعالى بالنصر المؤزر.

٢ . الصبر على الشدائد.

إن إبراهيم عليه السلام لما دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبادة دون ما كانوا يعبدونه من الأصنام والأوثان، فقابلوا هذه الدعوة بالسخرية والاستهزاء؛ بل هموا بقتله وحرقه، فلما ألقوه في النار نجاه الله تعالى منها، وما زال قومه مستمرين في عنادهم وغيهم وضلالهم، ولم يؤمن معه إلا لوط عليه السلام.

فقال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦﴾ [العنكبوت:٢٦].

ثم قرر إبراهيم عليه السلام ترك هذه الأرض السوء التي عليها قومه، وأن يهاجر إلى الأرض المباركة في الشام، وعلل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٩٥.

هجرته بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، أي إنه سبحانه وتعالى العزيز القادر على هدايتهم، والحكيم بتدبير شؤون خلقه.

وعليه فإن العزة التي كان يتمتع بها إبراهيم عليه السلام جعلته يثبت على الحق الذي آتاه الله تعالى إياه، فلم يجزع لما لاقاه من قومه في طريق دعوتهم إلى الحق؛ بل صبر وتحمل في سبيل الله تعالى الكثير والكثير، ومع ذلك لم يذكر الله تعالى لنا أنه دعا على قومه، ولم يذكر أيضًا أنه تعالى أهلك قومه بعذاب مستأصل كبقية الأقوام السابقة التي أهلكها الله تعالى بالاستئصال، ولكنه تعالى ذكر اعتزال إبراهيم عليه السلام لقومه، وهجرته من بين أظهرهم ثابتًا على الحق، صابرًا لما لاقاه من أذى قومه له، ولما سيلاقيه من شدائد بعد ذلك.

٣. التمسك بهدايات القرآن الكريم والسنة النبوية.

إن الله تعالى ذكر حال المهتدين الموفقين من عباده، وهم أهل العلم، فقال عز وجل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾ [سبأ:٦].

فإنهم يرون فيما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من الأخبار أنه الحق، وما سواه مما خالفه أو ناقضه فهو باطل، كما أنهم يرون في أوامره ونواهيه أنه يهدي إلى صراط العزيز الحميد، قال السعدي: «وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق والإخلاص وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنهى عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين»[(١)].

وعليه فإن العزة التي يتمتع بها المؤمنون جعلتهم يزيدون تمسكًا بهدايات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله.

ذكر الله تعالى أن العزة التي يتمتع

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٧٥.

بها المؤمنون في الدنيا جعلتهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون فيه لومة لائم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [التوبة: ٧١].

والمعروف هو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من بر وخير، من العقيدة الحسنة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، وإن أول ما يأمرون به أنفسهم، والمنكر هو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة المزيفة، والأعمال الخبيثة والأخلاق الرذيلة، كما أنهم يطيعون الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يزالون ملازمين لطاعة الله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم على الدوام[(١)].

قال سيد قطب عن طبيعة المؤمنين أنهم «يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض، فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله ،وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم»[(٢)].

ويقول الله تعالى عنهم في موضع آخر:.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

ومن آثار هذه العزة في الدنيا أيضًا الجهاد في سبيل الله عز وجل حيث قال تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ [الحديد: ٢٥].

فإن من جملة ما أنعم الله تعالى به على عباده خلقه الحديد، إذ علم الله تعالى الناس صنعته، وجعله رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد أن أقام عليه الحجة، كما أن فيه منافع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٤٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٥.

للناس في كثير من أمور حياتهم، ومنها صناعة أدوات الحرب من آلات وأسلحة وغير ذلك؛ لتكون قوة رادعة يستخدمها المسلمون في تنفيذ أحكام الشريعة فيما بينهم، ولجهاد الأعداء الذين يعتدون على حرمات الدين والبلاد، ويعرقلون انتشار الإسلام على وجه الأرض.

قال الزحيلي: «إنما فعل الله ذلك ليعلم علم مشاهدة ووجود من ينصر دينه وينصر رسله بإخلاص ونية صالحة، باستعمال الحديد، في أسلحة الجهاد ومقاومة الأعداء، إن الله قوي قادر عزيز قاهر غالب، يستطيع دفع عدوان الظالمين، وينصر رسله والمؤمنين من غير حاجة إليهم، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به وبثوابه، ويحققوا لأنفسهم العزة والمنعة والهيبة في قلوب الناس، فإن حماية القيم والمبادئ تحتاج دائما إلى حماة أشداء، ذوي بأس وإباء»[(١)].

وقد ورد عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**)[(٢)].

ويفهم من هذا أن العزة والكرامة جعلت لمن اتبع أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وسار على هداه، واقتفى أثره، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وجاهد في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمة التوحيد.

ثانيًا: آثار العزة المحمودة في الآخرة:

تظهر آثار العزة المحمودة في الآخرة من خلال النقاط الآتية:

١ . مغفرة الذنوب.

يقول الله عز وجل: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥﴾ [الفتح:٥].

وهذه الآية ضمن مجموعة من الآيات التي تتحدث عن صلح الحديبية، وقد سماه الله تعالى فتحًا مبينًا، فهو سبحانه قد فتح على رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بهذا الفتح العظيم؛ ليشكروه بالطاعة والجهاد والصبر، وقد أتم الله تعالى لهم ذلك؛ ليدخلهم الجنة، ويغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، فيفوزوا بهذا الفوز العظيم[(٣)].

٢ . استحقاق رضوان الله تعالى.

يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ

(١) التفسير المنير ٢٧/ ٣٣٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٥١١٤، ٩/ ١٢٣.
وصححه الألباني في تخريج مشكلة الفقر رقم ٢٤، ص٢٥.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٩٥.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧١-٧٢].

فهؤلاء المؤمنون الذين يتصفون بالعزة المحمودة، ويتصفون بالأوصاف الواردة في الآية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فأولئك يستحقون الرحمة من الله تعالى، كما أنه عز وجل وعدهم -ووعده حق منجز لا محالة- بجنات تجري من تحتها الأنهار، ومنازل يسكنونها من الدر والياقوت، كما أنهم يستحقون رضوان الله تعالى، فرضوانٌ يسيرٌ منه عز وجل أكبر من كل الذي أعطاهم إياهم من نعم في الآخرة، فذلك هو الفوز العظيم[(١)].

فلذلك أتى بكلمة «رضوان» نكرة؛ ليبين أن القليل من رضوان الله تعالى أفضل وأعظم من كل ما منحهم من نعيم وملذات، وبذلك يكون المؤمنون قد استحقوا هذا الرضوان فمنحهم الله تعالى إياه في الآخرة.

٣. جنات الخلد والنعيم المقيم.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [لقمان:٨-٩].

فذكر الله تعالى نعيم المؤمنين في الآخرة، حيث أعد لهم جنات النعيم الخالد الدائم الذي لا ينتهي، فهذا وعد الله جل جلاله النافذ لا محالة، وكان قد وعدهم به في الدنيا، وها هو سبحانه في الآخرة ينفذ لهم ما وعد به، فهو العزيز الحكيم كامل القدرة يعذب المعرض، ويثيب المقبل، كامل العلم، يفعل الأفعال كما ينبغي، فلا يعذب من يؤمن، ولا يثيب من كفر، فهو حكيم يضع الفعل المناسب اللائق في مكانه المناسب[(٢)].

وهكذا تظهر آثار العزة المحمودة في الآخرة من مغفرة الذنوب، واستحقاق رضوان الله تعالى، والفوز بجنات الخلد والنعيم المقيم.

ثالثًا: عواقب العزة المذمومة في الدنيا:

تتجلى عواقب العزة المذمومة في القرآن الكريم من خلال النقاط الآتية:

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٣٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١١٦.

١ . اتباع الهوى والشهوات.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٨-٢٠٩].

وهذه الآية نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، فأمرهم الله تعالى أن يؤمنوا كذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويدخلوا في دين الإسلام، ونهاهم عن السير في الطريق الذي يدعوهم إليه الشيطان؛ لأنه عدوٌّ مبينٌ ظاهر العداوة، ثم توعدهم الله تعالى بأنهم إن تنحوا عن طريق الحق والاستقامة من بعد ما جاءتهم الآيات من التعريف بمحمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم، فإن الله تعالى عزيز لا يمتنع عليه ما يريده من إنزال العقوبة بهم، وحكيم فيما يفعله.

وقد يكون هذا الخطاب موجهًا إلى المؤمنين أيضًا، ويكون المعنى: أن الله تعالى يأمرهم بالتمسك بالإسلام، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، ويحذرهم من تتبع خطوات الشيطان، فعداوته لهم ظاهرة وواضحة، ثم توعدهم بأنهم إن تنحوا عن طريق الاستقامة من بعد ما جاءتهم المعجزات وآيات القرآن الكريم، فإن الله تعالى عزيز لا يمتنع عليه ما يريده من إنزال العقوبة لهم في الدنيا والآخرة، وحكيم فيما يفعل[1].

وذكر القرطبي أن الآية فيها دليلٌ على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به[2].

وعليه فإن من كانت عزته لغير الله تعالى، فعزته مذمومة ينتج عنها أنه سوف يكون عرضةً لاتباع الهوى والشيطان.

٢ . الفرقة والتنازع والفشل.

ذكرنا فيما سبق أن من دوافع عزة الكفار الكبر والعناد والاستعلاء على الحق رغم معرفتهم به وتأكدهم منه، فلما اجتمعوا على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لقتالهم في غزوة الأحزاب، فوجئوا بأمر لم تعهده العرب من قبل في الحروب، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد حفروا خندقًا، واستعانوا بالمنافقين واليهود على حرب المؤمنين، فعسكروا حول الخندق يحاصرون المسلمين، ولم يحدث بينهما قتال، فهزم الله تعالى جموع المشركين بوسيلتين لا دخل للمسلمين فيهما، وهما:

الأولى: عندما أتى نعيم بن مسعود إلى

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٣.

النبي صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه بين يديه، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم، وأوقع العداوة والبغضاء بين المشركين واليهود، فصار كل منهما يظن بالآخر سوءًا، فتألب بعضهم على بعض، وأصبح كل منهما يتهم الآخر بالغدر والخيانة، واختفت بينهم الثقة، فأشار أبو سفيان قائد المشركين على جيشه بالانسحاب.

الثانية: الريح الهوجاء التي أرسلها الله تعالى على المشركين فاقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وذلك بعد بضعة عشر يومًا من المحاصرة التي ضربها المشركون على المسلمين[1].

فرد الله تعالى الكفار من قريش واليهود بغيظهم، ولم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا من هذه الحرب، وكفى الله عز وجل المؤمنين في هذه الحرب، وأمدهم بنصر من عنده عز وجل بالملائكة والريح، وكان الله تعالى قويًا في ملكه، عزيزًا في انتقامه من الأحزاب[2].

فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فالعزة والأنفة التي كان يتمتع بها المشركون استكبارًا وعنادًا عن قبول الحق قادت بهم إلى الفرقة والنزاع والفشل.

رابعًا: عواقب العزة المذمومة في الآخرة:

تبرز أهم عواقب العزة المذمومة في الآخرة من خلال ما يأتي:

١ . استحقاق غضب الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤١-٤٢].

فإن الله عز وجل يقسم أنه أنذر فرعون وقومه، حيث أرسل لهم موسى عليه السلام، وأيده بالمعجزات المادية التسعة المعروفة الدالة على صدق رسالته ونبوته، ومع ذلك كذبوا وأنكروا هذه الآيات، وكذبوا الرسول الذي أرسله الله تعالى من عنده عز وجل المستحق وحده أن يفرد بالعبادة دون غيره، فأغرقهم الله تعالى في البحر، ثم أدخلهم النار، فهو العزيز الغالب الذي لا يغلب، مقتدر على الانتقام، ولا يعجزه ما أراد، كما لا يمنعه شيء عما أراد[3].

فرعون وقومه لما كذبوا نبيهم موسى عليه السلام والآيات التي أيده الله تعالى

(١) انظر: فقه السيرة، البوطي ص٢١٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤١٩.
(٣) انظر: التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري ٩/ ٤٤٢.

بها، استحقوا بذلك غضب الله تعالى عليهم، فأهلكهم في الدنيا، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما أنه تعالى سوف يدخلهم النار في الآخرة.

٢. العذاب الشديد.

يقول الله عز وجل: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران:٣-٤].

فالله سبحانه وتعالى أنزل القرآن والتوراة والإنجيل لإخراج الناس مما هم عليه من ضلال، فَمَنْ قَبِلَ هدى الله تعالى فهو المهتدي، ومن لم يقبل بقي على غيه وضلاله، كما أنه سبحانه أنزل الحجج والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد، وفسر كل ما يحتاج إليه الخلق، فأصبحت الأحكام من شدة الظهور والوضوح ما لا يقوى أحد على ردها إلا عنادًا واستكبارًا، وهذا ما فعله المشركون إذ لم يبق لهم عذر ولا حجة على عدم إيمانهم.

ولهذا توعد الله عز وجل الذين كفروا -بعدما بين الآيات ووضحها، فلم يبق عليها لبس أو إشكال- بالعذاب الشديد الذي لا يقدر قدره، ولا يدرك وصفه، فهو سبحانه قوي لا يعجزه شيء، وهو ذو انتقام ممن عصاه[1].

٣. الخلود في نار جهنم.

يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء:٥٦].

فالله تعالى قد أعد لمن جحد آياته التي أيد بها أنبياءه ورسله نارًا مستعرة تشويهم وتحرق أجسامهم إلى درجة تفقدها الحس والإدراك، وكلما وصلت إلى هذه المرحلة بدلهم الله تعالى جلودًا حية غيرها؛ ليحسوا بالعذاب ويشعروا بالألم، فيستمر الألم بلا انقطاع، ويذوقوا العذاب الأليم[2]، فهو سبحانه له العزة التي تتأتى بها تمام القدرة في عقاب المجترئين على الله عز وجل، وله الحكمة التي تتأتى بها الكيفية في إصلائهم النار[3].

٤. الخوف والتخاذل والانهيار عند الشدائد.

أخبر الله تعالى أن المشركين اتخذوا الأصنام والأوثان لتعزهم وتقويهم وتنصرهم وتمدهم بالمال والولد والنعم في الدنيا، ولتكون لهم منعةً من عذاب الله

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢١.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٦٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٩٠.

تعالى في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم:٨١].

فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨٢].

أي: لن تكون لهم هذه الأصنام منعة في الآخرة؛ بل إن هذه الآلهة نفسها التي كانوا يعبدونها في الدنيا ستجحد عبادتهم لها في الآخرة، وستكون عونًا عليهم في العذاب، فهؤلاء المشركون عبدوا الآلهة لتكون عزًّا لهم في الآخرة، فصارت عونًا عليهم في العذاب، فوجدوا عكس ما طلبوا[1].

هذا وقد أكد الله تعالى في موضع آخر على سبب اتخاذهم الأصنام آلهة من دونه عز وجل لأجل أن تكون مودة بينهم في الحياة الدنيا، وليست مودة تدوم؛ بل ستصير يوم القيامة عداوةً وبغضًا لهم، فقال: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥].

ومعلومٌ أنه في يوم القيامة سيتبرأ المتبوع من الأتباع، وكذلك الأصنام ستتبرأ منهم، وستكفرهم وتلعنهم، وحينئذٍ يكون مصير الكل ومأواه النار، وما لهم من ناصر ينصرهم من عذاب الله عز وجل، أو يدفع عنهم العذاب[2].

وهكذا يكون في هذا اليوم العصيب، حيث يظن المشركون أنهم سيجدون من ينصرهم من عذاب الله تعالى، فيعتريهم الخوف الشديد، فَيُفَاجَؤوا بتبرؤ الآلهة منهم وخذلانها لهم، فيصيبهم الانهيار الشديد.

ونخلص من هذا إلى أن العزة المذمومة قادت أصحابها إلى أمورٍ لا تحمد عقباها في الآخرة من استحقاقهم لغضب الله عز وجل، والعذاب الشديد المؤلم، بالإضافة إلى خلودهم في النار أبد الآبدين.

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، التواضع، الذل، الغرور

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣٨٥.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٢١٩.



عناصر الموضوع

مفهوم العزم

أولاً: المعنى اللغوي:

عزم الأمر وعزم عليه يَعْزِمُ عَزْمًا ومَعْزَمًا ومَعْزِمًا وعُزْمًا وعزيمًا وعزيمةً وعَزْمةً وعزمانًا، واعتزمه واعتزم عليه: أراد فعله وعقد قلبه عليه؛ فالعزم ما عقد عليه قلبك من أمرٍ أنك فاعله. ويقال: ما لفلان عزيمة؛ أي: ما يثبت على أمرٍ يعزم عليه؛ كأنه لا يمكن أن يصرم الأمر، بل يتردد فيه ويختلط. وعزم عليه ليفعلن؛ أي: أقسم عليه، وأمره أمرًا جدًا، لا استثناء فيه. والرجل يعتزم الطريق: يمضي فيه ولا ينثني. ويقال: إنه لذو أمرٍ عزيم: أي مجمعٌ ومحكمٌ ومؤكدٌ. ورجل ماضي العزيم مجدٌّ في أموره. والعزم: الصبر في لغة هذيل. يقولون: مالي عنك عزم؛ أي: صبرٌ. والعزيمة: الصريمة، وهي الحاجة التي قد عزمت على فعلها. والعزيمة: الإرادة المؤكدة. والجمع عزائم[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف العزم اصطلاحًا بتعريفات مقاربة وافية، فقال الراغب: «العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر»[(٢)]، وقال الجرجاني: «والعزم: جزم الإرادة بغير تردد»[(٣)]. وقال القرافي: «وأما العزم فهو الإرادة الكائنة على وفق الداعية. والداعية ميلٌ يحصل في النفس لما شعرت به من اشتمال المراد على مصلحة خالصة أو راجحة، أو درء مفسدة خالصة أو راجحة»[(٤)]. وقال ابن القيم: «والعزم: هو القصد الجازم المتصل بالفعل وحقيقته: استجماع قوى الإرادة على الفعل»[(٥)].

ولم يخرج التعريف الاصطلاحي للعزم عن معناه اللغوي، والجزء الحاضر في تلك التعريفات جميعها أن العزم عملٌ قلبيٌّ، فهو من باب الإرادات، وليس هو الرغبة المنبتة عن الفعل، وليس هو الهم الطارئ الذي ينصرف عنه صاحبه بذهولٍ أو فترة.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ١/ ٣٦٣-٣٦٤، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٨١٧، تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٥٢، الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٨٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٠٨-٣٠٩، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) المفردات ٢/ ٤٣٤.

(٣) التعريفات ص ١٦.

(٤) الأمنية في إدراك النية ص ١١٧-١١٨.

(٥) مدارج السالكين ١/ ١٥٢.



العزم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عزم) في القرآن الكريم (٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩]
الفعل المضارع	١	﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]
المصدر	٥	﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:١١٥]

وجاء العزم في القرآن الكريم بمعناه اللغوي: عقد القلب على قطع الأمر وفعله، ويلزم منه الحزم والصبر لحين تحقيقه وإمضائه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] يعني: الذين عزموا على أمر الله فيما عهد إليهم، وصبروا على كل ما لحقهم من إيذاء؛ في سبيل تحقيق ذلك[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٦١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٧٦٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٤٠-٣٤١،، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٦٣-٦٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإرادة:

الإرادة لغةً:

المشيئة والقصد، أراد الشيء: شاءه[(١)].

الإرادة اصطلاحًا:

ميل يعقب اعتقاد النفع[(٢)].

الصلة بين الإرادة والعزم:

أن العزم مقترنٌ بالعمل، وأما الإرادة فقد تسبقه، والعزم إرادةٌ يقطع بها المريد تردده في الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه، ويصح أن يسمى مبدأ إرادة الفعل والرغبة فيه قبل هذا القطع إرادةً ولا يسمى عزمًا، فالإرادة من هذه الجهة سابقة على العزم، وكل عزمٍ إرادةٌ، وليس كل إرادةٍ عزمًا[(٣)].

٢ الهم:

الهم لغة:

ما هممت به في نفسك؛ تقول: أهمني هذا الأمر، وهم بالشيء يهم همًا: أراده ونواه وعزم عليه. والهِمة: ما هممت به من أمرٍ لتفعله[(٤)].

الهم اصطلاحًا:

أول العزيمة وعقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر[(٥)].

الصلة بين الهم والعزم:

أن الهم في الأصل حديث النفس بالفعل، ومبدأ الإرادة، فإذا استحكمت تلك الإرادة صارت عزمًا، وتصميمًا على تحقيق ذلك الهم، فالعزم نهاية الهم[(٦)].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٦٤، تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ١٦٣، الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٧٨، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٩/ ٤٢١، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٩٥-٢٩٧.

(٢) التعريفات، الجرجاني ص ١٦.

(٣) انظر: الفروق اللغوية ص ١٢٤.

(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٥٧، تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٣٨١، الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٦١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٤/ ١١٠ - ١١١، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ١٣٨ - ١٤٠.

(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٤٤.

(٦) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ٢/ ١٠٧.

٣ الحزم:

الحزم لغةً:

جمع الشيء وشده بحزامٍ أو حبلٍ أو نحوه، والحزم: ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة[١].

الحزم اصطلاحًا:

هو ضبط الرجل أمره، والحذر من فواته[٢]، أو هو أخذ الأمور بالضبط والإتقان[٣].

الصلة بين العزم والحزم:

الحزم: جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه، والعزم: قصد الإمضاء[٤].

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ١٦٦، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٣٧٦، الصحاح، الجوهري ٥/ ١٨٩٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٥٣، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ٢٣٢، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٢٨.

(٢) انظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ١/ ٢٧٨، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٣٧٩.

(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٨٦، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣٩.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٥٥١، البحر المحيط ٨/ ٤١٦.

مجالات العزم

ما من امرئٍ ذي عقلٍ إلا وهو يهتم لأمرٍ ما؛ ولذا فإن أصدق الأسماء همام وحارث، كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)].

وإنما يتفاوت قدر الناس على قدر هممهم، ومجالاتها.

وقد تطرق القرآن الكريم إلى شيء من مجالات العزم، يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

أولًا: العزم في طلب العلم وتحمله ونشره:

طلب العلم وتحمله ونشره مجالٌ لظهور أثر تفاوت العزم والهمة، فما بين رجلٍ رزق عقلًا وهمةً فجد في الطلب، وارتقى في الرتب؛ حتى صار يعد من العلماء العاملين والأئمة المتبوعين، وبين من تقاعس عن الجد، ولزم الدعة، وانحطت همته؛ فكان في عداد الهمل الهمج الرعاع أتباع كل ناعقٍ.

وقد أمر الله عز وجل اليهود بأن يأخذوا ما آتاهم من الشرع بقوة، فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ٩٣].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ يعني: التوراة والشرع، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزمٍ ونشاطٍ وجدٍ، ﴿وَاسْمَعُوا﴾ معناه هنا: وأطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط» [(٢)].

وقال البيضاوي: «﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍ وعزيمة» [(٣)].

وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

أي: بجدٍ واجتهادٍ وبقوة قلبٍ وصحة عزيمةٍ؛ لأنه لو أخذه بضعف نية لأداه إلى فتور العمل به [(٤)].

وأمر الله تعالى يحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]

أي: بجدٍ وعزمٍ واجتهادٍ ومواظبةٍ [(٥)].

---

(١) روى أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم ٤٩٥٠، عن أبي وهب الجشمي رضي الله عنه، وكانت له صحبة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة».
وحسنه لغيره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٩٠٤، ورقم ١٠٤٠.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٨٠.

(٣) أنوار التنزيل ١/ ٨٥.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٦٠، التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ٣٤٧، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٣٣.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٧٣-٤٧٤، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٥٠٢.

ثانيًا: العزم في العبادات:

وصف الله عز وجل المؤمنين أولي العزم بأنهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

فلما صح عزمهم في القيام بتلك الأمور استحقوا وصف الرجولة الذي يوحي بتحمل المسئولية وعلو الهمة. فإذا كان الحرص على الوفاء بها بإزاء عاجل ثمرة التجارة، وتحصيل الربح، وكانت همم البشر في جملتها معقودةً على حب خضرة الدنيا؛ كان القائم بها من أهل العزم الخلص.

قال ابن كثير: «فقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عمارًا للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان في السوق وأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٢].

ويروى نحو ذلك عن سالم بن عبد الله: أنه نظر إلى قوم من السوق قاموا وتركوا بياعاتهم إلى الصلاة، فقال: «هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾».

ويروى عن ابن مسعود، نحو ذلك أيضًا[٣].

وفيه ترك الربح القريب رغبةً في الفوز بنعيم الآخرة، وهذا مقامٌ لا يقومه إلا أولوالعزم من البشر.

وفي وصية لقمان لابنه ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فيحتمل أن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى كلها داخلة في المراد بعزم الأمور[٤].

والحج عبادةٌ لا يتم مقصودها إلا صاحب عزيمةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] أي: ائتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توانٍ ولا نقصان يقع منكم فيهما[٥].

وهو مقامٌ للعطاء المالي والبدني فضلًا عن مفارقة الأهل، ومكابدة السفر ومشاقه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٦٧.
(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٤٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١-٣٢٢، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٠٨.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٩، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٥-٤١٦.
(٥) الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٣٨.

ولا يخلو الحاج من دواعي الرغبة، وبواعث الغضب، والاستفزاز إلى الجدل والمراء؛ ولذا نهاه الله عز وجل عن ذلك، مؤكدًا على فضيلة التقوى، فقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة: ١٩٧].

والأمر بالتزود إشارةٌ إلى ضرورة استصحابها من أول عقد عزمه على الحج، فيتزود بالتقوى كما يتزود بالطعام؛ مخلصًا نيته من كل شائبةٍ، ومجردًا قصده من كل داخلةٍ. والحج المبرور أفضل الجهاد فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: **(يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: (لا، لكن أفضل الجهاد: حجٌّ مبرورٌ)**[١].

وقال الغزالي: «وأما العزم؛ فليعلم أنه بعزمه قاصدًا إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجهًا إلى زيارة بيت الله عز وجل؛ وليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، وليعلم أنه عزمٌ على أمرٍ رفيع شأنه خطير أمره، وأن من طلب عظيمًا خاطر بعظيم. وليجعل عزمه خالصًا لوجه الله عز وجل بعيدًا عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره، فليصحح مع نفسه العزم. وتصحيحه بإخلاصه، وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياءٌ وسمعة، فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير»[٢].

ثالثًا: العزم في الجهاد:

الجهاد في سبيل الله عز وجل من أعظم مهمات الدين، وهو أبرز مجالات العزم وأوضحها، ذلك أن الجهاد مخاطرةٌ بالنفس والنفيس، فلا تجد أحدًا أصدق همةً ولا أتم عزيمةً ممن وطن نفسه على بذل النفس والنفيس لإعلاء كلمة الحق. ومنزلة الجهاد من الإسلام سامقةٌ، وشأنه عظيمٌ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **(جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد؟ قال: (لا أجده)قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم ١٥٢٠.
قال ابن حجر في فتح الباري ٣/ ٣٨٢: «اختلف في ضبط لكن فالأكثر بضم الكاف خطاب للنسوة قال القابسي وهو الذي تميل إليه نفسي، وفي رواية الحموي لكن بكسر الكاف وزيادة ألف قبلها، بلفظ الاستدراك، والأول أكثر فائدة، لأنه يشتمل على إثبات فضل الحج وعلى جواب سؤالها عن الجهاد وسماه جهادا لما فيه من مجاهدة النفس».

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٢٦٧.

أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟)، قال: ومن يستطيع ذلك؟![1]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: (قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله)[2].

وعن معاذ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)[3].

فهذه الأحاديث، وعشرات الأحاديث غيرها توقفنا على شرف الجهاد، ورتبة المجاهدين.

وقد كرم الله عز وجل رجالًا بصدق عزائمهم، وعلو همتهم، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والإخبار عنهم بأنهم رجالٌ زيادة في الثناء؛ لأن الرَّجُلَ مشتق من الرِّجْلِ، وهي قوة اعتماد الإنسان[4].

وعن أنس رضي الله عنه قال: (غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر، فقال: (يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع) فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: (اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني: أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، - يعني: المشركين-، ثم تقدم) فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال: (يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد) قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحدٌ إلا أخته ببنانه قال أنس: (كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]؛ إلى آخر الآية)[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد، رقم ٢٧٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله، رقم ١٨٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، رقم ٢٧٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، رقم ١٨٨٨.

(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٠١٦.
وصححه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٨٦٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٠٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله عز وجل: (من المؤمنين رجال صدقوا)، رقم ٢٨٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم ١٩٠٣.

وفيه الأخذ بالشدة واستهلاك الإنسان نفسه في طاعة الله. وفيه الوفاء بالعهد لله بإهلاك النفس، ولا يعارض قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ لأن هؤلاء عاهدوا الله فوفوا بما عاهدوه من العناء في المشركين وأخذوا في الشدة بأن باعوا نفوسهم من الله بالجنة(١).

رابعًا: العزم في الدعوة إلى الله:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾ [المدثر: ١-٢] فقوله: ﴿قُمْ﴾ أي: من مضجعك أو: قم قيام عزمٍ وتصميمٍ، فأنذر(٢).

والدعوة جهاد بالكلمة، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ولعل من حكمة الترتيب في هذه الوصية أنه ابتدره بالحث على ما فيه صلاح نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل، ألا وهو الصلاة، فإذا أقام الصلاة كما أمر بها نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، فكان كاملًا في نفسه مهيأً لتكميل غيره، فانتقل به إلى الوصية التالية ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر دائرٌ بين ثلاثة أحوال:

الحال الأولى: أن يستجاب له، فيكون عليه أن يشكر الله الذي فتح له القلوب ووضع له القبول، وإنما يكون الشكر بمزيد من الاجتهاد في الطاعة والقيام بحق الله، والصبر عن المعصية التي تحرم التوفيق.

الحال الثانية: أن يعرض الناس عنه، فينبغي عليه ألا ييأس من هدايتهم، وأن يتلطف في نصيحتهم، وأن يتحرى أوقات إقبال قلوبهم، وأن يتخولهم مرةً بعد مرةٍ، وفرصةً بعد فرصة.

الحال الثالثة: أن يضموا إلى إعراضهم عنه أذيته بالقول والفعل؛ فينبغي عليه أن يصبر على أذاهم. ففي الأحوال الثلاثة كان الواجب في حقه أنواعًا من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على الأذى؛ فكانت الوصية الثالثة: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾.

خامسًا: العزم في العلاقات الأسرية:

من أهم مجالات العزم في العلاقات الأسرية: النكاح والطلاق، وما يتعلق بهما من سلوكٍ يترتب على التزام حكم الشرع فيه، وتعظيم حرمات الله، وحفظ الأعراض، وصيانة جناب العفاف، ويترتب على التجاوز فيه انتهاك المحارم، وإيذاء

(١) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ٢٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٥٤.

المشاعر، وهتك الأعراض.

والعلاقة بين الرجل والمرأة قد تحكم بنوعٍ من الميل الفطري والشهوة الغريزية؛ كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٦].

أي: لن تقدروا أن تسووا بين النساء في الحب وميل القلب، ولو حرصتم على العدل، فلا تميلوا إلى التي تحبونها كل الميل في القسم والنفقة، ولا تتبعوا أهواءكم أفعالكم فتدعوا الأخرى كالمعلقة، لا أيّمًا ولا ذات بعلٍ[١].

والميل بالتفضيل في الحقوق الشرعية بينهن لا يجوز، أما الميل الطبيعي بمحبة بعضهن أكثر من بعض فهو غير مستطاع دفعه للبشر؛ لأنه انفعالٌ وتأثر نفسانيٌ لا فعلٌ[٢].

وربما كان هذا الميل الطبيعي مذللًا سبيل الجور في الحقوق الشرعية، وهذا لا يدفع إلا بعزمٍ وتصميمٍ على العدل، ولو بشيءٍ من ترك المباح مخافة الولوج في المحظور، ولو بشيءٍ من هضم حظ النفس من نيل مرادها من محبوبها. وبالجملة فهو مقام عزمٍ لا يثبت فيه إلا من كبح شهوة قلبه بوازع التقوى، وزم شيطان غضبه بلجام الحلم والأناة.

ويظهر هذا العزم في العلاقات الأسرية في أمرٍ آخر وهو الطلاق، فكما يتأثر النكاح وتوابعه بالميل الفطري والشهوة الغريزية، فكذا الطلاق وتوابعه قد يتأثر بالبغض والرغبة في المفارقة بأقل خسارةٍ يتجشمها، وبأكثر ما يستطيع تحميل الطرف الآخر منها، فبعض الأزواج لا يمسك بمعروفٍ ولا يسرح بإحسان، وقد صمم على فراق زوجه، وإنما يفعل ذلك رجاء أن يضطرها أن تترك له حقها أو شيئًا منه، أو نكايةً فيها وتحكمًا بغير وجه حقٍ. فأغلق الشرع عليه إلا باب المعروف، وإن لم يمتثل كان ظالمًا لنفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال تعالى في الإيلاء: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢٦ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

قال البقاعي: «ولما كان الحال في مدة الإيلاء شبيهًا بحال الطلاق وليس به قال مبينًا أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة الأشهر، بل إما أن يفيء أو يطلق، فإن أبى

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٠٩.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٢.

طلق عليه الحاكم. ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فأوقع عليه العزم من غير حرف جر، بمعنى أنهم تركوا ما كانوا فيه من الذبذبة وجعلوا الطلاق عزيمة واقعًا، ولما كان المطلق ربما ندم فحمله العشق على إنكار الطلاق رهبه بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي: الملك الذي له الجلال والإكرام ﴿سَمِيعٌ﴾ أي: لعبارتهم عنه ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: به وبنيتهم فيه.

قال الحرالي: وفيه تهديدٌ بما يقع في الأنفس والبواطن من المضارة والمضاجرة بين الأزواج في أمور لا تأخذها الأحكام ولا يمكن أن يصل إلى علمها الحكام فجعلهم أمناء على أنفسهم فيما بطن وظهر»[(١)].

وقال ابن عاشور: «وعزم الطلاق: التصميم عليه، واستقرار الرأي فيه بعد التأمل، وهو شيء لا يحصل لكل مؤلٍ من تلقاء نفسه، وخاصة إذا كان غالب القصد من الإيلاء المغاضبة والمضارة فقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ دليلٌ على شرط محذوف دل عليه قوله: ﴿فَإِن فَاءُو﴾ فالتقدير: وإن لم يفيئوا فقد وجب عليهم الطلاق، فهم بخير النظرين بين أن يفيئوا أو يطلقوا، فإن عزموا الطلاق فقد وقع طلاقهم. وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ دليل الجواب، أي: فقد لزمهم وأمضى طلاقهم، فقد حد الله للرجال في الإيلاء أجلًا محدودًا لا يتجاوزونه، فإما أن يعودوا إلى مضاجعة أزواجهم، وإما أن يطلقوا، ولا مندوحة لهم غير هذين»[(٢)].

سادسًا: العزم في العلاقات الاجتماعية:

ومما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الإصلاح بين الناس.

يقول تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

والمعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير. والإصلاح بين الناس هو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما؛ ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به[(٣)].

فإن كان المظلوم هو الساعي إلى الإصلاح، المبادر بالتأليف؛ ابتغاء مرضات الله، فلعمر الله إنه لمقامٌ عظيمٌ لا يقومه إلا أشداء الرجال وأقوياؤهم. وإن من العزم أن يوطن المرء نفسه على الصبر على الأذى إن كان فيه إصلاحٌ وتأليفٌ للقلوب، فإن غفر لظالمه ابتغاء وجه ربه؛ استحق أن يكون ممن قال فيهم الله عز وجل: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قال مكي: «أي: ولمن صبر على إساءة من أساء إليه، وغفر للمسيء إليه جرمه فلم

(١) نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٢٩٢-٢٩٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٨٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٨١.

ينتصر منه وهو قادر على ذلك؛ ابتغاء وجه الله عز وجل وجزيل ثوابه، إن ذلك الفعل منه لمن عزم الأمور، لمن أعالي الأمور التي ندب الله إلى فعلها عبادة ومن أجلها، وذلك فعل الوارعين»[1].

ويحكى أن رجلًا سب رجلًا في مجلس الحسن، فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام وتلا هذه الآية: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] فقال الحسن: «عقلها والله وفهمها لما ضيعها الجاهلون»[2].

أخلاق أولي العزم

من صفات الأخلاق أنها تؤثر في بعضها بعضًا، فتحصيل خُلُقٍ منها ينعكس إيجابًا على تكوين غيره من الأخلاق، ويظهر هذا القانون بوضوحٍ في خلق العزم، إذ يلزم لصاحبه أن يكون صابرًا مصابرًا قادرًا على كبح شهوات نفسه، وتركيز عزمه، فإذا بلغ تلك الرتبة السامقة كان من أقدر الناس على إتيان البر في المكره والمنشط، وفي العسر واليسر، كالعفو مع القدرة، وتقوى الله فيمن لا يتقي الله فيه.

ولتحليل أخلاق العازمين التي نوه بها القرآن الكريم تقابلنا عبارة (عزم الأمور) ثلاث مراتٍ في ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل هي: قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ويتدبر الآيات المذكورة تتضح أخلاق

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ١٠/ ٦٦٠٩-٦٦١٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٠٧، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٣٤٥-٣٤٦.

أولي العزم، فأولها: الصبر، وهو المشترك بين الآيات الثلاث، وثانيها: التقوى، وثالثها: العفو عن المسيء. ثم إن هناك أخلاقًا أخرى من أخلاق أهل العزم نوه بها القرآن الكريم، وهي الصدق والإخلاص والمسارعة في الخيرات، والثبات.

أولًا: الصبر:

الصبر من أهم أخلاق أهل العزم، والعازم محتاجٌ إلى استيفاء أنواع الصبر بقدر عزيمته وشرف معزومه، فهو محتاجٌ إلى الصبر في الطاعة لنيل التوفيق في حصول مسعاه. وهو محتاج إلى الصبر عن تثبيط المثبطين، ونقد المنتقدين الذين لا هَمَّ لهم إلا الهدم، ومحتاجٌ إلى الصبر عن المعاصي التي توهن العزم، وتطمس نور البصيرة، وتورث الكسل، وتقتل الطموح وتفقد زمام المبادرة. ومحتاج إلى الصبر عن رد الأذى، ولا شك أن أعداء أهل العزم كثيرون من أعداء أهل الحق في كل زمان ومكانٍ. فلا عجب أن يعرف أهل العزائم بالصبر، ويشتهرون به. ولما أمر الله عز وجل نبيه بالصبر اقتداءً بصفوة الرسل - عليهم السلام - وصفهم بأولي العزم، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأولو العزم هم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها[(١)]، فعلم أن الصبر والمصابرة من أخص أخلاق أولى العزم. قال ابن عاشور: «والوصف بالعزم مشعرٌ بمدح الموصوف؛ لأن شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرًا على النفوس؛ لأنها تعاكس الشهوات، ومن ثم وصف أفضل الرسل بأولي العزم»[(٢)].

فها هم يقارعون أقوامهم مقسمين مظهرين كمال العزيمة: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وهلاك الأقرباء والعشائر من أهل النصرة والملة. وفي الأموال: ما يبذله المسلم من مالٍ في سبيل الله، وما يقع في تلك الأموال من أنواع الآفات والتلف، وما يسمعون من أهل الكتاب والمشركين من المطاعن في الدين الحنيف، وصد من أراد الإيمان، وتخطئة من آمن، وسب الله عز

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١١٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ١٢٢.

وجل، كقولهم: إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء، وقولهم: يد الله مغلولة- تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا- وكهجاء رسوله صلى الله عليه وسلم وافترائهم وكذبهم عليه، ومعاداة أصحابه رضي الله عنهم [(١)].

قال النسفي: «خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الشدائد والصبر عليها؛ حتى إذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتةً، فينكرها وتشمئز منها نفسه» [(٢)].

وفيه إيقاظ المؤمنين إلى ما يعترض أهل الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيه لهم على أنهم إن كانوا ممن توهنهم الهزيمة فليسوا أحرياء بنصر الحق، وأكد الفعل بلام القسم وبنون التوكيد الشديدة؛ لإفادة تحقيق الابتلاء [(٣)].

ففيه تحضيضٌ لهم على الصبر على أنواع البلاء والأذى المذكورة، وتحذيرٌ لهم من ترك التقوى فيمن لا يتقي الله فيهم، ولا يرقب فيهم إلًا ولا ذمةً، فلا ينبغي للمسلم أن يفتري على عدوه كذبًا، أو يفحش في القول والفعل، وإن كان عدوه هذا من أفحش الناس وأكذبهم. فالصبر المراد: صبر على المصائب، وصبرٌ عن المعاصي.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٩٠، الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٤٩.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣١٨-٣١٩.

(٣) التحرير والتنوير ٤/ ١٨٩.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

فيه -زيادةً على الصبر- تحضيضٌ على المغفرة للمسيء مع القدرة على رد الإساءة، وهذه سمة الداعية الحريص على وصول الخير والهداية لكل الناس، وهؤلاء هم من يألفون ويؤلفون.

وقال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

يعني: «إن ذلك الصبر على الأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حق الأمور التي أمر الله عز وجل بها وعزم عليها» [(٤)].

وفي الآية إشارةٌ إلى الصبر على الطاعة بالأمر بالمحافظة على الصلاة، بالإضافة للأمر بالصبر على الأذى.

ثانيًا: التقوى:

التقوى سبيلها مراقبة الخطرات والحركات، ومراقبة الخطرات سبيل تصحيح العزم، فالعزم مبدؤه خطرةٌ، ومهما أيقن العبد بعلم الله عز وجل السر والنجوى جاهد نفسه في مراقبة عزمه وإخلاصه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾

(٤) تفسير مقاتل ٣/ ٤٣٥.

[طه: ٧] قيل: السر: العزيمة، وما هو أخفى: هو الهم الذي دون العزيمة[(١)].

وعن ابن عباس قال: «السر: ما أسر ابن آدم في نفسه. «وأخفى»: ما أخفى ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله، فالله يعلم ذلك، فعلمه فيما مضى من ذلك، وما بقي علم واحد»[(٢)].

وعن قتادة قال: «أخفى من السر: ما حدثت به نفسك، وما لم تحدث به نفسك أيضًا مما هو كائن»[(٣)].

قال الرازي: «ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالأخفى: ما ليس بقول، وهذا أظهر، فكأنه تعالى بين أنه يعلم السر الذي لا يسمع، وما هو أخفى منه، فكيف لا يعلم الجهر؟! والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة، والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والأخفى على ما فيه ثواب أو عقاب، والسر هو الذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها، والأخفى هو الذي لم يبلغ حد العزيمة، ويحتمل أن يفسر الأخفى بما عزم عليه وما وقع في وهمه الذي لم يعزم عليه، ويحتمل ما لم يقع في سره بعد، فيكون أخفى من السر»[(٤)].

قال مسروق: «من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه»[(٥)].

وعن أبي حفص عمرو بن سلمة النيسابوري قال: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال»[(٦)].

وقال أبو تراب النخشبي: «احفظ همك فإنه مقدمة الأشياء، فمن صح له همه صح له ما بعد ذلك من أفعاله وأحواله»[(٧)].

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فعد الصبر والتقوى من عزم الأمور، وأمرهم بتقوى الله فيمن يؤذيهم، وإنما يكون ذلك بطاعة الله فيمن يعصي الله في المؤمنين؛ فلا يبرر فحشه الإفحاش له في القول والفعل، ولا يبرر ارتكابه الخيانة

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٩٤، تفسير السمعاني ٣/ ٣٢١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٥٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٣، تفسير ابن حاتم ٧/ ٢٤١٦.
(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٦٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٠. وانظر لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٠١.
(٥) ذم الهوى ص ١٦٢.
(٦) حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٠.
(٧) انظر: سير السلف الصالحين ص ١٢١١، ذم الهوى ص ١٦١.

والدسيسة والظلم وهتك الأعراض ونحو ذلك، كل ذلك لا يبرر أن يرتكب المؤمنون مثل ذلك. فالمؤمن صاحب رسالةٍ ومبدإٍ وعزيمةٍ، ليس إمعةً، ولا يقلد في دينه من لا خلاق له.

ثالثًا: العفو والصفح عن المسيء:

العفو والصفح صورتا الحلم ومخرجاه إلى الوجود، والعفو هو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح: ترك التثريب، واشتقاقه من تجاوز الصفحة التي أثبت فيها ذنوب المذنب، أو من الإعراض بصفحة الوجه عن التلفت إلى ما كان منه من إساءة، وهو محمودٌ إذا كان على الوجه الذي يجب.

وقد ندب الله عز وجل إلى ذلك بقوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فأمر بالحلم والعفو، وقال: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠][1].

وقد عد الله عز وجل العفو والصفح عن المسيء من عزم الأمور، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٤١.

قال مقاتل: «ولمن صبر ولم يقتص، وغفر وتجاوز فإن ذلك الصبر والتجاوز لمن عزم الأمور، أي: من حق الأمور التي أمر الله عز وجل بها»[2].

قال الفضيل بن عياض: «إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلًا فقل: يا أخي، اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر؛ وإلا فارجع إلى باب العفو فإنه باب واسعٌ، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور»[3].

وبالجملة فإن العفو مندوبٌ إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبًا إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى[4].

وقد أكد الله عز وجل هذه الآية بما لم تؤكد به آيتا آل عمران ولقمان فقال هنا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال في سورة آل عمران: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

(٢) تفسير مقاتل ٣/ ٧٧٣.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢١٤.

(٤) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٤١-٢٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٩٠-٤٩٦.

وفي سورة لقمان: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] لأن فيها زيادة العفو والصفح على الصبر الذي حثت عليه آيتا آل عمران ولقمان، فإن كان الصبر على الأذى وعن الانتصار للنفس شاقًا فإن إضافة الصفح إلى ذلك أشقّ.

قال السعدي: «فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيءٍ عليها، والصبر على الأذى والصفح عنه ومغفرته ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه»[١].

رابعًا: الصدق والإخلاص:

الصدق والكذب أصلهما في القول، ويدخلان في الإرادة والعزم والفعل، فلفظ الصدق يستعمل في ستة معانٍ: صدق القول، وصدق النية والإرادة، وصدق العزم، وصدق الوفاء بالعزم، وصدق العمل، والصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صِدِّيقٌ مبالغة في الصدق. والعزم قد يكون صادقًا جازمًا، وقد يكون فيه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة، والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوةً تامةً ليس فيها ميل ولا ضعفٌ ولا تردد، بل تسخو نفسه أبدًا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات. ومن كان عزمه صادقًا تم فعله[٢].

وفرق بين الصدق والإخلاص أن للعبد مطلوبًا وطلبًا، فالإخلاص توحيد مطلوبه، والصدق توحيد طلبه. فالإخلاص: أن لا يكون المطلوب منقسمًا، والصدق: أن لا يكون الطلب منقسمًا، فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب[٣].

ومقام الصدق جامعٌ للإخلاص والعزم، فباجتماعهما يصح له مقام الصدق[٤].

وأول درجات الصدق صدق القصد، وهو كمال العزم، وقوة الإرادة، بأن يكون في القلب داعيةٌ صادقة إلى السلوك، وميلٌ شديد يقهر السر على صحة التوجه. فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور، ولا يكون فيه قسمةٌ بحالٍ، ولا يصح الدخول في شأن السفر إلى الله عز وجل، والاستعداد للقائه إلا به. ومن كان صادقًا في طلبه مستجمع القوة لم يقعد به عزمه عن الجد في جميع

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٠.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٣٨٧-٣٨٩.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٣٠.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٥٧.

أحواله. فلا تراه إلا جادًا، وأمره كله جد[1].

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أي: أوفوا بما عاهدوه عليه من الصبر على البأساء والضراء وحين البأس، فمنهم من قضى نحبه، وفرغ من العمل الذي كان نذره لله وأوجبه له على نفسه، فاستشهد بعضٌ يوم بدر وبعضٌ يوم أحد وبعضٌ في غير ذلك من المواطن، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه، كما قضى من مضى منهم على الوفاء لله بعهده[2].

وعن حميد بن عبد الرحمن الحميري أن رجلًا كان يقال له: «حممة» من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خرج إلى أصبهان غازيًا في خلافة عمر رضي الله عنه فقال: «اللهم إن حممة يزعم أنه يحب لقاءك، فإن كان حممة صادقًا فاعزم له بصدقه، وإن كان كاذبًا فاعزم عليه وإن كره، اللهم لا ترد حممة من سفره هذا». قال: فأخذه الموت، وقال عفان مرة: البطن، فمات بأصبهان. قال: فقام أبو موسى رضي الله عنه فقال: «يا أيها الناس إنا والله ما سمعنا فيما سمعنا من نبيكم صلى الله عليه وسلم، وما بلغ علمنا إلا أن حممة شهيدٌ»[3].

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٦٧- ٢٦٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦١.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٩٦٥٩.

وقال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]؛ قال الزجاج: «المعنى: فإذا جد الأمر ولزم فرض القتال، فلو صدقوا الله فآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وعملوا بما نزل عليه وما أمروا به من فرض القتال؛ لكان خيرًا لهم، أي: لكان صدقهم الله بإيمانهم خيرًا لهم»[4]. فهاتان الآيتان تبينان فرق ما بين المؤمن والمنافق.

خامسًا: المسارعة في الخيرات:

المبادرة إلى الأعمال الصالحة صفة أولي العزم من البشر، وقد ذكر الله عز وجل جملة من الأنبياء والرسل عليهم السلام، ثم قال في وصفهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال بعض المفسرين: ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني: الأنبياء الذين سماهم في هذه السورة[5]

قال محققو المسند: «إسناده صحيح إن ثبت سماع حميد بن عبد الرحمن الحميري لهذه القصة من أبي موسى، فليس في الإسناد تصريح من حميد بسماعه منه. ورجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير داود بن عبد الله الأودي، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة».
(٤) معاني القرآن، الزجاج ٥/ ١٣.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٣٠٥، البسيط، الواحدي ١٥/ ١٨٠، تفسير السمعاني ٣/ ٤٠٥، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣١٥.

يسارعون في طاعة الله، والعمل بما يقرب إليه. والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به؛ لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليلٌ لما فصل من فنون إحسانه تعالى المتعلقة بالأنبياء المذكورين أي: كانوا يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير، وهو السر في إيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين إليها[2].

وأفاد فعل الكون أن ذلك كان دأبهم وهجيراهم. والمسارعة: مستعارة للحرص وصرف الهمة والجد[3].

وحقيقة المسارعة في الخير: أن يترقى الإنسان فيما يتحراه منزلة فمنزلة، فيتعوده فيتقوى به على المنزلة الثانية؛ لأن الخير حاصلٌ بعضه عن بعض، وحاملٌ بعضه بعضًا[4].

ووصف الله عز وجل المؤمنين بذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

أي: يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها، ويسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها[5].

وما كانوا كذلك إلا لعلو هممهم وصدق عزائمهم في ميدان التسارع في أفعال الخير، همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه انتهزوه وبادروه. ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال: ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للخيرات ﴿سَٰبِقُونَ﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون[6].

والآيات الداعية إلى المسابقة والمسارعة في الخيرات كثيرة منها قوله

وقال بعضهم: إنما يعني زكريا وزوجه ويحيى عليهم السلام.
انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢١١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٧٩.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٨٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٨٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٣٦.
(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ٩٩٧.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٩٠.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٥٤.

تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، والمائدة: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

سادسًا: الثبات:

من أخلاق صاحب العزم الصادق أنه لا ينصرف عن بغيته حتى يبلغها أو يقطع به دونها لعذرٍ قاهرٍ، أو لحينٍ باهرٍ، وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستمر في عقد قلبه على طاعة مولاه مواظبًا على العبادة حتى يأتيه الموت، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

ووجه كون أهل العزم أكثر الناس ثباتًا، وأبعدهم عن الانتكاس والفتور أنهم تمرسوا بمراقبة خطراتهم، وتجريد قصدهم. وتجريد القصد وجزم النية والجد في الطلب هو عين كمال العبد، وهو متضمن للصدق والإخلاص والقيام بالعبودية. والاجتهاد في تجريد القصد وتخليصه من كل شائبة نفسانية أو طبيعية، وتجريده لمراد المحبوب وحده، والجد في طلبه وطلب مرضاته، وجزم النية -وهو أن لا يعتريها وقفة ولا تأخير- هو غاية منازل الصديقين، وصديقية العبد بحسب رسوخه في هذا المقام، وكلما ازداد قربه وعلا مقامه قوي عزمه وتجرد صدقه، فالصادق لا نهاية لطلبه ولا فتور لقصده، بل قصده أتم وطلبه أكمل.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

واليقين هنا الموت باتفاق أهل الإسلام، فجاء صلى الله عليه وسلم إذ جاءه وإرادته وقصده ونيته فى الذروة العليا ونهاية كمالها وتمامها[1].

وصاحب العزم الصادق لا يفتأ يستعين على هواه بالتجرد من الحول والقوة، والتضرع إلى الله بالدعاء بالثبات، فهو أبعد الناس عن الخذلان، هجيراه في السلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٨-٩].

وعند عزم الأمر: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

فكان أثبت الناس قدمًا، وأصدقهم عزمًا. يشيب شعره ولا تشيب عزيمته. بعكس من اشتهر بالتواني والفتور والكسل، ولم

(١) انظر: طريق الهجرتين ص٢٢٤.

يتمرس بالعزم، تراه شابًا في بدنه، وشيخًا في عزيمته وهمته.

عوامل قوة العزم

يتفاوت العزم قوة وضعفًا بقدر حظ صاحبه من مادة حياة القلب، وقوة الباعث والمنادي، ووجود المساعد والحادي، ويقدر أخذه من أسباب النجاح والتوفيق. فإذا اجتمع له من جملة العوامل المذكورة ما يجيز به أنجح وأفلح، وإلا خاب وخسر. وفيما يأتي نتناول أهم العوامل المؤثرة على العزم قوةً، ولا يخفى أن انتفاءها أو ضعفها يضعف العزم ويحط بالهمة، وبضدها تتميز الأشياء.

أولًا: الإيمان بالله:

تقدم أن العزم من باب الإرادات فهو من أعمال القلوب، والقلب للأعضاء كالملك المتصرف فى الجنود، فتصدر كلها عن أمره، يستعملها فيما شاء، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله[1]، فمتى كان القلب حيًا متيقظًا صح العزم، وتمت الإرادة، ومتى كان ميتًا أو مريضًا لم يستقم له عزمٌ في خيرٍ. وقد ضرب الله عز وجل مثلًا للمؤمن والكافر بالحي والميت فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ٥.

[الأنعام: ١٢٢].

فهل للميت من إرادةٍ فضلًا عن أن يكون له عزمٌ؟! ولا شك أن إيمان القلب ينعكس أثره على عمل الظاهر فيتميز العازم الحازم من المرتاب الشاك الحيران، يقول شيخ الإسلام: «والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧- ٥١].

فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا؛ فبين أن هذا من لوازم الإيمان»[١].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)[٢].

والقوة المحمودة ها هنا هي القوة الإيمانية، وعلى قدرها تكون القوة فى الطاعة، فإن وافقت قوة في البدن كان صاحبها أكثر عملًا، وأطول قيامًا، وأكثر صيامًا وجهادًا وحجًا. وقد تكون القوة إشارة إلى عزيمة النفس والحزم، فيكون أتم إقدامًا على العدو فى الجهاد، وأشد عزيمة فى تغيير المنكر، والصبر على إيذاء العدو، واحتمال المكروه والمشاق فى ذات الله، أو تكون القوة بالمال والغنى فيكون أكثر نفقة فى سبيل الخير، وأقل ميلًا إلى طلب الدنيا، والحرص على جمع شيء فيها. وكل هذه الوجوه ظاهرة فى القوة[٣].

وهي متلازمة؛ لأن قوة الطاعة تأتي على قدر الهمة والعزيمة، ومثل ذلك يقال في القوة المالية؛ إذ إن المال لا يكون قوة ممدوحةً إلا إذا أنفق في أبواب الخير، والجود بالمال فرعٌ عن الجود بالنفس والبدن، فآل الأمر إلى أن القوة الممدوحة هي القوة الإيمانية التي يتولد عنها قوةٌ في العزم.

والقوة الإيمانية أن يعمل المؤمن بعزائم الشرع في مواطنها، وأن لا يجبن على الأخذ برخص الشرع في مواطنها، وأن لا يترك المسلمين من يده حفاظًا لدينهم، واهتمامًا بهم، ذكرهم وأنثاهم، عالمهم وجاهلهم.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٢١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم ٢٦٦٤.
(٣) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القرطبي ٨/ ١٥٧، شرح صحيح مسلم، النووي ١٦/ ٢١٥.

وأما المؤمن الضعيف فعلى ضد ذلك يكون قانعًا بأن يسلم بنفسه[1]. وهو ما ينشأ عنه نوعٌ من الحرص والإحجام عن مواطن الرفعة، ومظان السمو، وقبض اليد عن مواطن العطاء.

والمنافق إنما يؤتى انتقاض عزمه من ثلمة يقينه، إذ لا يزال شاكًا حائرًا مترددًا متذبذبًا، فلا يتصور أن ينعقد له عزمٌ، أو يصح له فعلٌ.

وهؤلاء موصوفون بقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

وبقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

والقدر المشترك بين هذه الآيات أنها تصور حالة الكافر والمنافق من الحيرة والريبة والاضطراب، فهو أبعد ما يكون عن العزم.

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨/ ٤٤.

ثانيًا: العلم ووضوح الغاية:

العالم أبصر الناس بالعواقب، وعلى قدر علمه تكون بصيرته، وعلى قدر بصيرته تكون عزيمته.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ويقول تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

وبدلالة المفهوم فإن الذين لم يؤتوا العلم لا يرونه كذلك، فهم يتقلبون في شكهم وريبهم وضلالهم. ولا شك أن التفكر في ثمرات الأمر ومغباته يأطر القلوب الصافية والألباب الواعية على الجد والاجتهاد، وأن البصيرة بالعواقب تورث اليقظة والعزيمة، وكما قيل: البصيرة ما خلصك من الحيرة[2].

وإن عقل العاقل وعلمه لم يزل به من هم إلى هم، ومن عزم إلى عزم؛ حتى ينضي بدنه كما ينضي المسافر بعيره في تطلاب المآثر والمفاخر والمحامد، في الوقت الذي يتمتع فيه الجاهل على وثير أمن المغبات، وفاره دواب الشهوات.

إن عدم وضوح الأهداف والغايات فرعٌ عن الجهل وضعف الإيمان بالله. وقد شبه الله عز وجل الكفار بالأنعام، بل جعلهم أضل من الأنعام، ذلك أن الأنعام تأكل

(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٤٣.

وتتمتع، وربما كان القصاب يشحذ سكينه أمامها، فهي لا ترى أبعد من أنفها، ولا تطمح إلى أكثر من كومة الكلإ بين يديها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.

يقول سيد قطب: «إن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان أن للإنسان إرادةً وهدفًا وتصورًا خاصًا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق الحياة، فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه، وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله»[1].

فلا هم لمن كان كذلك إلا تحصيل عاجل الأمر، ولو بتفويت آجله، وإيثار فانيه، ولو بتضييع باقيه.

يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٠.

فمن كانت الدنيا همه وطلبته ونيته، يعمل لها ويسعى في تحصيلها، لا يوقن بمعادٍ، ولا يرجو ثوابًا، ولا يخاف عقابًا عجل الله له فيها ما يشاء من توسيع وتقتيرٍ، لا ينال منها إلا ما قدره الله عز وجل له، ثم هو في الآخرة في عذاب جهنم مذمومٌ مدحورٌ.

وقيد الأمر تقييدين، أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته. والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال ترى كثيرًا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضًا منه، وكثيرًا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة، فما يبالي أوتي حظًا من الدنيا أو لم يؤت، فإن أوتي فيها، وإلا فربما كان الفقر خيرًا له، وأعون على مراده[2].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة)**[3].

ومن أحب الدنيا كره الموت إذ عَمَّر الفانية وخرب الباقية، فكره الانتقال من

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٥٩٠. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٥٠.

العمران إلى الخراب. وحقيقة كره الموت كره لقاء الله، ومن كره الموت وأساء الظن بالله جمع كل أسباب الجبن.

قال ابن القيم: «والجبن خلق مذمومٌ عند جميع الخلق، وأهل الجبن هم أهل سوء الظن بالله، وأهل الشجاعة والجود هم أهل حسن الظن بالله كما قال بعض الحكماء في وصيته: عليكم بأهل السخاء والشجاعة فإنهم أهل حسن الظن بالله، والشجاعة جُنةٌ للرجل من المكاره، والجبن إعانة منه لعدوه على نفسه، فهو جندٌ وسلاحٌ يعطيه عدوه ليحاربه به»[1].

والجبان حريصٌ على الحياة وإن حقرت، لا يصدق له عزمٌ على مكرمة، ولا صبرٌ عن معرة يقول تعالى في وصف اليهود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وموقفهم من أمر موسى عليه السلام لهم بدخول الأرض المقدسة يصور جبنهم، وترددهم، ووهنهم يقول لهم موسى: ﴿يَٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٢٣ قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة].

فكان جزاؤهم من جنس عملهم؛ إذ تمادوا في ترددهم وحيرتهم، فضرب عليهم التيه أربعين سنةٍ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

وهم وأشباههم من المنافقين مؤنثي العزم إن أجبروا على معركةٍ لا يقاتلون إلا من وراء حصونهم، أو من خلف جدرهم: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

فهذه الحال التي جمعتهم هم وإخوانهم من المنافقين؛ تبين ما يفعله حب الدنيا والحرص عليها في قلب المرء.

وقد حذر الله عز وجل المؤمنين من أن يركنوا إلى الدنيا، فيتثاقلوا عن الجهاد، قال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ

---

(١) الفروسية، ابن القيم ص ٤٩١.

﴿الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

فلما صار كثيرٌ من المسلمين إلى ما حذروا منه سلط عليهم أعداؤهم لا عن قلةٍ، ولكن لحبهم الدنيا وكراهيتهم الموت.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها). قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: (أنتم يومئذ كثيرٌ، ولكن تكونون غثاءً كغثاء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن). قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: (حب الحياة وكراهية الموت)**[١].

ثالثًا: الدعاء:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ذلك خبرٌ من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئًا، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته[٢]. فهو سبحانه يحول بين المرء وإرادته؛ لأن الأمر لا يكون بإرادة العبد، وإنما يكون بإرادة الله تعالى[٣].

وهو سبحانه القادر أن يقلب قلب العبد فيفسخ عزائمه، ويغير نياته ومقاصده، فلما كان كذلك لم يكن للعبد حيلةٌ إلا أن يلهج بالدعاء إلى مقلب القلوب أن يثبتها.

وقد صح بذلك الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم فعن أنس رضي الله عنه قال: **(كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك). قال: فقلنا يا رسول الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟! قال: فقال: (نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها)**[٤].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

يقول أبو بكر الوراق: «يعني: في تحويل الحالات، وضعف القوة، وقهر المنة، وعجز الأركاب، وفسخ الصريمة، ونقض العزيمة»[٥].

قال الثعلبي: «قالت الحكماء: من كان

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٣٩٧. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٥٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ١١٢.

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ١٥.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٢١٠٧. وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ١٠٢.

(٥) الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ١١٣.

اليوم على حالة وغدًا أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه»[(١)].

وسئل سفيان الثوري: بم عرفت ربك؟ قال: «بفسخ العزم، ونقض الهمة»[(٢)].

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: التقى حكيمان من الحكماء، فقال أحدهما لصاحبه: بم عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزم، ومنع الهم، لما عزمت فأزالني القدر، وهممت فحال بيني وبين همي، فعلمت أن المستولي على قلبي غيري[(٣)].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلبا سليمًا، وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب**)[(٤)].

قال ابن القيم: «الدين مداره على أصلين: العزم والثبات وهما الأصلان المذكوران في الحديث «اللهم إنى أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد» وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أيد العبد بعزيمة وثباتٍ؛ فقد أيد بالمعونة والتوفيق»[(٥)].

وقال: «وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح، وما أتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما، فما أتـي أحدٌ إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداءات له، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد مواتاتها، فإذا حصل الثبات أولًا، والعزيمة ثانيًا أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق»[(٦)].

وينفسخ العزم بتشعب الهم، واستيلاء الحزن على القلب، والعجز عن الاضطلاع بالأمر، والكسل عنه، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ من ذلك كثيرًا، عن أنس رضي الله عنه أنه كان يسمع النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا يقول: (**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال**)[(٧)].

قال ابن القيم: «والمقصود أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل الحزن مما

(١) المصدر السابق ١٠/ ١٦٢.
(٢) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني ٧/ ٥٢.
(٣) العظمة، أبو الشيخ الأصبهاني ١/ ٣٣٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧١١٤. وحسنه محققو المسند بمجموع طرقه.
(٥) عدة الصابرين ص ١١٠.
(٦) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٤٦.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبيٍ للخدمة، رقم ٢٨٩٣.

يستعاذ منه، وذلك لأن الحزن يضعف القلب ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠].

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره»[١].

رابعًا: الاستخارة والاستشارة:

عظم النبي صلى الله عليه وسلم أمر الاستخارة، وبلغ من اهتمامه بها أنه كان يعلمها للصحابة رضي الله عنهم كما يعلمهم السورة من القرآن، وكان يأمرهم بها في الأمور كلها.

فعن جابر رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: (إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال في عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني. قال: ويسمي حاجته)[٢].

والاستخارة استفعال من الخير، ومعناها أن يسأل العبد ربه عز وجل التوفيق إلى خير الأمرين[٣].

قال ابن بطال: «يجب على المؤمن رد الأمور كلها إلى الله، وصرف أزمتها والتبرؤ من الحول والقوة إليه، وينبغي له أن لا يروم شيئًا من دقيق الأمور وجليلها، حتى يستخير الله فيه ويسأله أن يحمله فيه على الخير ويصرف عنه الشر؛ إذعانًا بالافتقار إليه في كل أمر والتزامًا لذلة العبودية له، وتبركًا باتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في الاستخارة؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن؛ لشدة حاجتهم إلى الاستخارة في الحالات كلها، كشدة حاجتهم إلى القراءة في كل الصلوات»[٤].

ونقل ابن حجر أن ترتيب الوارد على القلب على مراتب: الهمة ثم اللمة ثم الخطرة

(١) طريق الهجرتين ص ٢٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم ١١٦٢.

(٣) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٥١، شرح المشكاة، الطيبي ٤/ ١٢٤٥.

(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠/ ١٢٣.

ثم النية ثم الإرادة ثم العزيمة، فالثلاثة الأولى لا يؤاخذ بها بخلاف الثلاثة الأخرى، فقوله: «إذا هم» يشير إلى أول ما يرد على القلب يستخير، فيظهر له ببركة الصلاة والدعاء ما هو الخير، بخلاف ما إذا تمكن الأمر عنده وقويت فيه عزيمته وإرادته، فإنه يصير إليه له ميلٌ وحبٌّ؛ فَيُخْشَى أن يخفى عنه وجه الأرشدية لغلبة ميله إليه. ويحتمل أن يكون المراد بالهم العزيمة؛ لأن الخاطر لا يثبت فلا يستمر إلا على ما يقصد التصميم على فعله وإلا لو استخار في كل خاطر لاستخار فيما لا يعبأ به فتضيع عليه أوقاته»[1].

وأما الاستشارة فهي استنباط المرء الرأي من غيره فيما يعرض له من مشكلات الأمور، ويكون ذلك في الأمور التي يتردد المرء فيها بين فعلها وتركها[2].

ومن الأخذ بأسباب الحزم والعزم استشارة ذوي العلم السديد، والفهم الرشيد، وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه رضي الله عنهم فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعن الضحاك بن مزاحم قال: «ما أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالمشورة إلا لما علم فيها من الفضل»[3].

وعن الحسن: «ما شاور قومٌ قط إلا هدوا لأرشد أمورهم»[4].

وفي رواية قال: «والله ما استشار قومٌ قط إلا هدوا لأفضل ما بحضرتهم. ثم تلا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]»[5].

«وعن سفيان أن الشورى نصف العقل. قال: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاور حتى المرأة»[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت من الناس أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم[7].

قال البخاري: «المشاورة قبل العزم والتبين؛ لقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لبشرٍ التقدم على الله ورسوله، وشاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم قالوا: أقم فلم يمل إليهم

(١) فتح الباري ١١/ ١٨٥.
(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢١٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٨٩.
(٤) المصدر السابق ٦/ ١٩٠.
(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص ١١٤.
(٦) انظر: تفسير ابن المنذر ٢/٤٦٨، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٠١.
(٧) جزء من حديث أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٥/ ٣٣٠، رقم ٩٧٢٠.

بعد العزم، وقال: «لا ينبغي لنبيٍ يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله»[1].

قال ابن عطية: «والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه. وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالمًا دينًا، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله، وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلًا مجربًا وادًّا في المستشير، والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة -وهي أعظم النوازل- شورى، وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم، وكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه، وقد قال في غزوة بدر: أشيروا علي أيها الناس، في اليوم الذي تكلم فيه المقداد، ثم سعد بن عبادة. ومشاورته صلى الله عليه وسلم إنما هي في أمور الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما في حلال أو حرام أو حدٍ فتلك قوانين شرع»[2].

وقال: «والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ويتخير، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه، عزم عليه وأنفذه متوكلا على الله، إذ هي غاية الاجتهاد المطلوب منه»[3].

قال الراغب: «المشاورة حصن من الندامة وأمنٌ عن الملامة، وقيل: الأحمق من قطعه العجب عن الاستشارة، والاستبداد عن الاستخارة، والرأي الواحد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين والثلاثة إصرار لا ينقض»[4].

وقيل: شاور من جرب الأمور، فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء، وأنت تأخذه مجانًا[5].

وقال قتادة: «أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم، وإن القوم إذا شاور بعضهم بعضًا، وأرادوا بذلك وجه الله عزم لهم على أرشده»[6].

وعن الحسن قال: «قد علم الله عز وجل أنه ليس به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستن به من بعده»[7].

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحي

---

(1) صحيح البخاري ص ١٨١٨. والحديث أخرجه أحمد ح ١٤٧٨٧، وصححه محقق المسند.

(2) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤.

(3) المصدر السابق.

(4) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢١٠.

(5) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣٠٣.

(6) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٨٨-١٨٩.

(7) تفسير ابن المنذر ٢/ ٤٦٧.

من الله أو إلهامه إياه صواب ذلك. وأما أمتهفإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصادق وتوخٍ للحق وإرادة جميعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حيد عن هدى فالله مسددهم وموفقهم[(١)].

وفي المشاورة اجتماع العقول والأذهان، وإذا اجتمعت كانت إلى استدراك الحق والصواب أسرع وأبلغ مما لو انفرد كل عقل بنفسه[(٢)].

وفي المشاورة أيضًا ترك الملامة؛ لأنه يقال: فعلت كذا بمشاورتكم، والمشاور إذا لم ينجح أمره، علم أن امتناع النجاح محض قدر، فلم يلم نفسه[(٣)].

ومنها أنه قد يعزم على أمر فيبين له الصواب في قول غيره، فيعلم عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح[(٤)].

وفي المشاورة تطييب نفوس المشاورين، والرفع من مقدارهم بصفاء قلب المشاور لهم، حيث أهلهم للمشاورة. وفي المشاورة اختبار عقول المشاورين؛ فيظهر للمشاور مقدار فهومهم، وتنوع ملكاتهم؛ فينزلهم منازلهم[(٥)].

ومدح الله عز وجل المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه، وفي ذلك اجتماع الكلمة والتحاب واتصال الأيدي، والتعاضد على الخير، فالشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسببٌ إلى الصواب[(٦)].

وعن عمر بن عبد العزيز قال: «إن المشورة والمناظرة بابا رحمةٍ ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم»[(٧)].

وقال الماوردي: «اعلم أن من الحزم لكل ذي لبٍ ألا يبرم أمرًا ولا يمضي عزمًا إلا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح»[(٨)].

وقيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم! قال: نحن ألف رجل وفينا حازمٌ، ونحن نطيعه فكأنا ألف حازمٍ[(٩)].

خامسًا: الأخذ بالأسباب:

من أسباب ضعف العزم ترك الأخذ بالأسباب، فيستصعب القاعد ما هو مقدمٌ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٩١.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ١٣٣.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٦٠، زاد المسير ١/ ٣٤٠.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٠٩، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٤٠.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٠٩، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٤٠٨-٤٠٩.
(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٠١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩، أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٩١.
(٧) انظر: أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣٠٠.
(٨) المصدر السابق.
(٩) المصدر السابق.

عليه من مهمات الأمور، وكلما فوت فرصة المبادرة ثبطه سبق السابقين، واتساع البون بينه وبينهم، فلا يرى إلا في المتأخرين، فيعين على نفسه شيطانها. وقد نعى الله عز وجل على المنافقين ترك الأخذ بالأسباب فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

وأخذهم العدة يكون بصدق العزم، ونشاط النفس، وبإعداد السلاح والزاد والراحلة للسفر، ونفقة الأهل في الحضر[١]. فتركهم الاستعداد وأخذ العدة دليلٌ على إرادتهم التخلف[٢].

ومن الأخذ بالأسباب الاستخارة والاستشارة، والمغلوب على الاستخارة والاستشارة أعجز عما سواهما من عظائم الاستعداد. ولعل ما كان يستصعبه مما هو مقدمٌ عليه صائرٌ إلى يسرٍ وسهولةٍ بمشورة بعض أهل الرأي والعقل والحزم. فترك ذلك مؤدٍ إلى ضعف العزم.

والأخذ بالأسباب يقطع على الشيطان فتح باب التحسر والندامة إن لم يقدر للمرء بلوغ ما عزم عليه، قال مسلمة بن عبد الملك: «ما أحمدت نفسي على ظفرٍ ابتدأته بعجزٍ، ولا لمتها على مكروهٍ ابتدأته بحزمٍ»

وقال بعض الحكماء: «لا ينبغي لأحدٍ أن يدع الحزم لظفرٍ ناله عاجزٌ، ولا يرغب في التضييع لنكبةٍ حلت على حازمٍ»[٣].

سادسًا: التوكل والتفويض:

يقول تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى فتوكل على الله في إمضاء أمرك على الأرشد لا على المشورة، ولا تظن أنك تنال منالًا تحبه إلا بتوفيق الله، إن الله يحب المتوكلين عليه. والتوكل: الاعتماد على الله والتفويض في الأمور إليه[٤].

فالعبد يحتاج إلى الاستعانة بالله والتوكل عليه في تحصيل العزم، وفي العمل بمقتضى العزم بعد حصول العزم[٥].

فالتوكل على الله أدعى إلى قوة العزيمة، فإن العبد إذا أيقن أن معه قاهر الكون رفعته تلك الفكرة، وجعلته أقوى الناس، وأقدرهم على صعاب الأمور، لا كما يظنه المتنكسون الجاهلون الكسالى اليائسون من روح الله، حيث جعلوا التوكل ذريعة إلى البطالة،

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٦٨.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٦٣
(٣) انظر: مكارم الأخلاق، الخرائطي ص ٣٠٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٩١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٨٣، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٠٦.
(٥) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٣٧٢.

فباؤوا بغضب على غضب[1].

فإذا حصل الرأي المتأكد بالمشورة فيجب ألا يقع الاعتماد عليه، بل يجب أن يكون الاعتماد على إعانة الله وتسديده وعصمته، والمقصود أن لا يكون للعبد اعتمادٌ على شيء إلا على الله في جميع الأمور، ودلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يقوله بعض الجهال، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيًا للأمر بالتوكل، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها، بل يعول على عصمة الحق[2].

قال القرطبي: «قال المهلب: وامتثل هذا النبي صلى الله عليه وسلم من أمر ربه فقال: (لا ينبغي لنبي يلبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله) أي: ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقض للتوكل الذي شرطه الله عز وجل مع العزيمة. فلبسه لأمته صلى الله عليه وسلم حين أشار عليه بالخروج يوم أحد من أكرمه الله بالشهادة فيه، وهم صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بدر.... دالٌ على العزيمة»[3].

ومن أخطر أمراض القلوب التي تضاد التوكل، فتحول بين المرء وبين كل خير: سوء الظن بالله، واليأس من روح الله، ولذلك كان اليأس من روح الله كفرًا.

يقول تعالى على لسان نبيه يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ومن علامات سوء الظن بالله التطير والتشاؤم، وكان الرجل منهم في الجاهلية يكون في الشأن الخطير، والحدث الجلل، فيحدث له ما يتطير به، فينفرط عقد عزمه، وتفتر همته. ولذلك نهي المؤمنون عن الطيرة، بل بلغ التحذير منها أن عدها النبي صلى الله عليه وسلم شركًا[4]، وهي سوء ظنٍ بالله، وفرارٌ من قضائه، وهي من الشرك؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن ما يتشاءمون به يؤثر في حصول المكروه، وملاحظة الأسباب في الجملة شركٌ خفيٌّ، فكيف إذا انضم إليها جهالة فاحشة وسوء اعتقاد في الله؟! ومن اعتقد أن غير الله ينفع أو يضر استقلالًا فقد أشرك[5].

يقول ابن القيم: «وقد كانت عائشة أم

---

(١) محاسن التأويل ٥/ ٢٦٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤١٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٤-٣٨٥.

(٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الطيرة شرك».
أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٢١٣، رقم ٣٦٨٧، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٤٢٩.

(٥) انظر: فيض القدير، المناوي ٤/ ٢٩٤.

المؤمنين رضي الله عنها تستحب أن تتزوج المرأة أو يبنى بها في شوال وتقول: ما تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في شوال، فأي نسائه كان أحظى عنده مني؟! مع تطير الناس بالنكاح في شوال، وهذا فعل أولى العزم والقوة من المؤمنين الذين صح توكلهم على الله واطمأنت قلوبهم إلى ربهم ووثقوا به، وعلموا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنهم لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وأنهم ما أصابهم من مصيبة إلا وهي في كتاب من قبل أن يخلقهم ويوجدهم، وعلموا أنه لا بد أن يصيروا إلى ما كتبه وقدره، ولابد أن يجري عليهم، وأن تطيرهم لا يرد قضاءه وقدره عنهم، بل قد يكون تطيرهم من أعظم الأسباب التي يجري عليهم بها القضاء والقدر؛ فيعينون على أنفسهم، وقد جرى لهم القضاء والقدر بأن نفوسهم هي سبب إصابة المكروه لهم، فطائرهم معهم.

وأما المتوكلون على الله المفوضون إليه العالمون به وبأمره فنفوسهم أشرف من ذلك، وهممهم أعلى، وثقتهم بالله وحسن ظنهم به عدةٌ لهم، وقوة وجنةٌ مما يتطير به المتطيرون ويتشاءم به المتشائمون، عالمون أنه لا طير إلا طيره، ولا خير إلا خيره، ولا إله غيره، له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين»[1].

ومن أمثلة تأثر العزم بسوء الظن بالله: الإنفاق والصدقة في سبيل الله، فإن سوء الظن في حصول البركة والزيادة بالنفقة يورث خشية الفقر، وهو يورث التقتير والبخل والشح.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولا جرم أن من استجاب لهذه الوساوس حصل له سوء الظن والتكذيب بوعد الله؛ فغل يديه إلى عنقه. وعدد ابن القيم فوائد الصدقة فذكر منها أنها توجب الثقة بالله، وحسن الظن به كما أن البخل سوء الظن بالله[2].

ومن التفويض والتوكل ألا يتحدث المرء أنه فاعلٌ ما هو عازمٌ عليه حتى يستثني ويعلق الأمر على مشيئة الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟يْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

وهذا إرشاد من الله عز وجل لرسوله الله صلى الله عليه وسلم إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب، الذي

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٦١.
(٢) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٢٥٤.

يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون[(١)]. وقال ابن العربي: «وهذا عزمٌ من الله لعبده على أن يدخل قولًا وعقدًا في مشيئة ربه، فما تشاؤون إلا أن يشاء الله، وقول ذلك أجدر في قضاء الأمر، ودرك الحاجة»[(٢)].

سابعًا: المبادرة وترك التسويف:

أرشد الله عز وجل إلى المبادرة إلى العمل بما استبان فيه الرشد مما عزم عليه فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال ابن عاشور: المراد: «التوكل حقيقته الاعتماد، وهو هنا مجاز في الشروع في الفعل مع رجاء السداد فيه من الله، وهو شأن أهل الإيمان، فالتوكل انفعال قلبي عقلي يتوجه به الفاعل إلى الله راجيًا الإعانة ومستعيذًا من الخيبة والعوائق، وربما رافقه قول لساني وهو الدعاء بذلك. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ دليل على جواب (إذا) وفرع عنه.

والتقدير: فإذا عزمت فبادر ولا تتأخر وتوكل على الله؛ لأن للتأخر آفات، والتردد يضيع الأوقات، ولو كان التوكل هو جواب «إذا» لما كان للشورى فائدة؛ لأن الشورى كما علمت لقصد استظهار أنفع الوسائل لحصول الفعل المرغوب على أحسن وجه وأقربه، فإن القصد منها العمل بما يتضح منها، ولو كان المراد حصول التوكل من أول خطور الخاطر لما كان للأمر بالشورى من فائدة. وهذه الآية أوضح آية في الإرشاد إلى معنى التوكل الذي حرف القاصرون ومن كان على شاكلتهم معناه، فأفسدوا هذا الدين من مبناه»[(٣)].

وعن أحمد بن عاصم الأنطاكي قال: «وأنفع الحزم ما طرحت به التسويف للعمل عند إمكان الفرصة وانتهاز البغية في أيام المهلة، وعند غفلة أهل الغرة»[(٤)].

وقال ابن القيم: «وأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به رغم القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه»[(٥)].

والتسويف سمة بارد الحس عديم المبالاة، الذي كلما همت نفسه بخيرٍ وتشوفت إليه وعزمت عليه أعاقها بالتسويف حتى يفجأه الموت. ومن علامات التسويف كثرة الجدال في الأمر، وافتراض المسائل وتشقيقها؛ فرارًا من العمل.

يقول ابن رجب: «فأما إن كانت همة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٨.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢٢٨.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ١٥١.
(٤) انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني ٩/ ٢٨٣.
(٥) الصواعق المرسلة ٤/ ١٥٦١.

السامع مصروفة عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع فإن هذا مما يدخل في النهي، ويثبط عن الجد في متابعة الأمر، وقد سأل رجلٌ ابن عمر عن استلام الحجر، فقال له: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله. فقال له الرجل: أرأيت إن غلبت عنه؟ أرأيت إن زوحمت؟ فقال له ابن عمر: «اجعل (أرأيت) باليمن، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله»، ومراد ابن عمر أن لا يكون لك همٌّ إلا في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا حاجة إلى فرض العجز عن ذلك أو تعسره قبل وقوعه، فإنه يفتر العزم على التصميم عن المتابعة»[1].

ومن الفوائد المستنبطة من حديث الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد: أن الرجل إذا سنحت له فرصة القربة والطاعة فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها والتسويف بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما ثبتت، والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له[2].

(١) جامع العلوم والحكم ص ٩٢.

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٥٠٢-٥٠٣.

ثامنًا: التحرز من المعاصي:

من أسباب ضعف القلب كثرة المعاصي؛ يقول تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال قتادة: «هو الذنب على الذنب، حتى يرين على القلب فيسود»[3].

وعن الحسن قال: الذنب على الذنب حتى يموت قلبه[4]، وقال: غشيت على قلوبهم فهوت بها فلا يفزعون، ولا يتحاشون[5].

فهم قد غطى على قلوبهم الرين علاها كما يعلو الصدأ الحديد، فلا يبصرون رشدًا ولا يخلص إلى قلوبهم خيرٌ؛ بسبب إصرارهم على الكبائر وتسويف التوبة.

قال القشيري: «وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة، والشهوة والصفوة لا تجتمعان فإذا حصلت الشهوة رحلت الصفوة. وموجب القسوة هو انحراف القلب عن مراقبة الرب. ويقال: موجب القسوة أوله خطرة، فإن لم تتدارك صارت فكرة، وإن لم تتدارك صارت عزيمة، فإن لم تتدارك جرت المخالفة، فإن لم تتدارك بالتلافي صارت قسوة، وبعدئذ تصير طبعًا

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق ٣/ ٤٠٤، جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠١.

(٥) انظر: المصدر السابق ٢٤/ ٢٠٣.

وربنا»[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه)[2].

قال القاضي عياض: «وقوله: «على قلبين أبيض مثل الصفا» ليس تشبيهه بالصفا لما تقدم من بياضه، لكن أخذ في وصف آخر من شدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل وأن الفتن لم تلصق به، ولم تؤثر فيه كالصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، بخلاف الآخر الذي شبهه بالكوز الخاوي الفارغ من الإيمان، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] قيل: لا تعي خيرًا»[3].

فكثرة المعاصي من أسباب فتور الهمة وقصور العزم عن الخير.

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٥٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، رقم ١٤٤.

(٣) إكمال المعلم ١/ ٤٥٣.

تاسعًا: مجاهدة الشيطان:

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

أي: يخوفكم به ويوسوس إليكم، فلا تخرجون الزكاة[4].

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن للشيطان لمةً، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان)، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾[5].

قال ابن رجب: «من صدق العزيمة يئس منه الشيطان، ومتى كان العبد مترددًا طمع فيه الشيطان وسوفه ومناه. يا هذا كلما رآك الشيطان قد خرجت من مجلس الذكر كما دخلت، وأنت غير عازمٍ على الرشد فرح بك إبليس، وقال: فديت من لا يفلح»[6].

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٨٩٤.

(٥) أخرجه الترمذي ح٢٩٨٨ في التفسير، باب ومن سورة البقرة، وابن حبان في صحيحه ح ٩٩٧، وفي سنده من اختلط، وأخرجه الطبري بسنده موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه ٥/ ٦-٨، قال الأرنؤوط: «وهذا إسناد صحيح، وقد أعل بالوقف، وأجيب بأن له حكم الرفع، لأنه لا يعلم بالرأي ولا يدخله القياس».

(٦) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٣٧٧.

وإن الشيطان ليستعين على ابن آدم بالهوى، فيأتيه من أضعف جهات عزيمته، فإن المرء قد يكون ذا عزيمةٍ ماضيةٍ، ولكنه أمام داعي هواه لا صبر له قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وفي المراد بضعف الإنسان ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الضعف في أصل الخلقة.

قال الحسن: هو أنه خلق من ماءٍ مهين.

والثاني: أنه قلة الصبر عن النساء، قاله طاوس، ومقاتل.

والثالث: أنه ضعف العزم عن قهر الهوى، وهذا قول الزجاج، وابن كيسان[1].

فلما رأى إبليس منه هذا الضعف ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الرازي: «فإن قيل: كيف ظن إبليس هذا الظن الصادق بذرية آدم؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: أنه سمع الملائكة يقولون: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. فعرف هذه الأحوال. الثاني: أنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزمًا، فقال: الظاهر أن أولاده يكونون مثله في ضعف العزم»[2].

والوسوسة إذا استحكمت من القلب أفسدت كل عزمٍ، ونقلته إلى الشك والحيرة، التي قد تفسد على العبد اعتقاده وعباداته، فلا عجب أن تكررت وجوه الاستعاذة؛ إشعارًا بعظم خطر المستعاذ منه في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

فلما كانت مضرة الدين، وهي آفة الوسوسة، أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت، جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث: الرب والملك والإله، وإن اتحد المطلوب، وفي الاستعاذة من ثلاث: الغاسق والنفاثات والحاسد بصفة واحدة وهي الرب، وإن تكثر الذي يستعاذ منه[3].

قال الشيخ عطية سالم: «ولقد علم عدو المسلمين أن أخطر سلاح على الإنسان هو الشك، ولا طريق إليه إلا بالوسوسة، فأخذ عن إبليس مهمته وراح يوسوس للمسلمين في دينهم وفي دنياهم، ويشككهم في قدرتهم على الحياة الكريمة مستقلين عنه، ويشككهم في قدرتهم على التقدم والاستقلال الحقيقي، بل وفي استطاعتهم على الإبداع والاختراع؛ ليظلوا في فلكه ودائرة نفوذه، فيبقى المسلمون يدورون في حلقة مفرغة، يقدمون رِجْلًا ويؤخرون

(١) زاد المسير ص ٣٩٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٣٦٧.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٥٧٩.

أخرى. والمتشكك في نتيجة عمل لا يقدم عليه أبدًا، بل ما يبنيه اليوم يهدمه غدًا»[1].

وإذا كانت مهمة الوسوسة التشكيك والذبذبة والتردد فإن عمومات التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضي دون تردد، والقاعدة الفقهية: «اليقين لا يرفع بشكٍ» ومن هنا كانت التكاليف كلها على اليقين، فالعقائد لا بد فيها من اليقين، والفروع في العبادات لا بد فيها من النية؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (**إنما الأعمال بالنيات**) والشرط في النية الجزم واليقين، فمن هذا كله كانت دوافع العزيمة مستقاة من التكاليف، مما يقضي على نوازع الشك والتردد، فلم يبق في قلب المؤمن مجالٌ لشكٍ، ولا محلٌ لوسوسة[2].

عاشرًا: أثر الصحبة:

من أهم أسباب قوة العزم صحبة أولي الهمم العالية، ومطالعة أخبارهم[3]، ومن أسباب الفتور وضعف العزيمة، وسفول الهمة مصاحبة البطالين، والركون إلى المثبطين.

ولو كان أحدٌ آمنًا من تأثير البطالين لكان النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الله عز وجل يأمره: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن القيم: «فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر أم من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أم الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطًا. ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائعٌ قد فرط فيه. وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط بالإهلاك. وفسر بالخلاف للحق. وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود: أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات. فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه»[4].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]

أي: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم

(١) تتمة أضواء البيان ٩/ ١٨٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ٩/ ١٨٩.
(٣) انظر: علو الهمة ص ٣٥٢-٣٥٧.
(٤) الوابل الصيب ص ٤١.

من دون أهل دينكم وملتكم، يعني من غير المؤمنين، وإنما جعل البطانة مثلًا لخليل الرجل فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه؛ لحلوله منه في اطلاعه على أسراره، وما يطويه عن أباعده وكثيرٍ من أقاربه محل ما ولي جسده من ثيابه، فنهى الله المؤمنين أن يتخذوا من الكفار أخلاء وأصفياء، فإنهم منطوون على الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، لا يتركون جهدهم في تخبيل المؤمنين وإفسادهم، يتمنون لهم العنت والشر والمضرة لا المسرة[1].

والحاصل أنهم لا يدعون للتثبيط عن الخير سبيلًا إلا طرقوه، ولا يبقون غاية في التلبيس على المؤمنين إلا قصدوها.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

فهذه الآيات وأشباهها دالة على أثر الصاحب على صاحبه، فإن كان ممن وفقوا لصاحب الخير فقد رشد، وإن كانت الأخرى فقد غوى وهلك. نسأل الله التوفيق والسلامة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)**[2].

قال الغزالي: «وأما الحريص على الدنيا فصحبته سمٌّ قاتل؛ لأن الطباع مجبولةٌ على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا؛ فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة»[3].

حادي عشر: تحصيل ملكة العزم بالمداومة عليه:

عن معاوية رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(الخير عادة، والشر لجاجة)**[4].

ومن اعتاد صدق العزم في أموره كلها

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٧٠٧-٧٠٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٨٤١٧، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٣.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٢٧.

(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ١٧٣.

(٤) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١/ ٨٠، رقم ٢٢١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٣١، رقم ٣٣٤٨.

حصلت له ملكة العزيمة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه)[1].

وكما أن الرجل لا يزال يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، فكذلك الرجل يعزم ويتحرى صدق العزم حتى يكتب عند الله من أهل العزم، ولعل وصف الله عز وجل بعض عباده بأولي العزم شاهدٌ بهذا الاختصاص، وهو يحصل بالدربة والتعود والتكرار، وإلا ما كان لأمر الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم معنى إذ قال له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فمن وطن نفسه على العزم حتى صار له ملكةً راسخةً حصل له من الكمال الممكن في هذا الباب بقدر تحريه ومصابرته فيعتاد عليه، ويسهل عليه عقده. وهي سمةٌ تميز أهل العزائم.

قال ابن القيم: «تأمل الحكمة في التشديد في أول التكليف ثم التيسير في أخره بعد توطين النفس على العزم والامتثال، فيحصل للعبد الأمران: الأجر على عزمه، وتوطين نفسه على الامتثال، والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه»[2].

ويحصل له هذه الملكة الراسخة من العزم، فإذا استنفر بعد ذلك إلى خيرٍ نفر، وإن استنهض إلى مكرمةٍ نهض.

والخبير من أهل العزم أحرى من غيره بالاهتداء إلى معاقد العزم فيمضي في تحصيلها كالسهم، والوقوف على علل العزائم فيتجنبها.

قال ابن القيم: «قوله [الهروي]: فإن العزائم لم تورث أربابها ميراثًا أكرم من وقوفهم على علل العزائم. ومدار علل العزائم: على ثلاثة أشياء:

أحدها: فتورها وضعفها.

والثاني: عدم تجردها من الأغراض وشوائب الحظوظ.

والثالث: رؤية العزائم وشهودها، ونسبتها إلى أنفسهم.

فإذا عرف هذه الثلاثة عرف علل العزائم»[3].

(١) أخرجه الدارقطني في الأفراد، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٣٤٢.

(٢) عدة الصابرين ص ١٨٣.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٣٤٤.

آثار العزم على الفرد والأمة

للعزم آثار حميدة، منها ما يعود على الفرد، ومنها ما يعود على الأمة.

أولًا: آثار العزم على الفرد:

العزم من أهم مقومات تحصيل خيري الدنيا والآخرة، فهو مادة الطموح وعلو الهمة والرجولة والشهامة والمروءة وتحمل المسئولية، وهو أحد ثلاث خصالٍ ما اجتمعت في امرئٍ إلا كان له شأنٌ بين الرجال: العقل والعلم والعزم، فبالعقل يميز وجهته وبغيته، وبالعزم يُغذُّ السير إليها، وبالعلم يستقيم له سيره. وغياب العزم فتورٌ وتوانٍ، وانحطاط الهمم مؤذنٌ بانحطاط الأمم، وضعف العزائم مؤذنٌ بذهاب المكارم.

وقد بينا أن العزم أوكد النية، والنية - كما يقول ابن القيم - هي روح العمل ولبه وقوامه، وهو تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها، والنبي صلى الله عليه وسلم قد قال كلمتين كفتا وشفتا، وتحتهما كنوز العلم، وهما قوله: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[1]. فبين في الجملة الأولى أن العمل لا يقع إلا بالنية؛ ولهذا لا يكون عملٌ إلا بنية، ثم بين في الجملة الثانية

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ١.

أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه وهذا يعم العبادات والمعاملات والأيمان والنذور وسائر العقود والأفعال[2].

فلما كان تحقق العمل فرعًا عن العزم وجمع الهمة، كان كل الطاعات والقربات والمكرمات مفتقرةً إلى جمع الهمة؛ ولذا قال أبو محمد المرتعش: «ما نفعني من العبادات شيءٌ ما نفعني جمع الهمة»[3].

فإذا صحت العبادة كثرت الحسنات، ونال العبد بعزمه ما قد لا يبلغه بعمله لعذرٍ لا يد له فيه، إذا كان صادق العزم. والأدلة على هذا الأصل أكثر من أن تحصى. قال ابن القيم: «وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة فى الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم، وإن قدر التزاحم فى عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع بحيث إذا فعله واحد فات على غيره، فإن فى العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى غير حديث، فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله»[4].

والعزم يورث التأهب لكل أمرٍ جليلٍ، فإذا عزم الأمر ألفيت العازم مبادرًا متفانيًا

(٢) إعلام الموقعين ٣/ ٩١.
(٣) انظر: ذم الهوى ص ٩٠.
(٤) طريق الهجرتين ص ٢٩٩.

غير متوانٍ، فكان حقيقًا بنجاح المسعى، وجديرًا بنيل طلبته. وفي المبادرة حفظٌ للأوقات، وقطعٌ لآفات التأخر والتباطؤ.

ويدل على أثر العزم وتأثير فقده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أي: لم نجد له صبرًا عن الأكل من الشجرة[١].

قال ابن جرير: «وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء؛ لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه. فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلبٍ على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه»[٢].

قال ابن زيد: «ولو كان له عزمٌ ما أطاع عدوه الذي حسده، وأبى أن يسجد له مع من سجد له، وعصى الله الذي كرمه وشرفه»[٣].

فما كان من أمر آدم عليه السلام مع إبليس، وخروجه من الجنة إنما كان بسبب ضعف عزمه، ولم يقتصر تأثير ذلك على آدم وزوجه فحسب، بل تعدى أثره إلى ذريته؛ ولذا قال له موسى عليه السلام: **(يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة)**[٤].

ومن آثار العزم استجابة الدعاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني فإنه لا مستكره له)**[٥].

ومن آثار العزم حسن الخاتمة ذلك أن الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد يورثان المواظبة على الطاعة، ومن واظب على الطاعة مخلصًا كل أوقاته فحريٌّ أن توافيه منيته وهو مقيمٌ على الطاعة.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم؛ لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذلك»[٦].

---

(١) وهو قول قتادة مقاتل.
انظر: تفسير مقاتل ٣/ ٤٣، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٨٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٨٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٦/ ١٨٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم ٦٦١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٢٦٥٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، رقم ٦٣٣٨.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨٧.

ومن آثار العزم أن يفتح للمرء باب الفهم في دين الله، فالمواظبة على شحذ القلب بالعزم الصادق يشحذ ملكة الفهم وآلته. والفهم من بركات الطاعة كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولذا قال أبو حازم: «عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر، وإذا عزم العبد على ترك الآثام أمه الفتوح»[(١)].

ومن آثار العزم على ترك الذنوب وعدم العودة إليها أن تقبل التوبة فيختم له بالصالحات، وتبدل السيئات حسناتٍ، وتفتح له الجنات، وترفع له الدرجات. وكفى بذلك لصاحب العزم منزلةً ومثوبةً.

ثانيًا: آثار العزم على الأمة:

إن سقوط الهمم وخساستها حليف الهوان وقرين الذل والصغار، وهو أصل الأمراض التي تفشت في أمتنا فأورثتها قحطًا في الرجال، وجفافًا في القرائح، وتقليدًا أعمى، وتواكلًا، وكسلًا، واستسلامًا لما يسمى بالأمر الواقع[(٢)].

ولا ريب أن طريق هذه الأمة في الأرض يبدأ بصناعة الجيل الذي وصفه ربنا عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

قومٌ صلاب في دينهم، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين من إنكار منكر أو أمر بمعروف، مضوا فيه كالمسامير المحماة، لا يرعبهم قول قائلٍ، ولا اعتراض معترض، ولا لومة لائمٍ، ممن يشق عليه جدهم في إنكارهم وصلابتهم في أمرهم. وهذان الوصفان: الجهاد والصلابة في الدين هما نتيجة الأوصاف السابقة؛ لأن من أحب الله لا يخشى إلا إياه، ومن كان عزيزًا على الكافر جاهد في إخماده واستئصاله[(٣)].

قال السعدي: «فهم للمؤمنين أذلةٌ من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله المعاندين لآياته المكذبين لرسله، أعزةٌ قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

(١) انظر: حلية الأولياء ٣/ ٢٣٠.
(٢) علو الهمة ص ٣٢٥.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٤٨، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٩٩.

يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم، ولا يخافون لومة لائم بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته عند عذل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم»[١].

وقال ابن عاشور: «وهذا الوصف علامة على صدق إيمانهم حتى خالط قلوبهم بحيث لا يصرفهم عنه شيء من الإغراء واللوم؛ لأن الانصياع للملام آية ضعف اليقين والعزيمة. ولم يزل الإعراض عن ملام اللائمين علامة على الثقة بالنفس وأصالة الرأي»[٢].

وليس ذلك بسبيل الإمعة ضعيف العزيمة المتردي في أسر الشهوات والعادات، المتهاوي في حبائل عدوه، وقد يكون من الموقنين بأنه عدوه، وأنه أحرص الناس على مضرته، ولكن وهنه، وانحطاط عزيمته، وهوانه على نفسه وعلى الناس يثبطه عن قطع الحبل الذي يربطه بالمذلة، ويجلب عليه بالمعرة.

ومن آثار العزم على الأمة الاستقرار الأسري، فإن عزم الرجل أمر النكاح والطلاق يحسم مادة الجور، فيقوم المرء لله بالقسط، إن أحب أمسك بالمعروف، وإن كره سرح بإحسانٍ، وهذا وحده كفيلٌ بحسم مئات الآلاف من قضايا الأحوال الشخصية، التي تهدر فيها الأموال، وتضيع فيها الأوقات، فضلًا عن إراقة ماء الوجه، وقطيعة الأرحام، وفسخ أواصر العلاقات الاجتماعية مع ما فيه من فساد ذات البين.

ومن آثار العزم على الأمة صناعة الفرسان في كل ميادين الحياة، بين عالمٍ ومخترعٍ وطبيب ومهندسٍ وزارعٍ وصانعٍ إلخ، وإقامة القدوات للنشء، وصناعة المواهب، وتوريث الإبداع، فضلًا عن استجلاب الرخاء العميم، والخير المقيم ببركة الطاعات.

إن المتدبر في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

ليرى أن مكونات تلك الصورة الكلية الرائعة لا تتحقق إلا بالعزم الماضي، والهمة الأكيدة، فموالاة المؤمنين ليست كلمةً

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٥.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٣٨.

تقال، وإنما جهادٌ ومناصرةٌ ومؤازرةٌ بالنفس والنفيس، تتجاوز الكلمات الشفوية، وبيانات الشجب والاستنكار.

وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله ورسوله، كل ذلك من عزم الأمور.

والتعبير بالأفعال المضارعة إشارةٌ إلى أن ذلك دينهم وعادتهم وديدنهم، ولا شك أنه مما يحتاج إلى مثابرة ومرابطةٍ، ومكابدة للمشاق والعقبات، ومجاهدة للنفس المحبة للدعة والراحة.

والصورة المقابلة لتلك الصورة هي للمنافقين: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

ولما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعضٍ ذكر بعده ما يجري كالتفسير والشرح له، وهي الخمسة التي يميز بها المؤمن على المنافق.

فالمنافق يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف ولا يقوم إلى الصلاة إلا وهو كسلان، ويبخل بالزكاة، ويتخلف بنفسه عن الجهاد، وإذا أمره الله تثبط وثبط غيره. والمؤمن بضد ذلك كله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والجهاد[1].

فهذه صورة المجتمع المؤمن إذا حضره الإيمان وانحسر عنه النفاق، وتصدره أولو العزم، وتبدد عنه التثبيط والمثبطون. والله المستعان.

موضوعات ذات صلة

التوكل، الثبات، الشورى، الصبر، الضعف، الوهن

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٥٩.





عناصر الموضوع



مفهوم العطاء

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (عطو) تدل على أخذ ومناولة، فالعطو: التناول باليد، ومنه اشتق الإعطاء، والمعاطاة: المناولة[1].

والعطاء والعطية: اسم لما يعطى، والجمع عطايا وأعطية، وأعطيات جمع الجمع، والاسم العطاء[2].

قال الراغب: «والإعطاء: الإنالة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]. واختص العطية والعطاء بالصلة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن العربي: «حقيقة العطاء: هي المناولة، وهي في اللغة والاستعمال عبارة عن كل نفع أو ضر يصل من الغير إلى الغير»[4].

وقال المناوي: «العطاء: التناول، والمعاطاة: المناولة، لكن استعملها الفقهاء في مناولة خاصة»[5].

يتبين مما سبق أن المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٥٤.
(٢) لسان العرب ١٥/ ٦٩.
(٣) المفردات ص ٥٧٢.
(٤) أحكام القرآن ٤/ ٤٠٥.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٤٣.



العطاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عطو) في القرآن الكريم (٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليل:٥]
الفعل المضارع	٣	﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى:٥]
المصدر	٥	﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود:١٠٨]

وجاء (العطاء) في الاستعمال في القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الإعطاء والإنالة والمناولة[٢]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٤٦٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٧٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الرزق:

الرزق لغة:

الرزق: مصدر رزق يرزق رزقًا «فالرزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم» وجمعه أرزاق، والرزق: العطاء، وقد يسمى المطر رزقًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥](١) .

الرزق اصطلاحًا:

الرزق: هو العطاء الجاري تارةً دنيويًا كان أم أخرويًا، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علمًا (٢) .

الصلة بين الرزق والعطاء:

نجد أن الرزق عند أهل اللغة مجتمع على أنه ما بين العطاء وما ينتفع به مما يؤكل.

٢ الجود:

الجود لغة خلاف البخل(٣)، وجاد الرجل بماله يجود جودًا بالضم، فهو جوادٌ، وقيل: الجواد هو الذي يعطي بلا مسألة؛ صيانة للآخذ من ذل السؤال(٤).

الجود اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «الجود صفة، هي مبدأ إفادة ما ينبغي لا بعوض»(٥).

وقيل: هو «صفةٌ تحمل صاحبها على بذل ما ينبغي من الخير لغير عوض»(٦).

الصلة بين الجود والعطاء:

الجود كثرة العطاء من غير سؤال، من قولك: جادت السماء، إذا جادت بمطر غزير(٧).

٣ البذل:

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١١٥، مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٢١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥١.
(٣) مجمل اللغة، ابن فارس ص ٢٠٢.
(٤) انظر: الصحاح في اللغة، الجوهري ٢/ ٤٦١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٤٨٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٨٤.
(٥) التعريفات ص٧٩.
(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ١٤٦.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص٣٥٣.

البذل لغة:

بذل الشيء: أعطاه وجاد به، والبذل نقيض المنع، وكل من طابت نفسه لشيء فهو باذلٌ، ورجلٌ بذال، وبذول: إذا كثر بذله للمال. يقال: بذل له شيئًا، أي: أعطاه إياه[(١)]

البذل اصطلاحًا:

قال المناوي: «البذل: الإعطاء عن طيب نفس»[(٢)].

الصلة بين البذل والعطاء:

يظهر من تعريف البذل أنه إعطاء عن طيب نفس، وعليه فالعطاء أعم.

(١) العين، الفراهيدي ٨/ ١٨٧، تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٣١٢، مختار الصحاح، الرازي ص ٣١.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٧٣.

العطاء الإلهي

تحدث القرآن الكريم عن العطاء الإلهي، وتكمن محاور هذا الحديث في النقاط الآتية:

أولًا: تفرد الله عز وجل بالعطاء:

قال تعالى عن موسى عليه السلام وهو يصف عطاء الربوبية: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام قال في رده على فرعون: يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي أعطى كل مخلوق من مخلوقاته، وكل شيء من الأشياء، الصورة التي تلائمه، والهيئة التي تتحقق معها منفعته ومصلحته، ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها، وأمده بالوسائل والملكات التي تحقق هذه الوظيفة.

فالله عز وجل أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه، ثم هداهم إلى طريق استعماله والانتفاع به[(١)].

والله سبحانه هو المتفرد وحده بالعطاء، فهو الذي أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه في معاشهم، ثم هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم، كما أعطى كل نوع من أنواع خلقه الصورة التي تناسبه، والشكل الذي يتناسب مع جنسه.

ثانيًا: العطاء الدنيوي:

عطاء الله لا يحصى ولا يعد، وفي هذه الأسطر يتم الحديث عن أهم العطاء الدنيوي للإنسان.

١ . نعمة الخلق.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٢].

من أعظم النعم التي أنعم الله عز وجل بها على الإنسان نعمة الخلق، ففي الآيتين السابقتين يذكر الله عز وجل الإنسان بأنه جاء عليه وقت غير محدد من الزمان، لم يكن هذا الإنسان في ذلك الحين من الدهر شيئًا مذكورًا من بين أفراد جنسه، وإنما كان شيئًا غير موجود إلا في علم الله عز وجل، ثم أوجده سبحانه بعد ذلك من نطفة فعلقة فمضغة، ثم أنشأه سبحانه بعد ذلك خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين[(٢)].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤].

في هذه الآية يذكر الحق تعالى الإنسان

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣١٦، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٧.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٥٢٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٨٩.

كيف خلقه من نطفه عندما كان في أول أمره، ثم خلق النطفة في الرحم، وتطورت تلك النطفة إلى أن أخرجه بشرًا سويًّا، أخرجه رجلًا كاملًا[(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

أي: هو الخالق لكل شيء في هذا الكون، وهو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد، القهار لكل ما سواه، والغالب لكل من غالبه[(٢)].

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

وغيرها من هذه الآيات.

٢. الرزق.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

في هاتين الآيتين محاجة للمشركين الذين جعلوا مع الله إلهًا آخر، والاستفهام في الآية تقريري، من فوائده إلجاء المشركين المخاطبين في هذه الآية بما تقره عقولهم، إذ أنهم كانوا يقرون في ضمائرهم، ويقتنعون بقلوبهم أن الرازق هو الله وحده، ولا رازق غيره، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من الذي يرزقكم من السماء بالأمطار وما يتولد عنها، ومن الأرض وما يخرج منها من نباتات وأشجار، وغير ذلك مما تخرجه الأرض[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

قال الألوسي: «الدابة اسم لكل حيوان ذي روح، ذكرًا كان أو أنثى، عاقلًا أو غيره، مأخوذ من الدبيب وهو في الأصل المشي الخفيف»[(٤)].

والمعنى: وما من شيء يدب على الأرض، إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه، فضلًا منه سبحانه وكرمًا على مخلوقاته. وقدم سبحانه الجار والمجرور «عَلَى ٱللَّهِ» على متعلقه وهو ﴿رِزْقُهَا﴾؛ لإفادة القصر، أي: على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها[(٥)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

أي: إن الله عز وجل هو الرزاق ولا رازق

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص١٢٥٧.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٠٨.
(٣) انظر: تفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ٩٦٨.
(٤) روح المعاني، ٦/ ٢٠٣.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٥.

سواه، وكل رزق إنما هو رازقه، وما من عطاءٍ إلا وهو الذي أعطاه[1].

[انظر: الرزق: حقيقة الرزق وتنوع صوره]

ثالثًا: العطاء الأخروي:

هناك آيات تحدثت عن عطاء الله عز وجل في الآخرة، في حق النبي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء بشكل عام، وفي حق المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٤-٥].

يبشر الحق تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن الدار الآخرة وما أعده الله له فيها من نعيم لا يحيط به وصف، خير له من دار الدنيا التي أعطيناه فيها ما أعطيناه فيها من نبوة وكرامة ومنازل عالية، وخلق كريم، وفضلًا عن كل ذلك فسوف يعطيه ربك من خيرى الدنيا والآخرة كل ما يسعدك ويرضيك من نصر عظيم، وفتح مبين، وتمكين في الأرض، وإعلاء لكلمة الحق على يدك، وعلى أيدى أصحابك الصادقين، ومنازل عظمى في الآخرة لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى، كالمقام المحمود، والشفاعة، والوسيلة؛ وبذلك يرضى رضاء تامًا بما أعطاه سبحانه من نعم ومنن[2].

وجيء بحرف الاستقبال في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾؛ لإفادة أن هذا العطاء مستمر غير مقطوع، وحذف المفعول الثاني في قوله: ﴿يُعْطِيكَ﴾، ليعم كل وجوه العطاء التي يحبها صلى الله عليه وسلم، أي: ولسوف يعطيك ربك عطاء يرضيك رضاء تاما، والتعبير بقوله ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ المشتمل على فاء التعقيب؛ للإشعار بأنه عطاء عاجل النفع، وأنه سيأتى إليه صلى الله عليه وسلم في وقت قريب، وقد أنجز سبحانه وعده[3].

قال الجمل: « وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ هذا وعد شامل لما أعطاه الله تعالى له من كمال النفس، وظهور الأمر، وإعلاء الدين واللام لام الابتداء، والمبتدأ محذوف، أى: ولأنت سوف يعطيك ربك، وليست لام القسم، لأنها لا تدخل على المضارع، إلا مع نون التوكيد[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

الكوثر: فوعل من الكثرة، مثل النوفل من النفل، ومعناه: الشيء البالغ في الكثرة حد الإفراط، والعرب تسمي كل شيء كثر

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ١٩٣، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٥٧.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٤٩٠.

(٤) حاشية الجمل على الجلالين، ٤/ ٥٥١.

عدده، وعظم شأنه: كوثرًا، وقد قيل لأعرابية بعد رجوع ابنها من سفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر. أي: بشيء كثير[1].

قال الإمام القرطبي ما ملخصه: «واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولا: الأول: أنه نهر في الجنة، الثاني: أنه حوض للنبي صلى الله عليه وسلم في الموقف يوم القيامة، الثالث: أنه النبوة والكتاب، الرابع: أنه القرآن، الخامس: الإسلام، ثم قال- رحمه الله- قلت: أصح هذه الأقوال الأول والثاني؛ لأنه ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في الكوثر وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه»[2].

وافتتح سبحانه الكلام بحرف التأكيد، للاهتمام بالخبر، وللإشعار بأن المعطى شيء عظيم، أي: إنا أعطيناك بفضلنا وإحساننا- أيها الرسول الكريم- الكوثر، أي: الخير الكثير الذي من جملته هذا النهر العظيم، والحوض المطهر، فأبشر بذلك أنت وأمتك، ولا تلتفت إلى ما يقوله أعداؤك في شأنك[3].

وفي موضع آخر نجد التعبير القرآني قد تحدث عما أعده الله عز وجل لأنبيائه أيضًا.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَـٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩﴾ [مريم: ٥٨].

أي: ومن جملة من أنعم الله عليهم، أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق واجتبيناهم واخترناهم لحمل رسالتنا ووحينا، فهنا نرى أن الله تعالى قد جمع لهؤلاء المنعم عليهم جملة من المزايا منها: أعمالهم الصالحة، ومناقبهم الحميدة التي سبق الحديث عنها، ومنها: كونهم من نسل هؤلاء المصطفين الأخيار، ومنها أنهم ممن هداهم الله تعالى واصطفاهم لحمل رسالته[4].

وقد بين سبحانه في سورة النساء من أنعم عليهم بصورة أكثر شمولًا، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

والمعنى: ومن يطع الله بالانقياد لأمره ونهيه، ويطع الرسول في كل ما جاء به من ربه فأولئك المطيعون مع الذين أنعم الله عليهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٤٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/ ٢١٦.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨٠٦، إيجاز البيان، النيسابوري ٢/ ٨٩٣.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٦/ ١٢٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٦.

بالنعم التي تقصر العبارات عن تفصيلها وبيانها، وأولئك المتصفون بتمام الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، يكونون يوم القيامة في صحبة الأنبياء الذين أرسلهم الله مبشرين ومنذرين فبلغوا رسالته ونالوا منه سبحانه أشرف المنازل[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

قال الطبري: «قال أبو جعفر: واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والحجاز والبصرة وبعض الكوفيين: «وأما الذين سعدوا»، بفتح السين، وقرأ ذلك جماعة من قراء الكوفة: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾، بضم السين، بمعنى: رزقوا السعادة.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ الصواب، فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿سُعِدُوا۟﴾، فيما لم يسم فاعله، ولم يقل: «أسعدوا»، وأنت لا تقول في الخبر فيما سمي فاعله: «سعده الله»، بل إنما تقول: «أسعده الله»؟

قيل: ذلك نظير قولهم: «هو مجنون» و«محبوب»، فيما لم يسم فاعله، فإذا سموا فاعله قيل: «أجنه الله»، و«أحبه»، والعرب تفعل ذلك كثيرًا، وتأويل ذلك: وأما الذين سعدوا برحمة الله، فهم في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض»[2].

فالذين سعدوا هم أهل السعادة، وهم أتباع الرسل، فمأواهم الجنة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا، مدة دوام السماء والأرض، بمشيئة الله تعالى، عطاءً غير منقطع ولا ممنوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١١٦.

(٢) جامع البيان، ١٥/ ٤٨٧.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٧٩، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٥٨٠.

أنواع العطاء الإلهي

ينقسم العطاء الإلهي إلى قسمين، عطاء عام لجميع الخلائق، وعطاء خاص يكون لبعض الناس كالأنبياء والمرسلين والمؤمنين، وسيتم الحديث عن ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: العطاء العام:

وهذا العطاء يكون للخلائق جميعًا.

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ۝١٩ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء:١٨-٢٠].

قال الطبري: «يمد ربك يا محمد كلا الفريقين من مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعا من رزقه إلى بلوغهما الأمد، واستيفائهما الأجل ما كتب لهما، ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفترق بهما بعد الورود المصادر، ففريق مريدي العاجلة إلى جهنم مصدرهم، وفريق مريدي الآخرة إلى الجنة مآبهم.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ يقول: وما كان عطاء ربك الذي يؤتيه من يشاء من خلقه في الدنيا ممنوعا عمن بسطه عليه لا يقدر أحد من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه الله إياه، وإن الله عز وجل قسم الدنيا بين البر والفاجر، والآخرة خصوصا عند ربك للمتقين»[1].

فالعطاء هنا هو تمكين العبد من الفعل ومنحه القدرة والاستطاعة، كل على حسب رزقه وقضاء الله وقدره، وإن الله تبارك وتعالى يمد بعطائه في الدنيا أهل طاعته، وأهل معصيته، حتى الكافرين به والجاحدين له، فهذا النص يفسر الظاهرة المشهودة في دنيا الناس، فبين أن الله تبارك وتعالى يمد عباده بالعطاء غير المحظور، أي: الذي لا تستطيع منعه قوة غير قوة الله. فهو يمد أهل الدنيا الذين يريدون العجلة، ولكن مالهم في الآخرة من نصيب، بل لهم فيها العذاب جزاء كفرهم وعصيانهم، ويمد بعطائه طلاب الآخرة، ويدخر لهم العطاء الأَجَلّ الأعظم يوم القيامة، فيمنحهم بذلك عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، فضلًا منه وكرمًا[2].

أما عطاء الدنيا فمشمول بقانون الابتلاء، الذي يخضع له المؤمنون والكافرون على سواء، وأما عطاء الآخرة فهو عطاء الفضل العظيم، الذي يحرم من يحرم منه ضمن

(١) جامع البيان، ١٧/ ٤١١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٦٢.

قانون الجزاء.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع، والجذ في اللغة القطع[1].

وقد زاد الله في فضله وإكرامه، فسمى هذا العطاء أجرًا، مع أنه في الحقيقة والواقع من محض فضله وجوده، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع[2].

ونظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤-٦].

ثانيًا: العطاء الخاص:

ومن ذلك:

١ . تسخير الرياح والجن لسليمان عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٥-٣٩].

من العطاء الخاص لسليمان عليه السلام أن الله تعالى سخر له الريح تجري بأمره حيث يريدها؛ لأنها تحمل بساطه أو سفينته الهوائية التي غدوها شهر ورواحها شهر ﴿رُخَآءً﴾ أي: لينة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: أراد، كما سخر له شياطين الجن منهم البناء الذي يقوم بالبناء للدور والمصانع، ومنهم الغواص في أعماق البحر لاستخراج اللآلئ، ومنهم من إذا عصاه وتمرد عليه جمع يديه إلى عنقه بصفد ووضعه تحت الأرض.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: أعطيناه ما طلب منا وقلنا له: هذا عطاؤنا لك ﴿فَٱمْنُنْ﴾ أي: أعط ما شئت لمن شئت وامنع ما شئت عمن شئت بغير حساب منا عليك، وفوق هذا وإن لك عندنا يوم القيامة للقربة وحسن المرجع[3].

٢ . استجابة دعوة زكريا عليه السلام برزقه الولد.

وكذلك في دعاء نبي الله زكريا عليه السلام فحقق الله مطلبه وأعطاه ما يتمناه في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٩٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٤٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ١٥٧.

رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٥ - ٧].

يجتهد زكريا عليه السلام في الدعاء بأن يرزقه الله الولد، لا من أجل شهوة دنيوية، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله والحرص على من يرثه في علمه ونبوته، ويكون مرضيًّا عنده عز وجل، والمعنى: وإني - يا إلهي - قد خفت ما يفعله أقاربي ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: من بعد موتي، من تضييع لأمور الدين، ومن عدم القيام بحقه.

﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لا تلد قط في شبابها ولا في غير شبابها.

﴿فَهَبۡ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ أي: ولدًا من صلبي، هذا الولد يرثني في العلم والنبوة ويرث أيضًا من آل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة، واجعله يا رب رضيًّا.

وفي قوله: ﴿فَهَبۡ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ اعتراف عميق بقدرة الله تعالى؛ لأن مثل هذا العطاء لا يرجى إلا منه عز وجل، بعد أن تقدمت بزكريا السن، وبعد أن عهد من زوجه العقم وعدم الولادة[1].

٣. عطاء المؤمنين في الآخرة.

قال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦].

بعد أن سرد الله عز وجل ما أعده لعباده المتقين من نعيم، يبين أن هؤلاء المتقين كوفئوا مكافأة صادرة من ربك على سبيل العطاء، أي: الإحسان والتفضل، حتى شبعوا واكتفوا، فقوله: ﴿حِسَابًا﴾ صفة للعطاء وهو بمعنى كاف، فهو مصدر أقيم مقام الوصف، من قولهم: أحسبه الشيء، إذا كفاه حتى قال حسبي، أي: كافيني[2].

قال الزمخشري: «و﴿حِسَابًا﴾ صفة بمعنى كافيًا، من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال: حسبي، ويصح أن يكون قوله حسابًا معناه محسوبًا، أي: كافأهم الله تعالى على أعمالهم الحسنة في الدنيا مكافأة محسوبة، على قدر أعمالهم الطيبة»[3].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢١١.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ٣٠/ ١٥.

(٣) الكشاف، ٤/ ٦٩٠.

مجالات العطاء

تتنوع المجالات التي يشملها العطاء، ففي هذا المبحث ستطرق إلى أهم المجالات التي يدخل فيها العطاء في النقاط الآتية:

أولًا: النفس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١١١].

تدل على أن هناك صفقة- عملية شراء وبيع- وإن كان هذا ملكا لله، فالله هو المشتري، والله هو البائع، فلابد أن لهذا الأمر رمزية، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان في الولي على اليتيم أو السفيه، فقد يصح أن يكون عندي شيء وأنا ولي على يتيم، فأشتري هذا الشيء بصفتي، ثم أبيعه بصفتي الأخرى، فالشخص الواحد يكون هو الشاري وهو البائع.

فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل: «إنكم بدون منهج الله سفهاء، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشتري»، وما الثمن ؟: يأتي التحديد من الحق ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ هذا هو الثمن الذي لا يفنى ولا يبلى، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التي لا نهاية لها، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت في أسباب الله، وهكذا يكون الثمن غاليًا[١].

قال أبو السعود: «الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية. ثم جعل المبيع - الذي هو العمدة والمقصد في العقد - أنفس المؤمنين وأموالهم، والثمن - الذي هو الوسيلة في الصفقة - الجنة.

ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال: إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم؛ ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها، إيذانا بتعليق كمال العناية بهم وبأموالهم، ثم إنه لم يقل «بالجنة» بل قال: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم، فكأنه قيل: بالجنة الثابتة لهم، المختصة بهم»[٢].

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٥٠٩.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٠٥.

ومن الأمور العظيمة في هذا المجال من العطاء هو إيثار الغير على نفسك مصداقًا لقول الحق تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

والإيثار معناه: أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه، على سبيل الإكرام والنفع. والخصاصة: شدة الحاجة، وأصلها من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتحات، أي: إن من صفات الأنصار أنهم كانوا يقدمون في النفع إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، ولو كانوا في حاجة ماسة، وفقر واضح إلى ما يقدمونه لإخوانهم المهاجرين[1].

ثانيًا: العلم:

المعطاء في هذا المجال هو الذي لا يدخر عنده علمًا ولا معرفة عمن يحسن الانتفاع بذلك، والبخيل هو الذي يحتفظ بمعارفه وعلومه لنفسه، فلا ينفق منها لمستحقيها، ضَنًّا بها ورغبة بالاستئثار.

قال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وبعض البخلاء بعطاء العلم إذا بذلوا منه شيئا فإنما يبذلون منه بقدر، كأنهم يخشون النفاد، مع أن المعارف والعلوم تربو بالعطاء، فهي تزيد ولا تنقص؛ إلا أن دافع البخل في نفوسهم يجعلهم يضنون حتى في الأمور التي تزيد ولا تنقص، فسوابق أوهام نفوسهم - التي سيطر عليها أن العطاء ينقص من الأشياء التي يمتلكونها - هي التي جعلت نفوسهم تمتنع عن عطاء العلم وتبخل به، دون أن تنير أجواء نفوسهم المظلمة بصيرة واعية، أو تخفف من غواء أنانيتهم الضيقة أخلاق كريمة فاضلة[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَٰبِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

أي: إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات واضحة دالة على الحق، ومن علم نافع يهدي إلى الرشد، من بعد ما شرحناه وأظهرناه للناس في كتاب يتلى، أولئك الذين فعلوا ذلك ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ بأن يبعدهم عن رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ﴾ أي: ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة - كالملائكة

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٤٣٤، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٧١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢١٤.

والمؤمنين - بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله لكتمانهم لما أمر الله بإظهاره[1].

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كامل الخلق، ومن كمال خلقه أنه جواد بعطاء ما يختصه الله به من معارف غيبية لم يأمره بكتمها، وصفه الله بخلق الجود في هذا المجال، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٤].

ففي وصف الله لرسوله بأنه ليس بضنين على الغيب، أي:ليس بشحيح ولا بخيل بعطاء المعارف والعلوم الغيبية التي يصطفيه الله بها، وإثبات لصفة جوده صلى الله عليه وسلم بعطاء العلم الذي يملك معرفته، ويسمح له ببذله[2].

ثالثًا: المال:

المال هو كل ما يمتلك الإنسان من أشياء ينتفع بها، كالذهب والفضة، والخيل، والأنعام، والحرث، وكل مأكول، أو مشروب، أو ملبوس، أو مركوب، أو مسكون، إلى غير ذلك من أشياء يصعب إحصاؤها.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالعطاء من المال في سبيل الله من أعظم القربات إلى الله عز وجل، ولقد امتدح الله تعالى الذين يجودون بأموالهم في سبيل الله تعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

مثل صدقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، كمثل حبة ألقيت في أرض طيبة، أصابها الغيث، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوي جميل فأنبتت في الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فهنا نرى أن الله عز وجل قد شبه حال الصدقة التي يبذلها المؤمن في سبيل الله فيكافئه الله تعالى عليها بالثواب العظيم، بحال الحبة التي تلقى في الأرض النقية فتخرج عودًا مستويًا قائمًا قد تشعب إلى سبع شعب، في كل شعبة سنبلة، وفي كل سنبلة مائة حبة.

---

(١) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٢/ ١٩٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٣٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٧٤.

وفي هذا التشبيه ما فيه من الحض على العطاء في وجوه الخير، ومن الترغيب في فعل البر ولا سيما النفقة في الجهاد في سبيل الله[1].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

فأما من أعطى حق الله تعالى، بأن أنفق من ماله في وجوه الخير: كإعتاق الرقاب، ومساعدة المحتاجين واتقى المحارم والمعاصي، وأيقن بالخصلة الحسنى، وهي الإيمان بكل ما يجب الإيمان به، أو أيقن بالملة الحسنى، وهي ملة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، فسنهيئه للخصلة التي توصله إلى اليسر والراحة وصلاح البال، بأن نوفقه لأداء الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى السعادة[2].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٢٦، التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٨٨٦.

مبطلات العطاء

الأمور التي تبطل العطاء كثيرة في هذا المبحث، ستتعرف على أهم الأشياء التي تبطل العطاء كالمن والأذى والرياء وغيرها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

هذا نداء من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم عن المن والأذى، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله تعالى وإلى عدم الشكر من الناس، ثم أكد سبحانه هذا النهي عن المن والأذى بذكر مثلين فقال في أولهما: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾.

والمعنى: يا من آمنتم بالله تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها، وتمحقوا ثمارها، بسبب المن والأذى، فيكون مثلكم في هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام، كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبغي به رضاء الله ولا ثواب الآخرة؛ لأنه كفر بالله، وكفر بحساب الآخرة.

وفي هذا التشبيه تنفير شديد من المن والأذى؛ لأنه سبحانه شبه حال المتصدق

المتصف بهما في إبطال عمله بسببهما بحال هذا المنافق المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر[1].

وأما المثال الثاني فقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

والمعنى: يا أيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًّا للظهور كمثل حجر أملس لا ينبت شيئا، ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج فنزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشف حقيقته، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد لا يصلح لإنبات أي شيء عليه.

فالتشبيه في الآية الكريمة بين الذي ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذي عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتنكشف حقيقته ويراه الرائي عاريًا من أي شيء يستره، وكذلك المنافق المرائي في إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث أن ينكشف أمره؛ لأن ثوب الرياء يشف دائما عما تحته، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه[2].

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه في الآية الكريمة بين المنفق الذي يبطل صدقته بالمن والأذى وبين الحجر الأملس، وأن الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمن والأذى. فيكون المعنى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذي عليه تراب كان يرجى أن يكون منبتا للزرع فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه، فالمن والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع، كما يزيل المطر التراب الذي يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس[3].

ثم قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: إن الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، والذين يتصدقون رياءً ومفاخرة لا يقدرون على تحصيل شيء من ثواب ما عملوا؛ لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركتها، وأذهب ثمرتها، وأزال ثوابها.

والذي ينظر في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله تعالى قد حذر المنفقين من المن والأذى في ثلاث آيات متواليات، كما حذرهم من الرياء، وساق أكثر من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٢١، تفسير السمرقندي ١/ ١٧٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٢٥٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٥٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٥٧.

تشبيه لتقبيح الصدقات التي لا تكون خالصة لوجه الله، فلماذا كل هذا التشديد في النهى؟ والجواب عن ذلك: أن المن والأذى في الإنفاق كثيرًا ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب، أو رغبة في إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف: وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة، ولا يتلاقى مطلقًا مع الحكم التي من أجلها شرعت الصدقات.

بل إنه ليتنافر معها تنافرًا تامًا؛ لأن الصدقات شرعها الله لتهذيب النفوس وتطهير القلوب، ولتربط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء، فإذا ما صاحبها المن والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له، لأنها تثير في نفس المعطي بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات الذميمة، وتثير في نفس الآخذ شعورًا بالحقد والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه وبذلك تنقطع الروابط، ويتمزق المجتمع، وتتحول المحبة إلى عداوة[١].

ولقد تحدث الإمام الرازي عن الآثار السيئة للمن والأذى فقال: «وإنما كان المن مذموما لوجوه:

الأول: أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة، فإذا أضاف المعطي إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك في انكسار قلبه فيكون في حكم المضرة بعد المنفعة، وفي حكم المسيء إليه بعد أن أحسن إليه.

والثاني: أن إظهار المن يبعد أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته إذا اشتهر من طريق ذلك.

الثالث: أن المعطي يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله تعالى عليه- وأن يعتقد أن لله عليه نعمًا عظيمة حيث وفقه لهذا العمل، ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفقه منة على الغير.

الرابع: أن المعطي في الحقيقة هو الله، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون في درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول، وعن الآثار إلى المؤثر وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسيء إلى الفقير بأن يقول له: فرج الله عنى منك، وأنت أبدا تأتى إلي بما يؤلم. إلخ»[٢].

وجاء في الحديث عن أبى ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرارا قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من**

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣١٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣١١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٧/ ٤٣.

هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)[1].

والمنان: هو الذي لا يعطي شيئا إلا منه كما في رواية، وقيل: أي يمن بما يعطيه لغيره بأنه يذكر ولو لواحد، فالمبالغة غير شرط كأعطيت فلانا كذا وفلان يكره ذلك القول، فهي من المنة التي هي الاعتداد بالصنيعة، وهي إن وقعت في الصدقة أبطلت المثوبة، وإن وقعت في المعروف كدرت الصنيعة[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم١٠٦، ١/ ١٠٢.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ١١٤، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري ٥/ ١٩٠٩.

ثمرات العطاء على الفرد والمجتمع

للعطاء فوائد وثمرات فردية واجتماعية عظيمة، ذكر الباحث أهمها:

١. تطهير النفس وتزكيتها من الأنانية.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

أي: أفلح من طهر نفسه من أدناس الرذائل الخلقية والسلوكية، وخاب من غمسها في هذه الأدناس، ومن هذه الرذائل المدنسة للنفس الإنسانية الشح والأنانية المفرطة المقيتة، ولذلك سميت الزكاة بهذا الاسم، فهي مطهرة للنفوس من دنس الشح والبخل والأنانية المفرطة، وهي أيضًا مطهرة للمال من الحقوق المتعلقة به للفقراء والمساكين[3].

ولما في العطاء من تزكية للنفس، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ -١٨].

وهذه التزكية لا تكون إلا بمخالفة أهواء النفس وشهواتها، وقضية مخالفة أهواء النفوس يمكن أن تكون بتحويل ذكي فيه

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٧٧.



ارتقاء وشيء من المشقة عند الصعود، ولكن في هذا الارتقاء الشاق لذات لا يظفر بها من اتبعوا أهواء نفوسهم، المنحدرين إلى أدناس الأخلاق وقبائح السلوك، مما يجدون فيه بعض متع زائلة منغصة بالأكدار والآلام[1].

٢. يعود الفرد على الإيثار.

ويتضح ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

إن تربية النفوس على حب العطاء إقامة سد واق يمنع الأنفس عن الجنوح الخطير في مجال حب التملك والأثرة، فإنه متى جنحت النفس هذا الجنوح الخطير كان حب التملك غاية بنفسه، وليس مجرد وسيلة لتحقيق منافع الحياة ومصالحها، وعندئذ يستأثر بالإنسان داء الجمع والمنع، حتى يعيش حياته كلها جَمَّاعًا للمال، دون أن ينتفع بما يجمع منه، ثم تأخذ يد المنون فتعزله عن وظيفة حارس صندوق أو خازن مال، ليلقى حسابه العسير على ما جمع ومنع، فلا هو انتفع ولا هو نفع[2].

٣. التعاون على البر والتقوى.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

قال القرطبي: «ندب الله تعالى إلى التعاون بالبر، وقرنه بالتقوى له، لأن في التقوى رضا الله، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته»[3]، فالعطاء هو أحد أنواع البر بين الناس.

إن اكتساب العطاء يولد في الفرد شعورًا بأنه جزء من الجماعة وحب التعاون، وليس فردًا منعزلًا عنهم إلا في حدود مصالحه ومسئولياته الشخصية، فهو بهذا الشعور النبيل يجد نفسه مدفوعًا إلى مشاركتهم في عواطفهم مشاركة وجدانية ومشاركة مادية، فيفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتألم عندما يتألمون، وينشرح صدره إذا وجدهم منشرحين، ويساهم معهم في الأعمال العامة، ويعين منهم ذا الحاجة بجسمه، أو ماله، أو شفاعته في الحق، أو عواطفه ومشاعره وتعبيراتها[4].

ومتى كان هذا المعنى متبادلًا بين أفراد الجماعة استطاعت أن تمثل في واقعها معنى الجسدية الواحدة للجماعة، التي إذا اشتكى عضو منها تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، كما جاء في الحديث الصحيح من

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٢٦٣.
(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٧٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٤٧.
(٤) انظر: ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٧٤.

حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه شيءٌ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)**[1].

أبرز النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عنصرين رئيسين، وهما:

الأول: التواد، أي: التحابب، وهذا العنصر بمثابة الروح التي تسري في الأجساد المادية، فتعقد الصلة التامة بين أعضاء الجسد السارية فيه، حتى يشعر كل عضو بأنه جزء لا يتجزأ من وحدة كلية.

الثاني: التراحم، وهذا العنصر يبرز بالمشاركة الوجدانية والمادية في الآلام والمسرات، والأحزان والأفراح، وهذه المشاركة صورتها العطاء، وحقيقتها الانفعال العاطفي النبيل نحو الآخرين.

وإذا كان التواد بمثابة الروح التي تسري في الأجساد، فإن عنصر التراحم بمثابة الأغذية التي تمد الأجساد بشروط الحياة للمحافظة على بقاء الروح فيها[2].

٤ . التعود على نيل درجة البر ورضا الرحمن عز وجل.

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فالعطاء بشتى أنواعه - لاسيما العطاء مما يحب الإنسان - يوصله إلى رضا الرحمن تبارك وتعالى، والمعنى: لن تنالوا حقيقة البر، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذي يوصلكم إلى رضا الله، وإلى جنته التي أعدها لعباده الصالحين، إلا إذا بذلتم مما تحبونه وتؤثرونه من الأموال وغيرها في سبيل الله[3].

موضوعات ذات صلة:

الإنفاق، البر، التطوع، الخير، الرزق، الزكاة، العلم، المَنّ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين، رقم ٢٥٨٦، ٤/ ١٩٩٩.

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٧٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ٣٠٥.